وليام س. بوروز

# المُدمن




ترجمة

ريم غنايم

منشورات الجمل

رواية

**وليام س. بوروز: المُدمن**




مكتبة
الفكر الجديد

وليام س. بوروز

# المُدمن

ترجمة

ريم غنايم

منشورات الجمل



وليام س. بوروز: المُدمن، ترجمة: ريم غنايم
الطبعة الأولى ٢٠١٧

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٢ بيروت ـ لبنان

**William S. Burrougs: Junky,** Roman

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



# تَقديم

## آلِن غينسبرغ

تعارَفنا، أنا وبيل بوروز، في عيد الميلاد المجيد عام ١٩٤٤، وفي مطلع الخمسينات كانَت بيننا مراسلات عميقة. كنت أكنّ له احتراماً على الدّوام، كونه أكبر مني سناً وأكثر ذكاءً. في السنوات الأولى لتعارفنا، أدهشني تعامله معي باحترام أساساً. مع مرور الوقت وبحُكم التغيّرات ـ انعزالي في مستشفى أمراض عقليّة، وانغماسه في مآسيه ورحلاته ـ أصبحتُ أكثر جرأة في اقتحام خجله، كما أدركتُه، وشجّعته على كتابة المزيد من النثر. وقتها، رأينا أنا وكيرواك أَنفسنا مخلوقَين لقدَر الشعر ـ الكتابة، لكن بيل كان خجولاً جداً على خَلقِ هذه المسرحيّة المُسرفة في الأنويّة. على أيّة حال، فقد ردّ على مراسلاتي بإرسالـه فصولاً من «المدمن»، والتي أظنّ أنّه وَضعها كمسوّدات من نابع الفضول، لكنه سرعان ما حوّلها ـ بدهشة أثارت انفعالي، إلى مقاطع كتاب متسلسلة وبارعة، تسردُ موضوعاً. بالتالي فإنّ الجزء الأكبر من المخطوط وصل تباعاً عبر البريد، قسم منه وصل إلى مدينة باترسون، نيو جرسي. خِلتُ أنّي أشجّعه. يخطر في بالي اليوم أنّه قد يكون هو من شجّعني على الحفاظ على علاقة فاعلة مع العالم، بعدَ أن تريّفتُ في منزل والديّ بعدَ





قضاء ٨ أشهر في مستشفى الأمراض العقليّة نتيجة وقوع اشتباكات بين الهيبيّين والشرطة.

حَدَث هذا قبل أكثر من ربع قرن، ولا أذكُر شكلَ المراسلات التي دامَت سنواتٍ بيننا، من قارّةٍ إلى قارة ومن ساحلٍ إلى ساحل، وكانت هذه هي الطريقة التي قمنا من خلالها بتجميع الكتب، ليس كتاب «المدمن» فقط وإنّما أيضاً كتاب «رسائل الياغي»، وكتاب «المثليّ» (الذي لم ينشر بعد)، ومعظم كتاب «الغداء العاري». على نحو معيب، أبادَ بورروز معظم الرسائل الشخصية التي كتبها في منتصف الخمسينات، والتي سلّمته إياها ليتولّى أرشفَتَها ـ وهي رسائل ذات طبيعة رقيقة أكثر وضوحاً من كتاباته المنشورة ـ وهكذا، للأسف، حَكَمَ على الجانب السّاحر «للمحقّق الخفيّ لي»، بالاختفاء وراء كواليس الكتابات الأدبيّة.

بعد أن أكتمل المخطوط، شرعتُ بعَرضه على زملاء عدة في الكلية ومستشفى الأمراض العقلية ممن نجحوا في تأسيس أنفسهم في مجال النشر ـ وهو طموح امتلكته أنا أيضاً، وخاب؛ هكذا، وأنا لستُ كفؤاً في المسائل العملية، رأيت نفسي وكيلاً أدبياً سرياً. قرأ جيسون إبشتاين مخطوط بورروز «المدمن» (بالطّبع، كان يعرفُ بورروز الأسطورة من أيام كولومبيا) وخلص إلى أنّه لو كان ونستون تشرشل هو المؤلّف، لكان أمراً مثيراً للاهتمام، ولكن بما أنّ نثر بورروز لم يكن «مميزاً» (وهي نقطة جادلته فيها قدر مستطاعي في دار نشره «دابلداي»، ولكن فرط الواقع من حولي أنهكني... غاز خردل محرّرين أذكياء وأشرار... ذعري أو قلة تجربتي مع «الغباء العظيم» للمباني التجارية في نيويورك)، لم يكن هناك اهتمام بِنَشر الكتاب. حملتُ معي وقتها فصولاً بروستيّة من عمل كيرواك





«رؤى كودي» والتي تطورت لاحقاً إلى رؤية كتاب «على الطريق». وحملت «على الطريق» من مكتب ناشر إلى آخر. لويس سيمبسون، الذي تعافى من انهيار عصبيّ في دار نشر «بوبس ميريل»، لم يجد هو أيضاً أيّ قيمة فنيّة في المخطوطات.

بالصّدفة البحتة، حَصل زميلي «كارل سولومون» من معهد الطبّ النفسيّ في ولاية نيويورك، على وظيفة من عمّه، السيد أ. أ. وين من دار نشر «أيسب وكس». تمتّع سولومون بالذوق الأدبيّ والحسّ الفكاهيّ المطلوبين لقراءة هذا الورق ـ على الرغم من ارتداده عن كتابته الأدبيّة ـ المبالِغة، الدادائية ـ الحرفويّة المصابة بذعر من النقد، إلا أنّه ارتابَ، مثل سيمبسون، من رومانسية الجريمة أو التشرّد التي امتاز بها بورّوز وكيرواك. (كنت في ذلك الوقت فتى يهودياً لطيفاً أخطو بقدم واحدة داخل الكتابة البورجوازية، وأكتب قصائد ميتافيزيقية مقفّاة ومنقّحة بدقّة) أوضحت هذه الكتب بشكل قاطع أنّنا كنّا في أوج أزمة هوية تُنبئ بانهيارٍ عصبيّ في كافّة أرجاء الولايات المتحدة. من ناحية أخرى، تكوّنت سلسلة الغلاف العاديّ لدار نشر «أيس»، في معظمها، من كتب الكيتش التجاريّة التي دسّ كارل بينها من وقتٍ لآخر روايةً رومانسية فرنسيّة أو رواية إثارة، متى أجازَ له عمّه ذلك.

رأى المحرّر سولومون أَننا (نحن الرفاق، بيل، جاك، وأنا) لم نهتمّ، بقدر اهتمامه هو، بالخوف الحقيقيّ من هذا النوع من المنشورات، التي لم تكن جزءاً من وضعنا العامّ كما كانت بالنسبة إلى سياقاته ـ العائلة، والأطباء النفسيين، ومسؤوليّة دار النشر، والتوتّر جرّاء ظنون عمّه بأنّه شخص مختلّ عقلياً ـ بحيث تطلّب الأمر جرأة من جانبه





لِنَشر كتاب «من هذا النوع»، وهو كتاب يدور حول الهيروين، وإعطاء كيرواك دفعة مقدّمة بقيمة ٢٥٠ دولاراً عن رواية. «كاد هذا الشيء اللعين يصيبني بانهيار عصبيّ ـ التعامل مع تلك المواد كان بمثابة مجابهة خوف ورعب متراكمين».

في تلك الفترة ـ ولا تزال أصداء ذعر الدولة البوليسيّة التي ترعاها مكاتب مكافحة المخدّرات حتّى اليوم ـ سادت بنية تفكير ضمنيّة ثقيلة، أو افتراض بأنّه: إذا تحدثت بصوتٍ عالٍ عن «الحشيش» (وبكلّ تأكيد عن الهيروين) في الحافلة أو في المترو، فقد يقع اعتقالك ـ حتى لو تحدثت فقط عن تغيير القانون. كان الحديث عن المخدرات أمراً غير قانونيّ. حتى بعد مضيّ عَقد من الزّمن، لم يكن ممكناً طرح نقاش حول القوانين في شبكة تلفزيونيّة عامّة دون أن تتطفّل مكاتب مكافحة المخدرات وسلطة البث الفدرالية بعدها بأسابيع، بأشرطة مصوّرة تشجب النقاش. لقَد صار ذلك في عداد التاريخ.

الخوف والرعب اللذان أشار إليهما سولومون كانا حقيقيّين إلى درجة أنه تمّ تذويتهما في صناعة النّشر، ولهذا، قبل أن يتمّ طبع الكتاب، وَجب دمج أنواع من التحفظات، خشية توريط الناشر جنائياً مع المؤلف، وخشية تضليل الجمهور بسبب آراء المؤلف التعسفية والتي تعارضت مع «الصلاحيات الطبية المتعارف عليها» التي خضعت في تلك الأيام لمكتب مكافحة المخدرات (٢٠٠٠٠ طبيب حاولوا معالجة مدمني المخدرات، والآلاف منهم تم تغريمهم وحبسهم بين الأعوام ١٩٣٥ ـ ١٩٥٣. أطلقت رابطة أطباء إقليم نيويورك على الظاهرة اسم «الحرب على الأطباء»).

الحقيقة البسيطة والأساسيّة هي أن مكتب مكافحة المخدرات تعاون





مع التنظيم الإجراميّ، وشارك، من تحت الطاولة، في تجارة المخدرات، وهكذا تراكمت الأساطير التي عزّزت إدعاء «تجريم» المدمنين بدلاً من تأييد العلاج الطبيّ. كان الدافع واضحاً وبسيطاً: الجشع الماذّي، وجشع الرواتب، والابتزاز والأرباح غير المشروعة على حساب فئة من المواطنين الذين صنّفتهم الصحافة والشرطة بـ«الشياطين». تمّ توثيق علاقات العمل التاريخية بين الشرطة والنقابات الإعلامية في مطلع السبعينات بالتقارير والمستندات الرسمية المختلفة (لا سيّما تقرير لجنة «ناب» عام ١٩٧٢، و«سياسة الأفيون في الهند الصينية» من قبل شركة مكوي).

بما أنّ الموضوع اعتُبر شاذاً في أوجِه، طُلب من بورروز أن يساهم بكتابة استهلال موضحاً فيه أنّه وليام لي، المجهول الذي انتمى إلى عائلة ذات خلفية عريقة، ملمحاً إلى الطريقة التي قد تؤدي إلى أي مواطن عادي إلى طريق الإدمان، وذلك لتخفيف الوطأة على القراء، والرقابة والنقاد، والشرطة، والشكاكين وصفوف الناشرين، والله يعلم من أيضاً. كتب كارل مقدمة مضطربة تظاهر فيها بصوت العقلانيّ وقدّم الكتاب من جانب الناشر. ربما كان عقلانياً فعلاً. تمّ إسقاط أحد الأوصاف الأدبية للمجتمع الزراعي في تكساس بادعاء أنه لا يتناسب وروح الموضوع غير الأدبيّ والقاسي وغير التقليديّ. أكرّر، قوبِلَت الحقائق الطبيّة السياسيّة وبعض آراء السيّد لي على الفور بتحفّظ (وكُتبت بين قوسين) من قبل «المحرّر».

بصفتي وكيلاً، فاوضتُ على العقد وصادقتُ على كافّة التعتيمات، وحصلتُ على دفعة مقدّمة بقيمة ٨٠٠ دولار لصالح بورروز عن طبعة





مؤلّفة من ١٠٠٠٠٠ نسخة، ستطبع كَكتاب مُسند إلى كتاب آخر حول المخدرات، قام بتأليفه وكيل مخدرات سابق. بالتأكيد صفقة خسيسة. من ناحية أخرى، ونظراً لسذاجتنا، كان الأمر أشبه بمعجزة جريئة أن يُطبع النص بالفعل، وأن يُقرأ على مدى عقد من الزمن على يد مليون قارئ ذوّاق ـ قدّروا أيّما تقدير الحقائق الذكيّة، والتصوّر الواضح، واللغة المجرّدة الدقيقة، والمبنى النحويّ والصّور الذهنيّة المكتوبة بطريقة مباشرة ـ وكذلك التبصّر الاجتماعيّ الهائل، والتوجّه الثقافيّ الثوريّ حيال البيروقراطية والقانون، والتهكّم البارد الرواقيّ حول الجريمة.

**ألن غينسبرغ**

**١٩ أيلول، ١٩٧٦، نيويورك**





# استهلال

وُلدتُ عام ١٩١٤ في منزل مبنيّ من الطّوب مكوّن من ثلاثة طوابق في مدينة كبيرة في الغرب الأوسط الأمريكيّ. عاش والداي في بحبوحة. كان والدي يمتلك ويُدير مصلحةَ بيع ألواح خشبيّة. في واجهة المنزل، كان هناك مسطّح أخضر، وفي الفناء الخلفيّ حديقة وبِركة أسماك، وسياج خشبيّ عالٍ طوّق كلّ ذلك. أذكر رجلَ الإضاءة الذي أشعلَ القناديل في الشوارع، وسيارة لينكولن البرّاقة السوداء الضّخمة والرحلات إلى المتنزه في أيام الأحد. كلّها مقوّمات حياة آمنة ورغيدة كانت يوماً ولم تَعد.

أمكَنني أن أقصّ إحدى الحكايات العادية الحنينيّة عن الطبيب الألمانيّ العجوز الذي عاش بجوارنا، وعن الجرذان وهي تركض في الفناء الخلفي وسيارة عمّتي الكهربائيّة والضفدع الذي عاش في بركة الأسماك.

في الواقع، ذكرياتي الأولى يكتنفها الخوف من الكوابيس. خِفت من البقاء لوحدي، خِفت من الظلام، وخِفت من النوم لأنّي دائماً حلمت برعبٍ خارق كاد يتحقق. خشيتُ أن يأتي يوم أستيقظ فيه ولا ينقطع الحلم. أذكر أنّي سمعتُ الخادمة يوماً تتحدث عن الأفيون وكيف يسوق تدخينه أحلاماً لذيذة، فقلت: «عندما أكبر سأدخّن الأفيون».

في طفولتي كنت عرضة للهلوسات. في إحدى المرات، استيقظتُ في





الصباح الباكر ورأيت رجالاً صغاراً يلعبون في الحصن الصغير الّذي شيّدتُه. لم أشعر بالخوف، شعرت بالسكون والدهشة فقط. كانت هناك هلوسات أو كوابيس متكررة ترتبط بـ «الحيوانات على الحائط»، والتي بدأت عندما مرضت بحمى غريبة لم يُعرَف لها تشخيص وأنا في سن الرابعة أو الخامسة.

ارتدتُ مدرسة تقدميّة جنباً إلى جنب مع مُواطني المستقبل الموثوق بهم: المحامين والأطباء ورجال الأعمال من المدينة الكبيرة في الغرب الأوسط. كنت خجولاً برفقة الأطفال الآخرين وخفت من العنف الجسديّ. كانت هناك طفلة، مثلية صغيرة وعدوانيّة، اعتادت أن تشدّني من شعري كلما رأتني. وددتُ الآن لو لكمتها في وجهها، لكنها سقطت عن الحصان وكسرت رقبتها منذ أعوام. عندما كنتُ في السابعة تقريباً، قرر والداي الانتقال إلى الضواحي «للابتعاد عن الناس». اشتروا منزلاً كبيراً على قطعة أرض فيها حرش وبركة أسماك وسناجب بدلاً من الجرذان. عاشا هناك في فقاعة مرفّهة، مع حديقة جميلة وانقطعا عن حياة المدينة.

درستُ في مدرسة ثانوية خاصّة هناك، لم أكن بارزاً في الرياضة، لا على نحو رائع ولا على نحو سيئ، ولم أكن متألقاً في الدراسة أو متخلّفاً. كنت ضعيفاً في الرياضيات وفي أي شيء له علاقة بالميكانيكا. لم أحبّ يوماً الألعاب الجماعيّة التنافسية وتجنّبتها قدر الإمكان. أصبحت، في الواقع، متمارضاً مزمناً. ولكنّي أحببتُ صيدَ الأسماك، والصيد والمشي لمسافات طويلة. قرأت أكثر مما يقرأ الطفل الأمريكي المتوسّط ابن تلك الحقبة الزمنيّة والمكان: أوسكار وايلد، أناتول فرانس، بودلير، وحتى جِيد. طوّرت رابطة عاطفيّة تجاه فتى آخر، وقضينا أيام السبت نستكشف المحاجر القديمة، نتجول على الدراجات ونصطاد الأسماك في البرك والأنهار.





في تلك الفترة، استهوتني سيرة ذاتية كتبها لصّ بعنوان «لا يمكنك أن تربح». زعمَ الكاتب أنه قضى جزءاً كبيراً من حياته في السجن. بدت لي سيرة جيدة قياساً بملل ضواحي الغرب الأوسط، حيث تنعدم أي صلة مع الحياة. رأيت في صديقي حليفاً لي وشريكاً في الجريمة. عثرنا على مصنع مهجور وكسرنا كلّ نوافذه وسرقنا إزميلاً. أمسكوا بنا، وكان على أهالينا أن يدفعوا التعويضات. بعد ذلك، قطع صديقي صلته بي، لأن العلاقة بيننا شكّلت تهديداً على مكانته في المجموعة. أدركتُ أنه لم تكن هناك تسوية ممكنة مع المجموعة، مع الآخرين، ووجدت نفسي وحيداً معظم الوقت.

كانت البيئة فارغة، العدو خفيّ، وجنحتُ إلى مغامرات فرديّة. نفّذتُ أفعالي الإجرامية نابع من التجربة، لم تكن ربحيّة، وعادة كانت بلا عقاب. اقتحمت المنازل وجلتُ فيها دون أن آخذ شيئاً. في الواقع، لم تكن لديّ حاجة للمال. سافرت أحياناً إلى منطقة ريفية ومعي بندقية عيار ٠,٢٢، وأطلقت النّار على الدجاج. قيادتي المتهوّرة جعلت الشوارع غير آمنة حتى تعرّضتُ لحادث نجوت منه بأعجوبة وبلا خدش، أفزعني وأعادني إلى الحذر الطبيعي.

درستُ في جامعة من بين أكبر ثلاث جامعات، حيث تخصّصت في الأدب الإنجليزيّ لعدم اهتمامي بأيّ موضوع آخر. كرهت الجامعة وكرهت البلدة التي وجدت فيها الجامعة. كلّ شيء كان ميتاً. كانت جامعة بطراز إنجليزيّ مزيّف تعج بخريجي المدارس الإنجليزية المزيفة. كنت وحيداً. لم أعرف أحداً، وقد أثار الغرباء النفور في نظر المقبولين من أبناء الطبقة المنغلقة.

التقيتُ صدفةً ببعض المثليّين الأثرياء، من القسم الدولي للمثليين





المتجولين في جميع أنحاء العالم، الذين يلتقون في نوادي المثليّين من نيويورك إلى القاهرة. رأيتُ نهج حياة، معجم ألفاظ، إشارات، نظاماً كاملاً من الرموز، على حد قول علماء الاجتماع. ولكن هؤلاء الناس كانوا في معظمهم أغبياء، وبعد فترة الافتتان الأوليّة، بردت جذوة انفعالي منهم.

عندما تخرّجت، دون الحصول على مرتبة الشرف، تلقّيت مبلغ مائة وخمسين دولاراً شهرياً. كان ذلك في فترة الكساد الاقتصادي وانعدمَت الوظائف، ولم تكن بي رغبة في عملٍ معيّن، في كلّ الأحوال. تجولت في جميع أنحاء أوروبا لمدة عام تقريباً. لزمت أوروبا بقايا خراب ما بعد الحرب قائمة في أوروبا. بالدولار الأمريكيّ كان من الممكن شراء جزء كبير من سكان النمسا، ذكوراً أو أناثاً. كان ذلك في عام ١٩٣٦، وكان النازيون يقتربون بشكل سريع.

عدتُ إلى الولايات المتحدة. بالمعاش الذي حصلت عليه، استطعتُ العَيش من دون عمل أو احتيال. كنت منقطعاً عن الحياة كما كنتُ في ضاحية الغرب الأوسط. أشغلتُ وقتي بدورات في الدراسات العليا في علم النفس ودروس الجيو جيتسو. قررت الخضوع للتحليل النفسي، وواصلتُ فيه لمدة ثلاثة أعوام. أزال التحليل العوائق والقلق لدرجة أني استطعت العيش كما أردت. في التحليل النفسي، يتم إحراز معظم التقدم رغماً عن المعالِج الذي عالجني، والذي لم يعجبه «توجّهي»، على حدّ قوله. تخلى أخيراً عن الموضوعية التحليلية ونَعَتَني بـ«المخادع المثاليّ». كنت راضياً عن النتائج أكثر منه.

بعد أن تَمّ رفضي من خمس دورات لتدريب الضباط لأسباب





صحّيّة، تجندتُ للجيش واعتُمدتُ كشخص مناسب للخدمة غير المحدودة. قررت ألّا أحب الجيش وتمكّنت من الإفلات منه بمساعدة سجلّي في مستشفى المجانين - في إحدى المرات أصبت بنوبة مثل نوبة فان غوخ وقطعتُ مفصل الإصبع لأثير انطباع شخصٍ أعجبني وقتها. الأطباء في مستشفى المجانين لم يسمعوا قطّ بفان غوخ. شخّصوا حالتي كَمَرض انفصام الشخصية، وأضافوا خصائص جنون العظمة لكي يفسروا الحقيقة المزعجة أني عرفتُ أين أنا ومن يكون رئيس الولايات المتحدة. عندما رأوا في الجيش هذا التشخيص، أطلقوا سراحي مع ملاحظة: «تُمنع إعادة تجنيد هذا الرجل على الإطلاق أو إعادة تصنيفه».

بعد أن افترقنا أنا والجيش كصديقين، وجدت مجموعة متنوعة من الوظائف. في ذلك الوقت كان من الممكن إيجاد وظيفة في أيّ شيء. عملتُ مخبراً خاصاً، ومُبيداً وساقياً. عملت في المصانع والمكاتب. لهوتُ على أطراف الجريمة. ولكن مائة وخمسين دولاراً شهرياً كانت تصلني باستمرار. لم أكن في حاجة إلى المال. بدت لي المجازفة بحرّيتي بعمل إجرامي ما، مبالغة رومانسيّة. في ذلك الوقت وتلك الظروف عرفتُ الهيروين، وأصبحت مدمناً، وهكذا اكتسبت الحافز، الحاجة الحقيقية إلى المال التي لم تكن من قبل.

كثيراً ما يطرح السؤال: لماذا يصبح الإنسان مدمناً على المخدرات؟ يكمن الجواب في أنه عادةً لا تكون لديه نيّة الإدمان. لا تستيقظ ذات صباح وتقرر أن تكون مدمناً. يستغرق الأمر ثلاثة أشهر على الأقل من الحَقن مرتين يومياً على الأقل لتصبح مدمناً. لا تعرف حقاً معنى نوبة الهيروين إلّا بعد أن تتعاطاه مرّات عدّة. استغرق أول إدمان لي ستة أشهر تقريباً، بعد ذلك كانت أعراض الانسحاب معتدلة. أعتقد أنه ليس مبالغاً القول إن الوقوع في الإدمان يستغرق نحو عام ومئات عدّة من الحقن.






مكتبة
الفكر الجديد

كانت تجربتي الأولى مع الهيروين أثناء الحرب، عام ١٩٤٤ أو ١٩٤٥. تعرّفت إلى رجل يُدعى نورتون عملَ وقتها في مسفن. نورتون، واسمه الأصليّ موريلي أو شيء من هذا القبيل، سُرّح من الجيش قبل بدء الحرب لتزييفه شيكَ راتبه بنفسه، وصُنّفَ ضمن فئة ٤ ـ ف لدوافع تتعلق بسوء طِباعه. بدا مثل نجم السينما جورج رافت، لكنه كان أطول. حاول نورتون تحسين لغته الإنجليزية واكتساب سلوك دمث وسلس. لكنّ الدماثة لم تكن من طبيعته. في أوقات الراحة، كانت تعابير وجهه كدرة وشريرة، وعَرف الجميع أنّه متى صارَ وحيداً بانت ملامحُ الشر على وجهه.

كان نورتون لصّاً مجتهداً ولم يشعر بحال جيّدة إلّا إذا سرق يومياً شيئاً من المسفن الذي عمل فيه. معدّات، معلّبات، سروالَين، أيّ شيء. هاتفني يوماً وروى لي أنّه سرق مسدساً رشاشاً من نوع تومي غَن.

ـ قلت: «ربّما عثرتُ له على مشترٍ. ربّما. أحضره إليّ».

في تلك الفترة بدأت مشكلة النقص في الشقق تتزايد. دفعتُ ١٥ دولاراً شهرياً أجرة شقّة قذرة أطلّت على ساحة داخليّة ولم ترَ نور الشمس يوماً. تقشّر ورق الجدران من مشعاع التدفئة الذي نفث البخار، إذا حوى على البخار أساساً. أحكمتُ سدّ الشبابيك اتقاء البرد بجلفاط





الجرائد. كان المكان يعجّ بالصراصير وبين الفينة والأخرى قتلتُ بقّ الفِراش.

كنتُ أجلس بجانب مشعاع التدفئة الذي نفث رطوبةَ بخار خفيفةً، عندما سمعتُ نورتون يطرق الباب. فتحت، وقف هناك في الردهة المعتمة يتأبّط حزمة كبيرة مغلّفة بالورق البنيّ.

ـ ابتسم وقال: «هالو».

ـ قلت: «ادخل يا نورتون وانزع عنك معطفك».

أزالَ الورق عن رشّاش «تومي غَن» وقمنا بتركيبه معاً وانتزعنا إبرةَ الرّمي.

قلت إنّي سأعثر له على مشترٍ.

ـ قال نورتون: «لحظة، ثمّة شيء آخر التقطته».

كان هذا الشيء علبة صفراء ومسطّحة فيها خمس حقن من المورفين، كلّ حقنة تحوي على محلول يعادل نصف حبّة مورفين.

ـ قال مشيراً نحو المورفين: «هذه مجرّد عيّنة، لديّ في المنزل ١٥ علبة منها، وسآتي بالمزيد إذا نجحت في التخلّص منها».

ـ قلت: «سأرى ماذا بإمكاني أن أفعل».

* * *

حتّى ذلك الحين لم أتعاط المخدرات ولم يخطر في بالي حتّى أن أجرّبها. بدأت أبحث عن شخص يشتري المادّتين، وبهذه الطريقة التقيتُ بِكلّ من روي وهيرمان.

كان من بين معارفي شابّ أزعر قدم من أبستيت نيويوريك وعمل في





«ريكيرس» طبّاخاً، كي «يتجنّب لفتَ الأنظار»، على حدّ تفسيره. هاتفته وأخبرته أنّ معي شيئاً أريد التخلص منه، وحدّدنا موعداً في حانة «أنجل» في الجادة الثامنة عند شارع ٤٢.

شكّلت هذه الحانة ملتقى أوغاد شارع ٤٢، وهم صنف خاصّ من مجرمي المستقبل المحتالين. دائماً يبحثون عن وسيط له نفوذ، ذلك الشخص الذي يخطط ويدبّر ويملي عليهم عملهم. ولأن الوسطاء أصحاب النفوذ يرفضون التعامل مع المغفلين والمنحوسين والمخفقين، فإنّهم يواصلون البحث وفبركة الأكاذيب السخيفة حول إنجازاتهم الكبيرة، بينما يتجنّبون لفت الأنظار في وظائفهم كغاسلي صحون، وبائعي مشروبات، ونُدُل، وبين الفينة والأخرى يسرقون سكيراً أو مثليّاً مسكيناً ويواصلون البحث، يبحثون طيلة الوقت عن الوسيط صاحب النفوذ الذي سيوفر لهم ضربة الحظ وسيقول لأحدهم: «كنت أراقبك. أنت من أريده لهذا العمل. الآن اسمعني..».

لم يكن جاك ـ الشخص الذي تعرفت من خلاله إلى روي وهيرمان ـ شاةً أضلت القطيع وبحثت عن راعٍ، ولم يملكُ خاتماً ماسيّاً ومسدساً في الجراب وصاحب صوت واثق وحازم يشي بأنه رجل علاقات ورشاوى وصفقات تجعل السطو المسلح وكأنّه عملية سهلة ومؤكدة النجاح. بين الفينة والأخرى، حقق جاك المكاسب، وظهر بملابس جديدة، وحتّى ركب سيارات جديدة. كان أيضاً مريضاً بالكذب، وبدا أنّه كذب في الأساس من أجل نفسه. كان وجهه ريفياً، ومعافىً وصافياً، لكن شيئاً ما فيه كان مريضاً بشكل غريب. كانَ عرضة لتغيّرات فجائيّة في وزنه، كما لو كان يعاني من السكري أو من مشاكل في الكبد. غالباً ما صوحبت هذه التغيرات في الوزن بنوبات قلق خارجة عن السيطرة، فيختفي أيّاماً.





خلق هذا انطباعاً رائعاً. قد تراه يوماً بوجه فتيّ نضر. وبعدها بأسبوع بدا نحيلاً، ضامراً بمظهر متشيّخ، إلى حدّ تكاد لا تميّزه. تشبّع وجهه بالألم ولم تكن عيناه جزءاً منه. وحدها خلاياه التي تألّمت. لم يكن هو نفسه ـ الأنا الواعية التي أطلّت من عينَي الأزعر الهادئتين المتيّقظتين المُلتمعتين ـ على صلة بألَم نصفه الآخر المنبوذ، ألم الجهاز العصبيّ، ألم الجلد والأمعاء والخلايا.

انسلّ إلى المكان الذي جلستُ فيه، وطلب كأس ويسكي. شربها دفعةً واحدة، وضع الكأس على الطاولة ونظر إليّ برأس مالَ قليلاً جانباً وإلى الخلف.

ـ قال: «ماذا يبيع الأخ؟».

ـ «تومي غَن وما يقارب خمساً وثلاثين حبة مورفين».

ـ «يمكنني أن أتخلّص من المورفين فوراً، لكن تومي غَن قد يأخذ بعض الوقت».

دخل محققان ومالا على طاولة المشرب وتحدّثا إلى السّاقي. أومأ جاك إليهما برأسه. «الشرطة. هيّا نخرج».

تبعته خارج الحانة. أزاح الباب جانباً وخرج.

ـ قال: «سأصطحبك إلى شخص يرغب في المورفين، مفضّل بعدها أن تنسى هذا العنوان».

نزلنا إلى خطّ الإندبندنت السفلي. تواصل صوت جاك، الذي خاطب جمهوراً خفياً. تميّز بموهبة خاصّة وهي صبّ صوته مباشرةً داخل وعيك. لم تنجح أيّ ضوضاء خارجيّة في تشويشه.





- «أعطِني فقط مسدس ٣٨. شدّ الزند وأطلق، هذا كلّ شيء. لا يوجد شخص لا أصيبه من مسافة خمسمائة قدم. ولا يهمّني ما يُقال. أخي يمتلك مدفعين رشّاشين عيار ٣٠ في مخبأ في أيوا».

نزلنا من الخط وبدأنا نسير على رصيف مكسوّ بالثلج بين المباني السكنيّة.

- «الرّجل يدين لي منذ مدّة، هل تفهم؟ عرفت أنّ معه أموالاً، لكنّه لا يريد أن يدفع، لهذا انتظرت أن ينهي عمله. كانت معي لفّة من القطع النّقديّة. لا أحد يمكنُه أن يتلبّسك لمجرّد أنّ معك مالاً. قال لي إنّه مفلس. كسرت فكّه وأخذت نقودي. وقف صديقان له هناك ولم يتدخّلا. لو فعلا لأشهرت سكيناً في وجهيهما».

صعدنا درج أحد المباني السكنيّة. كان الدّرج مصنوعاً من المعدن الأسود البالي. توقّفنا أمام كلّ باب ضيّق مطليّ بالمعدن، وأمال جاك رأسه باتّجاه الأرضيّة مثل سارق الخزائن، وطرق على الباب طرقة متقنة. فتح الباب مثليّ في منتصف العمر، مترهّل وضخم، وَشَمَ ساعديه وظهر يديه.

- «هذا جوي» قال جاك، وقال جوي: «مرحباً».

سحب جاك من جيبه ورقة نقدية من فئة خمسة دولارات وأعطاها لجوي.

- «أحضر لنا يا جوي زجاجة ويسكي صنف شينلي، حسناً؟».

ارتدى جوي معطفاً وخرج.

في شقق كثيرة كهذه، ينفتح باب المدخل مباشرة على المطبخ. هكذا كان حال هذه الشقة، وجلسنا في المطبخ.





بعد أن خرج جوي، لاحظت رجلاً آخر يقف هناك ويتأملني. تدفّقت العدائيّة والشكوك من عينيه البنيّتين الواسعتين مثل بثّ تلفزيونيّ. كان وقع ذلك مثل وقع الأثر الجسديّ تقريباً. كان الرجل قصيراً ونحيفاً جداً، وتهلهل عنقه في ياقة قميصه. تحوّل لون بشرته من البنيّ إلى الأصفر المرقّش، وغطّت طبقة كبيرة من الماكياج وجهه في محاولة لإخفاء تهيّج جلديّ ما. تدلّت زوايا فمه إلى الأسفل بِكَشرة عصبية نكدة.

ـ «من هذا؟» سأل. عرفت لاحقاً أن اسمه هيرمان.

«صديقي. معه مورفين ويريد أن يتخلّص منه».

هزّ هيرمان كتفيه وبسط راحتيه نحونا. «صدقاً، لا أعتقد أنّي أريد أن أتورط في هذا».

ـ قال جاك: «لا مشكلة. سنبيعه لشخص آخر. هيا يا بيل».

قصدنا الغرفة الأماميّة. كان فيها مذياع صغير، تمثال بوذا مصنوع من الخزف وأمامه شمعة نذريّة، وأصناف متعدّدة من تحف زينيّة عتيقة. فوق أريكة أستوديو رقد رجلٌ. عندما دخلنا الغرفة عدّل جلسته، ألقى التحيّة وابتسم بلطف كاشفاً عن أسنانه البنيّة الباهتة. كان له صوتٌ جنوبيّ ولهجة شرق تكساس.

ـ قال جاك: «روي، هذا صديقي. معه مورفين ويريد أن يبيعه».

استقام الرجل في جلسته وأنزل ساقيه أرضاً. انخفض فكّه بحركة ضعيفة، فبدت سحنته فارغة. كان جلد وجهه أملس وبنياً وعظام الوجنتين عالية، وبدا شرقيّ الملامح. برزت أذناه بزاوية قائمة من جمجمة لا تناسق فيها. كانت عيناه بنيّتين وفيهما ألق غريب، كما لو أن





نقاط ضوء سطعت من خلفهما. سطع ضوء الغرفة على نقاط الضوء في عينيه مثل العقيق.

ـ «كم معك؟» سألني.

ـ «خمس وسبعون حقنة بمقدار نصف حبّة».

ـ قال: «السعر العاديّ هو دولاران للحبّة، لكن الحقن تباع بسعر أقلّ بقليل. الناس يفضّلون الكبسولات. في هذه الحقن يوجد ماء أكثر من اللازم ويجب سحب المادّة منها وتبخيرها». توقّف عن الكلام وشحب وجهه وقال أخيراً: «يمكنني أن أعطيكَ دولاراً ونصف دولار لقاء الحبّة».

سألني كيف يمكننا أن نتواصل، وأعطيته رقم هاتفي.

عاد جوي بالويسكي وشرب الجميع. أطلّ هيرمان من المطبخ وقال لجاك:

ـ «هل يمكنني أن أحادثك لحظة؟».

سمعتهما يتجادلان حول أمر ما. ثمّ عاد جاك وبقي هيرمان في المطبخ. شربنا جميعاً بضع كؤوس، وبدأ جاك بسرد الحكاية.

«تفقّد شريكي المنزل. كان صاحب المنزل نائماً، ووقفت أنا عند رأسه بماسورة طولها ثلاث أقدام وجدتها في الحمام. احتوت الماسورة في طرفها على صنبور، وفجأة استيقظ الرّجل وقد قفز من سريره وأخذ يركض. ضربته بالماسورة ذات الصنبور وواصل هو ركضه نحو الغرفة الأخرى، والدّم يندفع من رأسه مسافة عشرة أقدام مع كل نبضة قلب». نفّذ حركة ضخّ بيده.





ـ «أمكنك أن ترى دماغه والدم الذي سال منه». بدأ جاك يصرخ فاقداً السيطرة. «انتظرتني صديقتي في السيارة. نادتني ب ـ ها ـ ها ـ ها! نادتني ب ها ـ ها ـ ها! قاتل بدمٍ بارد!» وضحك حتى احمرّ وجهه.

* * *

بعد مضيّ بضع ليال على لقاء روي هيرمان، استعملتُ إحدى الحقن. كانت تلك أولى تجاربي مع الهيروين. تشبه الحقنة أنبوب معجون الأسنان ذي إبرة عند طرفه. تدسّ دبوساً أسفل الإبرة. يقوم الدبوس بثقب الختم؛ وتصبح الحقنة جاهزة. يضرب المورفين بدايةً مؤخّر الساقين، ثمّ مؤخّر العنق، ويبثّ موجة من الاسترخاء تعمل على تباطؤ عمل العضلات في العظام بحيث تشعر وكأنّك تحلّق بجسد بلا هيكل، وكأنّك ترقد في مياه مالحة دافئة. انتشرت موجة الاسترخاء في أنسجة جسدي، وتملّكتني حالة ذعر شديد. شعرتُ بأنّ صورة ما مخيفة توجد في مجال الرؤية، وفي كلّ مرّة حرّكت رأسي تحرّكت الصورة بحيث لم أتمكّن تماماً من رؤيتها.

شعرتُ بالغثيان. انبطحت وأغمضتُ عينيّ. مرّت من أمامي متوالية صور وكأنّي أتابع شريطاً سينمائياً: كان هناك مشرب ضخم يعجّ بالمشروبات أضيء بالنيون وقد أخذ يتعاظم ويكبر إلى أن شمل الشوارع والسيارات وأعمال الترميم؛ نادلةٌ تحملُ صينيّة فيها جمجمة؛ نجوم في سماء صافية. شعور بالذعر حدّ المَوت؛ أنفاسٌ مختنقة؛ دم جامد.

نمتُ واستيقظتُ في حالة ذعر. صباح اليوم التالي، تقيأت وانتابني إحساس بالغثيان حتى ساعات الظهيرة.

في تلك الليلة اتّصل روي.





ـ قال: «بخصوص ما تحدّثنا حوله قبل ليلتين، يمكنني أن أعطيك حوالي أربعة دولارات ثمن العلبة وسآخذ منك فوراً خمس علب. هل أنت مشغول؟ بإمكاني أن آتي إليك. سنتّفق».

بعد مضيّ دقائق، دقّ على الباب. ارتدى بذلة قماش وقميصاً غامق اللون بلَون القهوة. تبادلنا التحيّة. نظر من حوله بعينَين خلتا من أيّ تعبير وقال:

ـ «إن لم تكن تمانع، سأتناول واحدة الآن».

فتحتُ الصندوق، أخرجَ حقنة وحقنها في ساقه.

ثمّ رفع سرواله بحركات سريعة وأخرج عشرين دولاراً. وضعتُ خمس علب على طاولة المطبخ.

ـ قال: «أعتقد أنّي سأُخرج الحقن من العلب. إنّها ضخمة جداً بهذه الشكل».

بدأ بإدخال الحقن في جيوب معطفه.

ـ قال: «لا أعتقد أنّها ستثقب جسدي إذا وضعتها هكذا. اسمع، سأتّصل بك غداً أو بعد غد بعد أن أبيعها وأحصل على المزيد من المال». عدّل من هيئة قبعته على جمجمته التي كانت بلا تناسق.

ـ «نلتقي».

عاد في اليوم التالي. حقن نفسه وأخرج أربعين دولاراً.

أخرجت عشر علب واحتفظتُ بعلبتين.

ـ قلت: «هذه لي».

ـ نظر إليّ متفاجئاً وقال: «هل تتعطاها؟».





ـ «من وقت لآخر».

ـ قال محرّكاً رأسه: «هذه المادة سيئة. أفظع ما يمكن أن يحدث للرجل. في البداية يظنّ الجميع أنهم قادرون على التحكّم به. أحياناً لا نريد أن نتحكّم به» قال ضاحكاً. «سآخذ كلّ ما يمكنك الحصول عليه بهذا السعر».

عاد في اليوم التالي. سألني إن كنت قد غيّرتُ رأيي وأرغب في بيع العلبتين. أجبتُ بالنفي. اشترى حقنتين بدولار، حقنهما وغادر. قال إنّه سيسافر لمدّة شهرين.

* * *

خلال الشهر التالي، تعاطيت الحقن الثماني التي لم أبعها. الخوف الذي داهمني في المرة الأولى تلاشى بعد الحقنة الثالثة؛ من وقت لآخر، استيقظتُ مرعوباً بعد تعاطي الحقنة. بعد ستّة أسابيع اتّصلت بروي. لم أتوقّع أنّه عاد من رحلته، لكنّي سمعت صوته عبر الهاتف.

ـ قلت له: «اسمع، هل لديك شيء تبيعه؟ من المادّة التي بعتك إياها من قبل؟».

خيّم الصمت.

قال: «نعم، يمكنني أن أجلب لك ست حقن. لكنّ السعر سيكون ثلاثة دولارات للحقنة. أنت تعرف أنّه يتوفّر لديّ الكثير».

قلت: «حسناً. تعرف كيف تصل إليّ. أحضرها معك».

أحضر معه اثنتي عشرة كبسولة بمقدار نصف حبة في الواحدة داخل





قصبة زجاجيّة. دفعت له ثمانية عشر دولاراً واعتذر مجدّداً عن سعر التجزئة.

في اليوم التالي عاد واشترى منّي حبّتين.

قال وهو يتحسّس ساقه باحثاً عن وريد: «من الصّعب جداً الآن الحصول عليه بأَي سعر». أخيراً عثر على وريد وحقن السائل مع فقاعة هواء. «لو كانت فقاعات الهواء قاتلة، لما وجدت مدمناً واحداً على قيد الحياة اليوم»، قال وهو يرفع سرواله.

في وقت لاحق من نفس اليوم، دلّني روي على صيدليّة باعوا فيها إبراً دون أن يطرحوا أسئلة ـ نادرة هي الصيدليّات التي وافقت على بيع الإبر بدون روشتة طبيب. أراني كيف نحضّر حلقة ورقيّة لوصل الإبرة بقطارة العين. القطارة أسهل من الإبرة العادية خصوصاً في حقن الوريد.

بعدها بأيّام أرسلني روي لإقناع أحد الأطباء بكذبة عن حصوة في الكلى حتّى آخذ منه روشتة طبيّة للمورفين. أغلقت زوجة الطبيب الباب في وجهي، لكن روي نجح في النهاية في تجاوزها وأقنع الطبيب بكتابة روشتة بعشر كبسولات.

كانت عيادة الطبيب في منطقة لبيع الهيروين في شارع ١٠٢، أوف برودواي. كان العجوز واهناً لم ينجح في مقاومة المدمنين الذين ملؤوا المكان وكانوا في الواقع زبائنه الوحيدين. بدا وكأنه شعر بالأهميّة في كلّ مرة ألقى نظرة على غرفة استقبال الزبائن ورأى أنّها تعجّ بالبشر. أظنّ أنّه وصل إلى مرحلة أمكنه فيها أن يغيّر المظهر الخارجيّ للأشياء بما يتناسب واحتياجاته، وعندما نظر إلى غرفة الاستقبال رأى زبائن محترمين ومتنوّعين ارتدوا على الأرجح أزياء مهندمة تعود موضتها إلى





العام ١٩١٠، ولم يكونوا جماعة مدمنين بمظهر مزرٍ حضروا ليأخذوا منه روشتات طبيّة للمورفين.

سافر روي مرة كل أسبوعين أو ثلاثة. كانت رحلاته في إطار النقل العسكريّ، وغالباً ما كانت قصيرة. كلّما عاد إلى المدينة اعتدنا تقاسم الروشتات الطبيّة. في النهاية، فقد الطبيب العجوزَ عقله ورفضت الصيدليّات صرف روشتاته الطبيّة، لكنّ روي تمكّن من العثور على طبيب إيطاليّ في برونكس كان على استعداد لكتابة الروشتات الطبيّة.

في تلك الأيام، حقنتُ نفسي من وقت لآخر، لكنّي كنتُ بعيداً عن الإدمان. ثمّ انتقلتُ للسكن في شقّة في لاور إيست سايد. كانت شقّة في مبنى مهمل، وانفتح مدخلها على المطبخ.

بدأت أتردد على حانة «أنجل» كلّ ليلة والتقيتُ بهيرمان كثيراً. نجحتُ نوعاً ما في التغلّب على الانطباع الأوّل السيئ الذي تكوّن لديّ تجاهه، وخلال فترة وجيزة بدأت أدفع ثمن طعامه وشرابه وقد استجدى منّي الفكّة على الدوام. في تلك الأيام لم يكن هيرمان مدمناً. في الواقع، نادراً ما كان مدمناً، وفقط في الحالات التي كان يحصل على تمويل ما. لكنه كان على الدّوام منتشياً من شيء ما ـ من الماريحوانا أو البنزدرين أو أنه كان منتهياً تماماً من المهدّئات. كلّ ليلة، ظهر في حانة «أنجل» رجل جلف ضخم بولنديّ اسمه وايتي. كان هناك أربعة أشخاص يُدعون «وايتي»، وهذا ما أثار بلبلة. كان هذا الوايتي مزيجاً من الحساسية العصابيّة والعنف المرضيّ. كان على قناعة بأنّ أحداً لم يحبّه، وهذا ما بعث فيه قلقاً كبيراً.

في أحد أيّام الثلاثاء، مساءً، وقفنا أنا وروي عند طرف الحانة. كان





مايك سابوي هناك، وكذلك فرانكي دولان. كان دولان أيرلندياً يعاني من حَول في عين واحدة. كان ضليعاً في الأعمال القذرة ـ ضرب المخمورين العاجزين والاحتيال على شركائه. كان يقول: «لا شرف لي إطلاقاً. أنا جرذ». ويقهقه.

كان وجه مايك سابوي كبيراً وشاحباً وله أسنان طويلة. بدا مثل حيوان تحت سطح الأرض يطارد حيوانات فوق سطح الأرض. كان سارق سكارى محترفاً، لكنّه لم يكن مسنوداً. عرفه كلّ رجال الشرطة من أول نظرة، ورجال شرطة محطة مترو الأنفاق عرفوه جيداً. هكذا أمضى مايك نصف وقته معتقلاً في رايكرز أيلاند بعد أن اتّهم بالتدافع بشكل فظّ وحُكم عليه بالسجن لمدّة خمسة أشهر وتسعة وعشرين يوماً.

في ذلك المساء كان هيرمان مُنتهياً من المهدّئات وظلّ رأسه يرتطم بطاولة المشرب. كان وايتي يصول ويجول على طول طاولة المشرب محاولاً الحصول على مشروبات مجانيّة. جلس الفتية إلى طاولة المشرب متسمّرين ومتوترين يمسكون بمشاريبهم وقد أسرعوا إلى دسّ الفكّة في جيوبهم. سمعت وايتي يقول للساقي: «احتفظ لي بهذه حسناً؟» ومرر إليه فوق طاولة المشرب مديته المشبكيّة الكبيرة. جلس الفتية واجمين ومبتئسين تحت ضوء النيون. خاف الجميع من وايتي ـ باستثناء روي. ارتشف روي جرعة من كأس البيرة بشراسة. التمعت عيناه بألق ميّزهما. كان جسده الطويل بلا تناسق معلقاً على طاولة المشرب. لم ينظر إلى وايتي وإنّما نظر إلى الحائط الذي واجهه، حيث كانت مقصورات الجلوس. في وقت ما قال لي: «إنه ليس مخموراً مثلي. هو يشعر بالعطش وحسب».





وقف وايتي في وسط الحانة بقبضتين منثنيتين ودموع تنهمر على وجهه.

ـ قال: «أنا لا أسوى شيئاً. أنا لا أسوى شيئاً. ألا يدرك أحد أنّي لا أدري ما الذي أفعله؟».

حاول الفتية الابتعاد عنه أكثر دون أن يشعر.

سليم سابوي، الذي كان شريك مايك أحياناً، دخل وطلب بيرة. كان طويل القامة ونحيفاً، وبدا وجهه القبيح بلا حياة بشكل غريب، وكأنّه مصنوع من شجرة. صفعه وايتي على ظهره وسمعت سليم يقول: «بربك يا وايتي». واصلا تبادل كلام لم يصل إلى مسامعي. في غمرة هذا الحدث أخذ وايتي المدية من الساقي. وقف خلف سليم وفجأة دفع بيده نحو ظهر سليم. سقط سليم إلى الأمام على طاولة المشرب وهو يتأوّه. رأيت وايتي يتقدّم نحو واجهة المشرب وينظر من حوله. طوى المدية وأعادها إلى جيبه.

ـ قال روي: «هيا نغادر».

اختفى وايتي وفرغت الحانة إلا من مايك الذي سَنَد سليم في جانب من جسده، فيما كان فرانكي دولان في الجانب الآخر.

صباح اليوم التالي، سمعت من فرانكي أن سليم بخير. «قال الطبيب في المستشفى إنّ المدية لم تصب الكلية بأعجوبة».

ـ قال روي: «مجرد أزعر. يمكنني أن أفهم رجلاً يستقوي عليّ، لكنّ هذا الرجل يتجوّل ويلتقط الفكّة عن طاولة المشرب. انتظرت أن يحدث هذا. نويت أن أضربه أولاً في بطنه، ثم ألتقط زجاجة بيرة بسعة





لتر من الصندوق الموجود على الأرضيّة وأكسر جمجمته. مع مجرم كهذا عليك أن تكون حكيماً».

حُرمنا جميعاً من دخول حانة «أنجل»، وبعدها بمدّة وجيزة تحوّل اسم المكان إلى «روكسي غريل».

* * *

في إحدى الليالي بحثت عن جاك وقصدتُ إحدى الشقق في شارع هنري. فتحت لي الباب فتاة بشعر أحمر.

ـ قالت: «أنا ماري. تفضّل».

اتّضح أنّ جاك كان في واشنطن لأمور تتعلّق بالعمل.

ـ قالت: «تفضّل إلى الغرفة الأماميّة»، وأزاحت جانباً ستارة كوردروي حمراء. «من المطبخ أكلّم مالكي البيت وجابي الضرائب. نحن نسكن هنا».

ألقيت نظرة من حولي. التحف العتيقة اختفت. بدا المكان كالسّلطة. طاولات مطليّة بالأسود والأحمر موزّعة، وستارة سوداء غطت النافذة. على السّقف رُسمت عجلة ملوّنة فيها مربعات ومثلّثات بألوان مختلفة منحته شكل الفسيفساء.

ـ قالت ماري: «جاك رسمها» وأشارت نحو العجلة. «كان يجب أن تراه. وضع لوحاً من خشب على سلّمين وانبطح عليه. طيلة الوقت سال الطلاء على وجهه. إنّه يحبّ هذه الأمور. عندما نكون في حالة سطل فإننا نعبّر عنه من خلال العجلة. نستلقي على ظهورنا وننظر إلى العجلة التي سرعان ما تبدأ بالدوران. كلّما نظرت إليها أكثر، دارت أسرع».

امتازت العجلة بالفظاظة الكابوسيّة للفسيفساء الأزتيكيّة، الكابوس





الدموي الفظّ، القلب النابض بشمس الصباح، الألوان الوردية والزرقاء لمنافض السجائر والبطاقات البريدية والتقويمات كهدايا تذكاريّة. طُليت الجدران بالأسود، وعلى أحدها رُسمَ بطلاء أحمر حرفٌ من الحروف الصينيّة.

- قالت: «لا نعرف معناه».

- «قمصان بواحد وثلاثين سنتاً» اقترحت.

ابتسمت إلي ابتسامتها الفارغة والباردة. بدأت تحكي عن جاك. قالت: «أنا مهووسة بجاك. يعملُ لصاً، وكأنّها مجرّد مهنة عاديّة. كان يصل في الليالي ويعطيني مسدّسه ويقول «خبئيه!». إنّه يعشق العمل في المنزل ويحبّ أن يطلي ويبني الأثاث».

كانت تتحدّث وتجول في الغرفة، تتنقّل من كرسي إلى كرسي، تضمّ ساقيها وتفتحهما وترتّب سروالها الداخليّ بحيث أتيح لي المجال لرؤية أعضائها على دفعات.

واصلت الحديث، وأخبرتني أنّ أيامها معدودة لأنّها تعاني من مرض نادر.

- «هناك ست وعشرون حالة مثلي فقط. في غضون سنوات معدودة لن أقوى على الحركة إطلاقاً. جسدي غير قادر على استيعاب الكالسيوم وعظامي تتفتت تدريجياً. في نهاية الأمر، سيضطرون إلى بتر ساقيّ ولاحقاً ذراعيّ».

كان فيها شيء يخلو من العظام، وكأنّها كائن قادم من أعماق البحر. عيناها كَعَينَي سمكة باردتين، نظرتا إليك عبر طبقة لزجة غلّفتها طيلة





الوقت. أمكنني أن أتخيّل تينك العينين تتموجان فوق أرضيّة بحر داكن في كتلة بروتوبلازميّة هلاميّة.

ـ قالت: «البنزدرين مادة جيّدة. تتعاطى ثلاثة أشرطة أو ما يعادل عشر كبسولات. أو تتعاطى مثلاً شريطين من البنزدرين وقرصين من المهدّئات. تستقرّ في بطنك وتتعارك. هذا يمنحك طاقة جيّدة».

اقتحم الشقة ثلاثة شبّان مجرمين من بروكلين، وجوههم متبلدة، أيديهم في جيوبهم، يقفون بوضعيّةٍ كما لو كانوا في رقصة باليه. بحثوا عن جاك. نصب عليهم في إحدى الصفقات. على الأقل، كانت هذه النيّة العامّة. أوصلوا الرسالة بكلمات قليلة وبهزّات كبيرة برؤوسهم، وأخذوا يقطعون الشقة جيئة وذهاباً وركنوا إلى الجدران. بعد مضي وقت طويل، تقدّم أحدهم صوب الباب، وأومأ برأسه بحركة حادّة، وخرجوا تباعاً.

ـ سألت ماري: «هل ترغب في سطلة؟» ربّما وجدنا سيجارة هنا في مكان ما». بدأت تقلّب الأدراج ومنافض السجائر.

ـ قالت: «لا، لا أظن ذلك. لماذا لا نذهب إلى الجزء العلوي من المدينة؟ أعرف بعض التجار الجيّدين. بالتأكيد يمكننا أن نجد أحدهم الآن».

دخل شاب إلى الغرفة يترنّح ويتأبّط غرضاً ملفوفاً بورق بنّيّ.

ـ قال: «ارمي هذا وأنت تغادرين» ووضعه على الطاولة. دخل غرفة النوم في الجانب الآخر من المطبخ. عندما خرجنا ساعدتُ في فتح الورق الملفوف فانكشفت علبة من العملات النقدية لمراحيض عموميّة فُتحت بفجاجة.

ركبنا سيارة أجرة عند التايمز سكوير، وسافرنا في الشوارع الجانبيّة،





وأعطت ماري التعليمات. من وقت لآخر، صرخت قائلة «توقف!» وللمرت نحو الخارج، تدفّق شعرها الأحمر، ورأيتها تمسك شخصاً وللتحدث إليه. «كان الرجل هنا قبل نحو عشر دقائق. هذا الرجل معه المادة، لكنه لا يريد أن يبيع شيئاً». ثمّ قالت: «لقد انتهى عمل لتاجر المعروف لهذا اليوم. هو يسكن في برونكس. لكن ابق هنا لحظة. ربّما تمكّنا من الحصول على شيء من كيلوغس». وفي النهاية قالت: «يبدو أنْ لا أحد هنا اليوم. بات متأخراً على شراء شيء الآن. تعال نشتري أنابيب البنزدرين ونذهب إلى نادي رونيس. لديهم أغان قديمة في آلات التسجيل. يمكننا أن نشرب القهوة ونتحرّش ببيني».

كان نادي رونيس قرب شارع ٥٢ زاوية الجادة السادسة، وقد ارتاده الموسيقيون لتناول الدجاج المقليّ والقهوة عند الواحدة بعد منتصف الليل. جلسنا في المقصورة وطلبنا القهوة. كسرت ماري بمهنيّة أنبوبة البنزدرين، شدّت الورقة المثنيّة وناولتني ثلاثة أشرطة. «لفّها مثل كبسولة وابلعها مع القهوة».

أطلقت الورقة رائحة نعناع مُغثية. شمّ بعض الجالسين الرائحة وابتسموا. عندما ابتلعت الورقة كدت أختنق، لكن في النهاية نجحتُ. اختارت ماري بعض الأغاني القديمة الشهيرة وبدأت تدقّ على الطاولة بتعابير وجهٍ مغفّل مستمنٍ.

بدأت أتحدّث بسرعة. كان فمي جافاً وتطاير لعابي بكبسولات بيضاء ومدوّرة ـ يسمّى ذلك بصاق الصوف. تمشّينا في التايمز سكوير. حاولت ماري العثور على شخص معه غرامافون. امتلأتُ بمشاعر الرحابة والكرم، وفجأة أردت الاتصال بأشخاص لم ألتق بهم شهوراً وحتى سنوات، أشخاص لم أحبهم ولم يحبّوني. حاولنا عدة مرّات ولم ننجح





في العثور على المضيف صاحب الغرامافون. في وقت ما، انضمّ إلينا بيتر، وقررنا في النهاية العودة إلى الشقة في شارع هنري، حيث كان هناك مذياع على الأقلّ.

أمضينا، أنا وبيتر وماري الساعات الثلاث التالية في الشقة. من وقت لآخر، أعددنا القهوة وابتلعنا البنزدرين. شرحت ماري أساليبها في استخراج الأموالِ من الزبائن الّذين كانوا مصدر رزقها الأساسيّ.

«يجب دائماً مراعاة الزبون. إذا كان ذا بنية جسديّة، عندها يجب أن نقول له: «أوه، لا توجعني». ثمة فرق بين الزبون وبين المدمن. عندما تتواجدين مع مدمن عليك أن تكوني متيقظة طيلة الوقت. يحظر إعطاؤه كلّ شيء. المدمن نأخذ منه فقط. أما الزبون فهو مختلف. أنت تعطينه مقابل ما يدفعه. تشعرين بالمتعة وأنت برفقته، لكنك ترغبين أيضاً في إشعاره بالمتعة.

«من تريد الإيقاع برجل، عليها أن تشعل سيجارة في أوج الجِماع. أنا لا أنجذب إلى جنس الرجال تماماً. تستهويني الفتيات. يثيرني أن أصطحب فتاة متعجرفة وأكسر روحها، لأريها أنها مجرد حيوان. الفتاة التي يكسرونها في الحياة، لا تعود جميلة. الأمر أشبه مثلاً بالجلوس قرب موقد مشتعل». قالت مشيرةً إلى المذياع الذي كان يبثّ الضوء الوحيد في الغرفة.

تملّكت وجهَها تعابيرُ غضب قرديّة عندما تحدّثت عن الرجال الّذين غازلوها في الشارع. «أولاد عاهرة!» قالت بغضب. «يمكنهم أن يروا متى تكون المرأة غير معنيّة. في تلك الأيام، تجوّلتُ بقبضات حديدية تحت القفازات وانتظرت أن يقول لي حيوانٌ من بينهم كلمةً واحدة».







أخبرني هيرمان يوماً أنّه يمكن شراء كيلوغرام من الحشيش عالي الجودة من نيو أورلينز بسبعين دولاراً. نظرياً، يشبه شراء الحشيش إنشاء مزارع لتربية الحيوانات ذات الفراء أو تربية الضفادع - وهو عمل جيّد. إذا بيعت لفافة الحشيش ب ٧٥ سنتاً، وهناك سبعون لفافة في الأوقية، فإنّ هذا يبدو مبلغاً جيداً. اقتنعت، واشتريت الحشيش.

أقمنا، أنا وهيرمان، شراكة لبيع الحشيش. وجد فتاة سحاقيّة تُدعى ماريان سَكَنت في القرية[1] وقالت إنّها شاعرة. احتفظنا بالحشيش في شقة ماريان، سمحنا لها بأن تدخّن كما يحلو لها، ومنحناها نسبة خمسين بالمائة من المبيعات. عرفت ماريان العديد من الحشّاشين. انتقلت فتاة سحاقية أخرى للسكن معها، وفي كلّ مرة حضرتُ إلى شقة ماريان وجدت فتاة ضخمة وحمراء الشعر اسمها ليزي تأملتني بعينَي سمكة باردتين تغمرهما كراهيّة خرقاء.

فتحت ليزي الباب يوماً ووقفت هناك، كان وجهها أبيض تماماً ومنتفخاً من أثر النّوم تحت تأثير الحشيش. وضعت في يدي رزمة الحشيش.

- قالت: «خذا هذا واغربا من هنا، كلاكما منيكان». كانت شبه نائمة. كان كلامها عملياً لدرجة بدت كأنّها فعلاً تتحدّث عن شخصَين منيكَين.

- قلت: «اشكري ماريان على كلّ شيء».

صفعت الباب. من المؤكّد أن الضجيج أيقظها. فتحت الباب ثانيةً وبدأت تصرخ في حالة من الهيجان الهستيريّ. حتى عندما صِرنا في الشارع أمكننا سماع صوتها.

---

(١) هي قرية غرينيوتش (Greenwich Village) وهي منطقة سكنيّة في مقطعة واشنطن، نيويورك، واختصارها «فيليج أو القرية»، وقد اشتُهرت في الأساس بعد أن شكّلت مقراً لجيل البيت الأمريكيّ في ستينيات القرن العشرين. (المترجمة).





اتّصل هيرمان بحشّاشين آخرين. لم يتوقّفوا عن التذمّر. باختصار، بيع الحشيش يسبب أوجاع رأس. بدايةً، الحشيش يتطلّب مساحة. لكي تنجح في جني المال، تحتاج إلى حقيبة مليئة. وإذا اقتحم رجال الشرطة منزلك، فكأنّهم ضبطوا في حيازتك حزمة برسيم.

الحشاشون شيء والمدمنون شيء آخر. المدمن يعطيك نقوداً، يأخذ المادة وينصرف. الحشاشون لا يتصرّفون بهذه الطريقة. يتوقّعون من التاجر أن يعدّل مزاجهم، أن يجلس معهم ويحادثهم مقابل الدولارين، ثمن الحشيش. إذا كنتَ عملياً سيقولون إنّك «ثقيل». في الحقيقة، لا يجب أن يصرّح التاجر بأنه تاجر. لا، إنّه فقط يشتري لبعض المعارف لأنه يتعاطى مع الحشيش. الجميع يعلمون أنّه الوسيط، لكن التصريح بذلك ليس أمراً جيّداً. الله وحده يعلم السبب. لا أفهم رؤوس الحشاشين.

الأسرار في تجارة الحشيش كثيرة، والحشاشون يحافظون على هذه الأسرار بمكرٍ أبله. مثلاً، يجب تجفيف الحشيش، وإلا بقي أخضر وهيّج الحلق. لكن إذا سألت الحشاش عن طريقة تجفيف الحشيش تأمّلك بنظرة بلهاء ماكرة وأجابك بحنكة. لعلّ تعاطي الحشيش على الدوام يؤثّر على الدماغ، أو أنّ الحشاشين أغبياء بالفطرة.

الحشيش الذي اشتريته كان أخضر، لهذا وضعته في قدر داخل قدر فيه ماء، وأدخلته إلى الفرن إلى أن صار لون الحشيش بنياً ضارباً إلى الخضرة كما يجب. هذا هو سرّ تجفيف الحشيش، أو على الأقل طريقة تحضيره.

الحشّاشون اجتماعيّون، حسّاسون، ويعانون من الذعر. في اللحظة التي تُشَخَّصُ فيها كشخص ثقيل، لن يتعاملوا معك. خلال فترة وجيزة، اكتشفت أنّي لا أستطيع أن أتدبّر نفسي مع هذه الشخصيّات وفرحتُ عندما عثرتُ على شخص أخذ مني كلّ البضاعة بسعر التكلفة.





عام ١٩٧٣ أُلحِق الحشيش بقائمة المخدّرات الممنوعة وفق قانون هاريسون. تدّعي سلطات مكافحة المخدرات أنّه يسبّب الإدمان، وأنّ تعاطيه يضرّ النفس والجسد ويحثّ المتعاطين على ارتكاب الجرائم. إليك الحقائق: الحشيش لا يسبّب الإدمان على الإطلاق. يمكن تعاطي الحشيش لسنوات، وحتى لو توقفت عن تعاطيه فجأة فلَن تشعر بعدم ارتياح. عندما كنتُ مسجوناً التقيت بحشاشين، ولم تظهر على أيّ منهم أعراض الانسحاب. أنا نفسي تعاطيت الحشيش لمدة خمسة عشر عاماً بشكل متقطّع، وعندما نفد لم أتق إليه. الإدمان على الحشيش أخفّ من الإدمان على التبغ. الحشيش لا يضرّ بالصحة العامة. في الواقع، يزعم غالبيّة المتعاطين أنّه يفتح الشهيّة ويقوّي البنية. لا أعرف مادة أخرى تقوّي الشهيّة بوضوح مثله. يمكنني أن أدخّن لفافة حشيش وأستمتع بكأس نبيذ شيري من كاليفورنيا وأتناول وجبة في مطعم عمّال.

في إحدى المرات أقلعتُ عن الهيروين بمساعدة الحشيش. في ثاني أيام الانقطاع، جلست وتناولت وجبة كاملة. عادةً لا يمكنني أن آكل شيئاً لثمانية أيّام بعد الإقلاع عن الإدمان.

الحشيش لا يحثّ أحداً على ارتكاب الجرائم. لم أر في حياتي شخصاً تحوّل إلى شخص شرير تحت تأثير الحشيش. الحشاشون اجتماعيّون. اجتماعيّون جداً، في ظنّي. لا أفهم لماذا لا يقوم هؤلاء الّذين يزعمون أنّ الحشيش يسبّب الجريمة بمواصلة العمل والمطالبة بتحريم الكحول. يومياً، يرتكب المخمورون جرائم لو كانوا في رشدهم لما ارتكبوها.

قيل الكثير عن تأثير الحشيش كمنشّط جنسيّ. لسبب ما، لا يعترفُ العِلم بوجود منشّطات جنسيّة. يمكنني أن أجزم أن الحشيش يثير الشهوة





الجنسية وتحت تأثير الحشيش يصير الجنس أكثر متعة من غيابه. كلّ من تعاطى الحشيش الجيّد، يمكنه أن يؤكّد هذا التصريح.

أحياناً نسمع عن أشخاص أصيبوا بالجنون نتيجة تعاطي الحشيش. فعلاً، هناك شكل من أشكال الجنون يصاب به المرء جراء الإفراط في تعاطي الحشيش. تتّصف الحالة بالتفكير المتواصل. يبدو أن الحشيش المتوفّر في الولايات المتّحدة ليس قوياً كفاية ليحدث تأثيراً، وحالات الهواس الناجمة عن الحشيش نادرة. يقال إنّها شائعة جداً في الشرق الأوسط. حالات الهواس الناجمة عن الحشيش تشبه تقريباً الهذيان الارتعاشيّ، وسرعان ما تختفي مع التوقّف عن تعاطيه. ليس من المعقول أن يدخّن المرء بضع لفافات في اليوم ويفقد عقله، كما أنه ليس من المعقول أن يتناول المرء بضعة مشروبات من الكوكتيل قبل وجبة العشاء ويصاب فجأة بهذا الهذيان.

هناك أمر واحد يجب ذكره عن الحشيش. من يكون تحت تأثير الحشيش ليس مؤهلاً للقيادة على الإطلاق. الحشيش يغيّب الإحساس بالوقت وبالتالي يغيّب الإحساس بالإدراك الفضائيّ. في إحدى المرات، وأنا في نيو أورلينز، كان عليّ أن أوقف السيارة وأنتظر بجانب الشارع حتى يتبدد أثر الحشيش. لم أستطع تحديد بعد مسافة أي شيء منّي، أو متى وجب عليّ أن أفرمل قبل المفترق.

* * *

حقنتُ نفسي يومياً. انتقل هيرمان للعيش معي في شقة في شارع هنري، لأنه لم يعد هناك من يدفع أجرة الشقة التي أقام فيها مع ماري وجاك. أمسكوا بجاك يسرق خزينة والآن هو موقوف في برونكس ينتظر





محاكمته. ماري سافرت إلى فلوريدا مع «جون». لم يخطر في بال هيرمان للحظة أن يدفع أجرة الشقة بنفسه. لقد سكن طيلة حياته في شقق الآخرين. أخذ روي إجازة طويلة. وجد طبيباً في بروكلين كان مولعاً بكتابة الروشتات الطبية. أعطى هذا الطبيب ثلاث روشتات طبية يومياً وحتى ثلاثين حبة للروشتة الواحدة. في بعض الأحيان، أبدى شكوكاً في الكلام، لكنه استقام متى رأى المال.

هناك عدة أنواع من الأطباء الذي يكتبون الروشتات الطبية. بعضهم يعطيك الروشتة فقط إذا اقتنع أنّك مدمن فعلاً، آخرون يفعلونها فقط إذا اقتنعوا أنّك لست مدمناً. معظم المدمنين يلفقون للأطباء روايات بلَت من فرط استخدامها. يقول بعضهم إنّهم يعانون من حصوة في الكلية أو في كيس المرارة. هذه أكثر الروايات شيوعاً، وغالبية الأطباء ينهضون ويطردونك عندما تحكي لهم عن حصوة في الكلية أو كيس في المرارة. حصلت على نتائج أفضل مع حكاية الألم العصبيّ في الوجه، بعد أن تعلّمت أعراضه وردّدتها جيداً. عانى روي من ندبة جراء عمليّة أجراها في بطنه استخدمها ليدعم بها رواية كيس المرارة.

سكن أحد الأطباء القدماء في إحدى البنايات الحجريّة من العصر الفيكتوريّ في شارع ويست سيفينتيز. كان عليّ أن أظهر عنده في هيئة رجل نبيل. إذا نجحتَ في الدخول إلى حجرته، تصبح المسألة محلولة، لكنّه كان على استعداد لكتابة ثلاث روشتات طبيّة فقط. طبيب آخر كان مخموراً على الدوام، وكان الإمساك به في الوقت المناسب هو ما يحسم الأمر. في أحيان كثيرة كتب الروشتة الطبيّة بشكل خاطئ واضطررت للعودة إليه لتصحيحها. عندها طبعاً كانت يقول إن الروشتة الطبيّة مزيّفة ويمزّقها. طبيب ثالث عانى من الخرف، وكان عليّ أن أساعده في كتابة





الروشتة. كان ينسى ما يفعل، يترك القلم ويغرق في ذكريات قديمة طويلة عن زبائنه المحترمين في تلك الأيام. أحب الحديث بوجه خاصّ، عن شخص اسمه جنرال غور قال له مرة: «أيها الطبيب، كنت في عيادة مايو الشهيرة وعلمك يفوق علمهم جميعاً». لم تكن هناك طريقة توقفه عن الكلام، واضطر المدمن المنهك أن يستمع إليه بصبر. في أحيان كثيرة، كانت زوجة الطبيب تقتحم الغرفة في اللحظة الأخيرة وتمزّق الروشتة الطبيّة، أو ترفض تأكيد صحّتها في حال اتّصلوا من الصيدليّة.

عموماً، يميل الأطباء الكبار إلى كتابة الروشتات الطبيّة أكثر من الأطباء الصغار. الأطباء اللاجئون كانوا أرضاً خصبة لفترة من الزمن، لكنّ المدمنين أحرقوهم تماماً. في أحيان كثيرة كان الطبيب يهتاج عند سماعه كلمة «مورفين» ويهدّد باستدعاء الشرطة.

يعيش الأطبّاء بشكل حصريّ على الأفكار المبالغ فيها حول موقفهم من التوجّه العمليّ، الذي يرون عموماً بأنه الأكثر سوءاً. رغم أنّهم لا يصدّقون روايتك، فإنّهم بلا شكّ يريدون الاستماع إليها. الأمر أشبه بطقسٍ شرقيّ يروم حلّ مشاكل تتعلّق بالشرف. من ناحية، هناك من يلعب دور الطبيب الأخلاقي الذي لن يكتب روشتة طبية منافية للأخلاق ولا حتى مقابل ألف دولار، ومن ناحية أخرى، هناك من يجتهد في لعب دور المريض الشرعيّ. إذا قلت له: «اسمع يا دكتور، أريد روشتة من طبيب مختص وأنا على استعداد لأن أدفع الضعف»، سيغضب وسيرميك خارج العيادة. لكي تحصل على شيء من الأطباء، عليك التصرف بشكل لائق.

كان روي مدمناً خنزيرياً، بحيث اضطررنا، أنا وهيرمان، إلى حقن





أنفسنا بما يفوق حاجتنا لكي نتماشى مع وتيرته ونأخذ نصيبنا. بدأت أحقن نفسي في الوريد مباشرة حتّى أوفّر في المادة ويكون التأثير أكبر. واجهتنا مشكلة صرف الروشتات الطبية. غالبية الصيدليات صرفت روشتة المورفين مرة أو مرتين، ورفض العديد منها صرفها بشكل قاطع. كانت هناك صيدلية واحدة صرفت روشتاتنا في أي وقت، وقصدناها على الدوام، رغم أن روي قال إنّه ينبغي علينا أن نوزّع الروشتات حتى يصعب على الشرطة اكتشافنا. لكن التنقّل بين الصيدليّات كان مسألة متعبة، لذلك أخذنا كلّ الروشتات إلى نفس المكان. تعلّمت أن أخبئ مادّتي بحذر ـ أن «أخفيها» كما يقولون بلغة تجارة المخدرات ـ فلا يقتصّ هيرمان وروي منها إذا عثرا عليها.

أن تقتصّ من مادة خبأها مدمن آخر يسمى بلغة تجارة المخدرات «تنظيف». من الصعب تجنّب هذه السّرقات لأنّ المدمنين يعرفون أين يبحثون عن المادّة المخبأة. هناك من يخبئ المادة معه، لكن ذلك يعرّضه للتورط بتهمة «حيازة المخدرات» إذا قبضت الشرطة عليه.

بعد أن شرعتُ بتعاطي الهيروين يومياً، وأحياناً عدّة مرّات في اليوم، عزفتُ عن الشّرب والخروج ليلاً. عندما تتعاطى الهيروين فإنّك لا تشرب. يبدو أنّ الجسد الذي يختزن كميّة معينة من الهيروين لا يقوى على استيعاب الكحول. يظلّ المشروب في المعدة، ورويداً يثيرُ غثياناً وشعوراً بعدم الراحة ودواراً. ولا يُحدث أيّ سطل. قد يشكّل تعاطي الهيروين علاجاً مؤكّداً لمدمني الكحول. كذلك عزفتُ عن الاستحمام. لسبب ما، عند تعاطي الهيروين، تصبح ملامسة الماء للجلد غير مريحة، فيتجنّب المدمنون الاستحمام.

هراءات كثيرة كُتبت حول التغييرات التي يمرّ فيها البشر عندما يقعون





في الإدمان. فجأةً ينظر المدمن في المرآة ولا يعرف نفسه. من الصعب تحديد التغييرات الفعليّة بالضبط، وهي لا تظهر في المرآة. بكلمات أخرى، المدمن نفسه شخص أعمى في كل ما يتعلّق بتزايد إدمانه. عموماً، هو لا يدرك أنّه في طريق الإدمان. يقول إنّه لا حاجة للوقوع في الإدمان لطالما كان المرء حذراً ومتقيّداً ببعض القواعد، مثل الحقن يوماً بعد يوم، عندها لا يوجد داعٍ للإدمان. عملياً، هو لا يتقيّد بهذه القواعد، وكلّ حقنة زائدة يعتبرها استثنائيّة. تحدّثت إلى العديد من المدمنين، وجميعهم قالوا إنّهم فُوجئوا باكتشافهم أوّل مرة أنهم مدمنون. العديد منهم عزوا أعراضهم إلى أسباب أخرى.

كلّما ازداد الإدمان، فقدت أمور أخرى من أهميتها عند المدمن. تتلخّص الحياة مع الهيروين، في جرعة واحدة وفي التطلّع إلى الجرعة التالية، «مخابئ» و«روشتات طبيّة»، و«حقن» و«قطّارات». في أحيان كثيرة يشعر المدمن أنّه يمارسُ حياةً طبيعيّة وأنّ الهيروين هو شيء عرضيّ في حياته. لا يعي أنّه في المسائل البعيدة عن الهيروين يتصرّف على نحو آليّ تماماً. فقط في حالة انقطاع الإمداد عنه، يدرك معنى الهيروين بالنسبة إليه.

- «لماذا تحتاج إلى المخدّرات يا سيّد لي؟» يسألني الأطباء النفسانيين الأغبياء. الإجابة هي أنّي: «أحتاج الهيروين كي أنهض من السرير صباحاً، كي أحلق وجهي وأتناول فطوري. أحتاجه كي أبقى حياً».

عموماً، لا يموت المدمنون نتيجة الانسحاب من الهيروين. لكن فعلياً، يرتبط الانسحاب بموت الخلايا ذات الصّلة بالهيروين واستبدالها بخلايا لا تحتاج إلى الهيروين.





انتقل روي وصديقته للسكن في المبنى الذي سكنت فيه. التقينا يومياً في الشقة بعد وجبة الفطور لنخطط برنامج الهيروين اليوميّ. كان على أحدنا التوجّه إلى الطبيب. حاول روي دائماً أن يوكل المهمّة إلى شخص آخر غيره.

ـ «لا أستطيع أن أذهب بنفسي، لأنّي تشاجرت معه. لكن اسمع، سأقول لك ماذا سنفعل...» أو أنّه كان يحاول إقناع هيرمان أو إقناعي بالتوجّه إلى طبيب جديد. «لا يمكنك أن تفوّت الأمر. فقط لا تدعه يرفض، لأنّه سيكتب. لا أستطيع أن أذهب بنفسي».

أحد أطبائه المعتمدين كاد يتّصل بالشرطة أمامي. حكيت ذلك لروي فقال:

ـ «آه، يبدو أن الرجل نفدت صلاحيته. دبّر له أحدهم قضيّة قبل عدّة أيام».

بعد ذلك، حاولت أن أتجنّب الأطباء الغرباء. لكنّ رجلنا في بروكلين بدأ يرفض.

* * *

عاجلاً أم آجلاً، أقفل كلّ الأطباء أبوابهم. حضر روي يوماً ليستلم روشتة طبيّة فقال له الطبيب:

ـ «هذه بالتأكيد المرة الأخيرة، ومن المستحسن ألا أرى وجوهكم. البارحة حضر ضابط الشرطة إلى هنا. كانت في حوزته كلّ الروشتات الطبيّة التي كتبتها من أجلكم. أبلغني أني سأفقد رخصتي إذا كتبت روشتات أخرى، لذا سأكتب الروشتة هذه المرة بتاريخ الأمس. أخبر الصيدلاني أنّك كنتَ مريضاً ولم تتمكّن من صرفها. في هذه الروشتات





أعطيتموني عناوين خاطئة. هذا خرق لقانون الصحة العامّة ملحق ٣٣٤، لذا لا تقولوا لم تنذرنا. بالله عليكم، لو حقّقوا معكم، تستّروا عليّ. قد يقضي ذلك على حياتي المهنيّة. أنتم تعلمون أنّي كنتُ عادلاً معكم. لذا أسدوا إليّ معروفاً يا رفاق. ها هي الروشتة ولا تعودوا».

عاد إليه روي في اليوم التالي. كان صهر الطبيب هناك ليدافع عن شرف العائلة. شدّ روي من ياقته ومن حزام سرواله وألقى به في الشارع.

ـ قال: «في المرّة القادمة التي أراك فيها هنا تزعج الطبيب، لن تخرج على قدميك».

بعد مضيّ عشر دقائق وصل هيرمان. بدأ الصهر بإعطائه نفس العلاج، ثمّ قام هيرمان بإخراج فستان حريريّ من تحت معطفه ـ إن لم تخنّي ذاكرتي، ترك أحدهم عندنا كمية من الفساتين الحريريّة المسروقة مقابل ثلاث حبّات من المورفين ـ اتّجه صوب زوجة الطبيب التي نزلت نحو الطابق الأرضي لتفحص سرّ الجلبة، وقال لها:

ـ «ظننت أنّ هذا الفستان سيعجبك».

عندها حصلَ على فرصة الحديث إلى الطبيب، الذي كتب له الروشتة الطبيّة الأخيرة. تطلّبه ثلاث ساعات لكتابة الروشتة الطبيّة. صيدليّتنا الثابتة تلقّت إنذاراً من ضابط الشرطة، ورفضوا هناك صرف أي روشتة طبيّة من قبلنا.

ـ قال مالك الشقة: «يا رفاق، من المستحسن أن تبتعدوا، أعتقد أنّ الضابط استخرج أوامر قضائيّة بإيقافكم جميعاً».

توقّف طبيبنا نهائياً عن إمدادنا. توزّعنا وبحثنا في كافّة أرجاء المدينة. غطّينا بروكلين، برونكس، كوينز، جيرسي سيتي ونيوأرك. حتى





البانتوبون لم نتمّكن من التحصّل عليه. بدا وكأن كلّ الأطباء توقّعوا مجيئنا، انتظروا فقط دخول أحدنا إلى العيادة ليقولوا: «أبداً». بدا وكأنّ كلّ الأطباء في نيويورك الكبرى نذروا نذراً ألا يكتبوا روشتة طبيّة لمادة مخدّرة. بدأ الهيروين ينفد. كان واضحاً بأننا سنُشلّ في غضون ساعات. قرّر روي أن يستسلم ويذهب إلى رايكرز أيلاند للعلاج في ثلاثين يوماً. هذا ليس علاجاً تدريجياً. لا يعطون الهيروين، ولا حتّى مسكّنات للنوم. الشيء الوحيد الذي يقدّمونه هناك هو الحجز لمدّة ثلاثين يوماً. والمكان دائماً مكتظ على آخره.

تمّ إيقاف هيرمان في برونكس وهو يبحث عن طبيب. لم يُتّهم بشيء، ببساطة لم يرُق للمحققين. عندما أحضروه إلى المخفر، اكتشفوا أنّ موزّع المخدرات معه أمر بإيقافه واستخرجه مفتش الدولة. كانت التهمة تسجيل عنوان مزيّف على روشتة طبيّة لمادّة مخدّرة. هاتفني أحد المحامين الطفيليين، وسألني إن كان بإمكاني إيداع مبلغ من المال ككفالة لإطلاق سراح هيرمان. بدلاً من ذلك أرسلتُ إلى هيرمان دولارين ثمن السجائر. إذا كان المرء سيقضي وقتاً، فلا بدّ له من البدء بالتعود.

في هذه المرحلة نفد مني الهيروين تماماً وقمتُ بِغَلي آخر قطعة قماش قطنيّة عندي مرّتين. يتمّ تسخين الهيروين بملعقة وإدخال القطّارة عبر قماشة قطنيّة صغيرة وذلك من أجل شفطه تماماً من الملعقة. يظلّ جزء من المحلول عالقاً في القماشة القطنيّة، ويقوم المدمنون بالاحتفاظ بالقماشة للحالات الطارئة.

حصلت على روشتة طبيّة للكودئين من طبيب عجوز اخترعت له حكاية حول أوجاع الشقيقة. الكودئين أفضل من لا شيء، وخمس





حبّات يتمّ حقنها تحت الجلد تجنّبك المرض. لسبب ما، يشكّل حقن الكودئين في الوريد خطراً.

أذكر ليلةً بقينا فيها أنا وهيرمان بشكلٍ مفاجئ معدَمين إلّا من بعض كبريتات الكودئين. قام هيرمان بتسخين مقدار حبة في الملعقة وحقن نفسه في الوريد. احمرّ وجهه كثيراً على الفور، ثمّ صار شاحباً جداً. جلس على السرير وكان واهناً وقال:

ـ «يا إلهي».

ـ سألته: «ما الذي حصل؟ المادّة جيّدة جداً».

ـ نظر إليّ بتجهّم. «جيّدة؟ حسناً، احقنها».

سخّنتُ مقدار حبة وأخرجتُ عدّتي لأستعدّ للحقن. نظر إليّ هيرمان بحماس. كان لا يزال جالساً على السرير. في اللحظة التي سحبتُ فيها الإبرة من الذراع شعرت بوخز قويّ ومؤلم مختلف كليةً عن الوخز الذي تشعر به بعد حقنة المورفين. شعرت بأن وجهي يتورّم. جلست على السرير بجانب هيرمان. تورّمت أصابعي وتضاعف حجمها.

ـ قال هيرمان: «إذاً، هل هو جيّد؟».

ـ قلت: «لا».

لم أشعر بشفتيّ، وكأن أحدهم ضربني في فمي. عانيتُ من أوجاع رأس رهيبة. بدأت أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، لأنّي ظننتُ، على نحو غير مفسّر، أنّي إذا سرّعتُ الدورة الدمويّة، سيزيل الدّم الكودئين.

بعد مضيّ ساعة شعرت أني أفضل حالاً ورقدتُ في السرير. أخبرني هيرمان عن شريك أغمي عليه وازرقّ لونه بعد أن حقن نفسه بالكودئين.





ـ «حمّمته بمياه باردة واستفاق».

ـ «لماذا لم تخبرني بذلك سابقاً؟» سألته.

فجأة، وبلا تفسير، اهتاج هيرمان. عادةً ما تكون أسباب غضبه غامضة.

ـ قال: «اسمع، عندما تتعاطى الهيروين عليك أن تستعدّ للمغامرة. عدا ذلك، فإنّ ردّة فعلِ شخص لا تعني بالضرورة ردّة الفعل ذاتها عند شخص آخر. بدوتَ متيقناً أن المادّة على ما يرام، ولم أرغب في أن أفسدَ عليك الأمر بحكاياتِ من الماضي».

* * *

عندما سمعتُ خبر اعتقال هيرمان تخيّلتُ أنّي سأكون التالي، لكنّي كنتُ مريضاً ولم تكن بي قوّة للهروب من المدينة.

حضر محققان ووكيل فدرالي إلى الشقة وأوقفوني. وقّع مفتّش الدولة على أمر الحبس بتهمة خرق المادّة ٣٣٤ من قانون الصحة العامة ـ تسجيل اسم مزيّف في الروشتة الطبيّة. أحد المحققين كان نصاباً والآخر حازماً.

ـ سألني النصاب: «يا بيل، منذ متى تتعاطى الهيروين؟ أنت تعلم أنه عليك تسجيل اسمك الحقيقي في الروشتة الطبيّة». ثمّ تدخّل الرجل الحازم:

ـ «هيا، هيا، نحن لسنا في الكشافة».

لكنّ هذه القضيّة لم تكن تعنيهم، ولم تكن ثمة حاجة لتصريح منّي. في الطريق إلى وسط المدينة، وجّه إليّ الوكيل الفدرالي بعض الأسئلة





وعبأ استمارة ما تخصّ سجلاتهم. اقتادوني إلى القبر[١]، صوّروني وأخذوا بصماتي. بينما كنت أنتظر للمثول أمام القاضي، ناولني النصاب سيجارة وبدأ يحدثني عن مساوئ الهيروين.

ـ «حتى لو عشت معه ثلاثين عاماً، فأنت تخدع نفسك. خذ أولئك المنحرفين جنسياً مثلاً ـ «التمعت عيناه» يقول الأطباء إنّهم لا يستطيعون مساعدة أنفسهم».

أقرّ القاضي بكفالة قدرها ألف دولار. أعادوني إلى القبر، أمروني بخلع ملابسي ودخول الحمام. حارسٌ بليد نبشَ ملابسي. ارتديت ملابسي من جديد، دخلتُ المصعد، وخصصوا لي زنزانة. في الرابعة بعد الظهر كنّا محتجزين داخل الزنازين. أقفلت الأبواب بشكل آليّ من مفتاح كهربائيّ رئيسيّ برنّة هائلة سُمع صداها في أرجاء العنبر.

نفد تأثير الكودئين من جسدي. بدأ السائل يقطر من أنفي وعينَي وتشرّبت ملابسي بالعرق. موجات من الحرّ والبرد أصابت جسدي كما لو كان باب فرن يُفتح ويُغلق. رقدت في السرير واهناً غير قادر على الحركة. تألمت ساقاي وارتعشتا بحيث لم تكن أيّ وضعيّة محتملة. تقلّبت على جانبيّ بملابسي المتعرّقة.

سمعت صوت زنجيّ ينشد، «انهضي انهضي يا امرأة، حرّكي مؤخرتك الكبيرة والسمينة». كان صوته يتلاشى ويتعالى. «أربعين عاماً! يا رجل، لا يمكنني أن أقضي أربعين عاماً».

في الثانية عشرة ليلاً، دفعت زوجتي الكفالة والتقت بي عند الباب ومعها بعض الأقراص المسكّنة. الأقراص المسكّنة تساعد قليلاً.

---

(١) إشارة إلى السجن. (المترجمة).





غداة اليوم التالي كنت أسوأ حالاً، ولم أستطع النهوض من السرير. لذا بقيت في الفراش وتناولتُ الأقراص المسكّنة كلّ حين.

ليلاً، تعاطيت البنزدرين وقصدتُ الحانة وجلست قريباً من الفونوغراف. عندما تُصاب بنوبة، فإنّ الموسيقى تساعد كثيراً. ذات مرة، وأنا في تكساس، أقلعت عن التدخين بمساعدة الحشيش، ولترٍ من مسكّن الباريغوريك وبعض التسجيلات الموسيقيّة للويس أرمسترونغ.

الاكتئاب المصاحب للنوبة يكاد يكون أسوأ منها. في إحدى الظهيرات، أغمضت عينيّ ورأيتُ نيويورك مهدّمة. مئينيّات وعقارب ضخمة زحفت داخلة خارجة من الحانات والمقاصف والصيدليات الشاغرة في شارع ٤٢. نبتت الأعشاب البريّة من شقوق وثقوب الإسفلت. لم يشاهَد أحد.

بعد مضيّ خمسة أيّام، بدأت أشعر بتحسّن. بعد ثمانية أيام طوّرتُ شهيّة كبيرة للكعك بالكريما والبيض وجوز الهند. في غضون عشرة أيام انتهت النوبة. تأجلت محاكمتي.

* * *

عاد روي من ثلاثين يوماً علاجاً في رايكرز أيلاند وعرّفني إلى تاجر باع الهيروين المكسيكيّ في برودواي شارع ١٠٣. أثناء القسم الأوّل من الحرب، انقطع استيراد الهيروين بشكل شبه تام، ولم يكن هناك غير المورفين في الروشتات الطبيّة. لكن خطوط الاتصال عادت وبدأ توافد الهيروين من المكسيك، حيث توفّرت حقول الخشخاش التي رعاها الصينيّون. كان هذا الهيروين المكسيكيّ بنيّ اللون، لأنه احتوى على كمية كبيرة من الأفيون الخام.





بدت برودواي وشارع ١٠٣ مثل كلّ زاوية في برودواي. كافتيريا، سينما، متاجر. في منتصف برودواي ثمة جزيرة عليها بعض الأعشاب ومقاعد بينها مسافات. في شارع ١٠٣ توجد محطة لمترو الأنفاق، والمنطقة مزدحمة. هذه هي منطقة الهيروين. يخيّم على الكافتيريا شبح الهيروين الّذي يتجوّل في الشارع وأحياناً يقطع الجادة ويرتاح على أحد مقاعدها. شبح منتصف النهار في شارع مزدحم.

يمكن دائماً مشاهدة بعض المدمنين يجلسون في الكافتيريا أو يقفون في الخارج وياقات معاطفهم مرفوعة، يبصقون على الرصيف وينظرون إلى الشارع وهم ينتظرون التاجر. في الصيف، يجلسون على المقاعد، رابضين في بذلاتهم السوداء كسرب من الطيور الجارحة.

كان للتاجر وجه مراهق ذابل. كان في الخامسة والخمسين من عمره لكنه بدا كأنّه لم يتجاوز الثلاثين. كان رجلاً قصير القامة غامق البشرة وذا وجه أيرلنديّ نحيف. عندما وصل ـ ولم يصل في الموعد مثله مثل العديد من المدمين في ذلك الوقت ـ جلس إلى طاولة في الكافتيريا. تعطيه المال عند الطاولة ثم تقابله بعد ثلاث دقائق عند الزاوية، وهناك يسلّمك الهيروين الذي خبأه دائماً في مكان ما قريب.

كان الرجل يدعى *الأيرلنديّ*. في وقت ما، عمل في داتش شولتز، لكن رجال العصابات الكبار لا يشغّلون المدمنين بأجر ثابت، لأنهم ليسوا موضع ثقة. لذا طردوا الأيرلنديّ. الآن يبيع الهيروين من وقت لآخر، وأحياناً يسطو على السكارى في المحطات وفي السيارات، إذا لم يجد من يبيع له. ذات ليلة، أمسكوا بالأيرلنديّ في المحطّة بتهمة «التدافع». شنق نفسه في «القبر».

كان دور التاجر مثل خدمة عامّة تناوبها أعضاء المجموعة، ومعدّل





الخدمة يقارب ثلاثة أشهر. وافق الجميع على أنّ هذا العمل هو نكران للجميل. كما قال جورج اليونانيّ: «ينتهي بك الأمر مفلساً وفي السجن، يناديك الجميع بالبخيل إذا حظرتَ الدّين، وإذا وافقت استغلّوك».

لم يكن جورج يرفض طلب شخص قصده وهو يعاني من نوبة. استغلّ الناس طيبة قلبه، اشتروا بالدَّين، ودفعوا لتجار آخرين. قضى جورج في السجن ثلاث سنوات، وعندما خرج لم يعد إلى المهنة.

لم يرتد المدمنون العصريّون نوادي الجاز إلى شارع ١٠٣ قطّ. كانت جماعة شارع ١٠٣ من المدمنين القدماء ـ ذوي وجوه نحيلة وعابسة وأفواه ملتوية مرّة وأصابع صلبة وتعابير مؤسلبة. (هناك تعابير تميّز المدمن تماماً كالمعصم اللين الذي يميّز المثليّ: تتمايل الذراع من تحت المرفق ذي الأصابع الصلبة فيما كفّ اليد باتجاه الأعلى). كانوا من قوميات مختلفة وبنيات جسديّة مختلفة، لكنّهم بشكل ما بدوا متشابهين. بدوا مثل الهيروين. كان هناك الأيرلندي، وجورج اليونانيّ، وروزا الأفيونيّة، ولوي النادل، وإريك الهومو، وبيغيل، والبحار، وجو المكسيكيّ. مات بعضهم وقضى البقيّة في السجن.

في برودواي شارع ١٠٣ لم يعد هناك مدمنون ينتظرون التاجر الوسيط. ذهب الرجل إلى مكان آخر. لكن إحساس الهيروين ظلّ هناك. عندما تصل إلى الشارع ينتابك هذا الإحساس، يتغلغل فيك على طول الشارع ثم يبتعد عنك مثل شحاذ يائس.

كان وجه جو المكسيكيّ نحيلاً، وأنفه طويلاً وحادّاً وعصبيّاً، وفمه بلا أسنان تدلّى إلى الأسفل. اكتسى وجه جو المنكوب بالتجاعيد، لكنّه لم يكن هرماً. حدثت أشياء لهذا الوجه، لكنها لم تمسّ جو نفسه. كانت





عيناه صافيتين وفتيّتين. اشتُهر بدماثة كدماثة العديد من المدمنين القدماء. استطعتَ أن تدركه من مسافة بعيدة. وسط الحشود المدنيّة المجهولة، برز حاداً وواضحاً كما لو أنك تأملته عبر منظار. كان كاذباً، ومثل معظم الكذابين، بدّل رواياته على الدوام: بدّل الوقت والشخصيات في كلّ حكاية. مرّة يقصّ حكاية صديق له، ومرّة يقلب الحكاية ويمنح نفسه الدّور الرئيسيّ. كان يجلس في الكافتيريا، يشرب القهوة ويتناول الكعك الإسفنجيّ ويتحدّث عشوائياً عن تجاربه.

ـ «نعرف أنّ هذا الصينيّ يخفي مادّة، وحاولنا قدر المستطاع أن نجبره على إخبارنا عن مخبئها. أوثقناه إلى كرسيّ. أشعلتُ عيدان ثقاب» ـ أومأ بطريقة إشعال عود ثقاب ـ «ووضعتها تحت قدمه. لم يقل شيئاً. شعرتُ بالأسف لهذا الرجل. ثم لكمه شريكي في وجهه بمسدس وتدفق وجهه بالدم». عندما رأيت ذلك شعرت بالغثيان وقلت: «هيا نذهب من هنا ونترك الرجل في حاله. لن يخبرنا شيئاً».

كان لويس سارق محلّات فَقَدَ بعضاً من جرأته القديمة. ارتدى المعاطف السوداء الطويلة الرثة التي ظهر فيها كصقر ماكر. ببساطة بان عليه أنّه لص ومنافق. بالكاد كسب لوي رزقه. سمعت أنّه كان واشياً، لكن في الفترة التي عرفته فيها اعتُبر نزيهاً. لم يرق لوي لجورج اليونانيّ وقال إنه مجرد صفر. «لا تدعوه إلى منزلك أبداً، سيستغلك. سيخطئ أمام عائلتك. دون المستوى».

كان جورج اليونانيّ الوسيط المتعارف عليه في المجموعة. هو من قرّر من المحقّ ومن المخطئ. كان جورج فخوراً بنزاهته. «أنا لا أغرر بأحد أبداً».

أخفق جورج ثلاث مرّات. عرف أنّه في المرّة القادمة سيسجن سجناً





مؤبّداً لكونه «مجرماً عائداً». تلخّصت حياته الآن في ضرورة تجنّب التورّطات الخطيرة. لم يتاجر ولم يسرق، وعمل من وقتٍ لآخر في الميناء. حوصر من جميع الجهات، ولم يتبقّ له سوى السقوط إلى أسفل. عندما فشل في الحصول على الهيروين ـ وهو ما كان يحدث نصف الوقت تقريباً ـ شرب الكحول وتعاطى أقراصاً مسكّنة.

كان لديه ابنان في سنّ المراهقة سبّبا له الكثير من المتاعب. في فترة الشحّ هذه، كان جورج مريضاً نصف الوقت، وغير كفء لهذين الأزعرين الشابين. بانت على وجهه علامات الهزيمة المتواصلة. آخر مرة كنت في نيويورك لم أستطع العثور على جورج. تفرّق أعضاء جماعة شارع ١٠٣ الآن، ومن تمكّنتُ من محادثتهم لم يعلموا شيئاً عن جورج اليوناني.

فريتز البوّاب كان رجلاً قصير القامة، شاحباً ونحيلاً، وأثار انطباعاً بأنّه عاجز. كان إطلاق سراحه مشروطاً دائماً ـ قضّى خمس سنوات في السجن بعد أن اشترى مادّة لأحد الواشين. كان الواشي يحتاج بشدّة لتسليم شخص، وكان وكيل قسم المخدرات في حاجة ماسّة لعمليّة اعتقال. لفّق كلاهما رواية كما لو كان تاجر مخدرات كبيراً، وكأنهم باعتقاله ضربوا شبكة مخدرات. فرح فريتز لأنّه استقطب اهتماماً كبيراً وتحدث برضا عن «الخمسة سنتات» التي كسبها في ليكسينغتون.

كان الهومو سارق سكيرين بارعاً. حقّق أرباحاً مذهلة. كان أول من وصل إلى السكير، ولم يكن من الذين وصلوا بينما السكّير يرقد مفرغ الجيوب. السكير النائم ـ الذي يُعرَف في هذه التجارة بـ «المطروح» ـ يجذب إليه منظومة هرميّة من آكلي الفضلات. أولاً يأتيه لصوص بارعون من أمثال الهومو يرشدهم رادار خاصّ. يريدون فقط المال النقديّ والخواتم ذات الجودة والساعات. ثم يأتي الرعاع الذين يكونون على





استعداد لسرقة أيّ شيء. يأخذون القبعة، الأحذية، والحزام. أخيراً، يصل لصوص مغفلون صفيقون يحاولون سرقة المعطف أو الجاكيت منه.

كان الهومو أول من وصل إلى السكير الجديد على الدّوم. ذات مرة، سرق ألف دولار في محطة شارع ١٠٣. في أحيان كثيرة سرق مئات الدولارات. إذا استيقظ السكير، تأوّه وتحسس فخذَيه كما لو كانت نواياه جنسية. من هنا فاز بهذا اللقب.

كان دائماً متأنقاً، وعادة ما ارتدى معطفاً رياضياً من نوع تويد وسروال فلانيل رمادياً. أخلاق الأوروبي الراقية، ولهجة اسكندنافية طفيفة أكملتا هيئته. لم يبد أنّه لصّ. عمل وحده دائماً. كان حظه جيداً وتجنّب العدوى. قد يغيّر التواصل مع إنسان محظوظ سوء الحظ أحياناً، ولكن عموماً تكون النتيجة معاكسة. المدمنون حسودون. حسد أعضاء جماعة شارع ١٠٣ الهومو على نجاحاته. ولكن الجميع اعترفوا أنّه كان الرجل المناسب، وكان دائماً الرّجل المناسب لاستجداء الأموال منه.

* * *

تكلّف كبسولة الهيروين ثلاثة دولارات ويلزمك ثلاثة منها في اليوم لتتوازن. كنت عاجزاً مادياً، لذلك بدأتُ «أحرث المنطقة» مع روي. سافرنا في مترو الأنفاق وراقبنا الوضع من جانبي مقطورة المترو، إلى أن عثر أحدنا على «مطروح» ينام على المقعد. ثمّ نزلنا. وقفت أنا أمام المقعد ومعي جريدة وأخفيت روي الذي فتّش جيوب السكير. همس لي روي بتعليمات ـ «إلى اليسار قليلاً، أكثر، ارجع إلى الوراء، بالضبط، ابق هكذا». تحرّكت لكي أخفيه. حدث في مرّات كثيرة أننا وصلنا متأخرين، وقد رقد السكير هناك وجيوبه تتدلّى.





عملنا أيضاً داخل مقطورات القطار. جلستُ بجانب السكير وفتحتُ جريدة. مدّ روي يده خلف ظهري وتحسس جيوب السكير. إذا استفاق السكير، رأى يديّ تمسكان بالجريدة. كان معدّل أرباحنا في الليلة عشرة دولارات.

في ليلة عادية، هذا ما جرى تقريباً. بدأنا العمل زهاء الحادية عشرة مساء. ركبنا المترو في التايمز سكوير باتجاه أبتاون. في شارع ١٤٩ وقعت عيني على «مطروح»، ونزلنا. في محطة شارع ١٤٩ هناك عدّة مستويات تشكّل خطراً على سارقي السكيرين حيث توجد عدّة زوايا تسمح لرجال الشرطة بالاختباء وتستحيل التغطية من أي زاوية. المخرج الوحيد في المستوى الأدنى، هو المصعد.

اقتربنا من المطروح مشياً، وكأننا لم نره. كان في منتصف العمر، تمدد قبالة الجدار وتنفّس بصوت عالٍ. جلس روي بجانبه وجلست أنا أمامهما وفتحت الجريدة. قال روي: «إلى اليمين قليلاً، أكثر، إلى الخلف قليلاً، بالضبط، جيّد».

فجأة انقطع التنفّس الثقيل. فكّرت في مشاهد من أفلام يتوقّف فيها النفس في منتصف العمليّة. خلفي، شعرت أن روي جمد في مكانه. تمتم السكير شيئاً وغيّر من وضعيّته. تجدّد النفس رويداً. نهض روي. «أوكي» قال، وتقدّم بسرعة نحو الجانب المقابل للرصيف. أخرج من جيبه حفنة من العملات النقدية المجعدة وعدّ ثمانية دولارات. مدّ إليّ أربعة منها. «أبق هذه في جيب سروالك. لم أنجح في العثور على المحفظة. ظننت لوهلة أنّه سيستيقظ».

بدأنا بالعودة إلى وسط البلد. في شارع ١١٦ عثرنا على مطروح





ونزلنا، لكنه نهض وانصرف قبل أن نصل إليه. اتّجه رجل مهمل بفم رخو عريض صوب روي وبدأ يتكلّم. هو أيضاً كان سارق سكيرين.

ـ قال: «حقّق الهومو مكسباً آخر، مائتين وساعة يد، في شارع ٩٦».

تمتم روي شيئاً ونظر إلى جريدته. واصل الرجل الكلام بصوت عال.

ـ «عثرتُ على شخص استفاق وأنا أؤدي عملي. قال لي: «ماذا تفعل يدك في جيبي؟»».

ـ «بربّك، لا تتحدث هكذا!» قال روي مبتعداً عنه. «وغد مختلّ»، تمتم. «اليوم لا يوجد الكثير من سارقي السكيرين. فقط الهومو وبيغيل وهذا المتشرّد. وجميعهم يحسدون الهومو لأنّه يحقق مكاسب رائعة. إذا استيقظ الأخرق في منتصف العملية، تظاهر أنّه يداعب ساقه كما لو كان مثلياً. هؤلاء المتشرّدون في شارع ١٠٣ لا يتوقّفون عن نعته بـ «هومو المَنيك»، لأنهم غير قادرين على تحقيق أيّ مكسب.

ـ «هو لا يجتهد أكثر مني»، غرق روي في الصمت. «في الواقع، هو يجتهد أقلّ منّي».

سافرنا حتى المحطة الأخيرة لخطّ بروكلين من دون أن نرى مطروحاً واحداً. في طريق العودة، رأينا سكيراً يرقد في مقطورة القطار. جلست بجانبه وفتحت الجريدة. شعرت بذراع روي على ظهري. في لحظة معيّنة استيقظ السّكير وتأملني بنظرة حادّة. لكنّ يديّ أمسكتا بالجريدة جيداً. تظاهر روي بأنّه يقرأ الجريدة معي. عاد السّكير إلى النوم.

ـ قال روي: «علينا أن ننزل هنا. من الأفضل أن نخرج إلى الشارع قليلاً. من المستحسن ألا نسافر طويلاً».





شربنا القهوة من جهاز القهوة الآليّ في شارع ٣٤ وتقاسمنا الغنيمة الأخيرة. كانت الحصيلة ثلاثة دولارات.

ـ قال روي شارحاً: «عندما تمسك بسكير داخل مقطورة قطار، عليك أن تتواءم مع حركات المقطورة. إذا ضبطتَ إيقاعَك ستنجح حتّى لو استيقظَ المغفّل. هذه المرّة استعجلت. لهذا استيقظ. شعر بأنّ ثمّة خطأ ما، لكنّه لم يعرف ما هو».

عند التايمز سكوير التقينا بمايك سابواي. أومأ برأسه لكنّه لم يتوقّف. عمل مايك دائماً لوحده.

ـ قال روي: «هيا نسافر إلى كوينز بلازا، هي محطّة في الإندبندنت. في الإندبندنت هناك رجال شرطة من نوع خاصّ يعملون لحساب الشركة، لا يمتلكون مسدّسات. هراوات فقط. إذا أمسك بك أحدهم، فاهرب إذا استطعت الإفلات منه».

محطّة كوينز بلازا هي أيضاً محطة خطيرة لأنّه من المستحيل أن تخفي نفسك من أيّ زاوية. عليك فقط أن تستغلّ الفرصة. على أحد المقاعد تمدّد أحد السكيرين، لكننا لم نستطع أن نجازف باقتحامه فقد تواجد أشخاص كثيرون من حوله.

ـ قال روي: «ننتظر قليلاً. لكن تذكّر، في الحياة لا تنتظر أكثر من ثلاثة قطارات. إن لم تحصل على الفرصة حتى ذلك الوقت، انس الأمر مهما بدا جيداً».

نزل من القطار أزعران في مقتبل العمر يتخللهما سكّير. ألقيا به على المقعد ثم نظرا إليّ وإلى روي.

ـ «هيا نأخذه إلى الطرف الآخر»، قال أحدهما.





ـ «ولم ليس هنا؟» سأل روي.

ـ تظاهر الأزعران أنهما لا يفهمان. «ما المقصود؟ لا أفهم. ما الذي ـده صديقنا المثليّ؟» رفعا السكير وجرّاه إلى الجانب المقابل للرصيف.

اتّجه روي نحو السكير وشدّ محفظة من جيبه. «لا وقت للأخلاق»، معلّقاً. كانت المحفظة خاوية. رماها روي على المقعد.

صرخ أحد الأزعرين من الطرف المقابل للرصيف: «أخرج يديك جيوبه!» وضحك كلاهما.

ـ قال روي: «أيها الأزعران المنيكان. إن رأيتُ أياً منكما في خطّ ـت سايد فسأرمي ابن العاهرة في الشارع».

اتّجه أحدهما نحونا وطلب من روي نصيباً.

ـ قال روي: «أقول لك لم يملك شيئاً».

ـ «رأيناكَ تخرج محفظته».

ـ «لم يكن فيها شيء».

وصل القطار، ركبنا وتركنا الأزعر من خلفنا ـ لم يقرر هل يترك ـضوع أم لا.

ـ قال روي: «يظنّ الأزعران المنيكان أنها نكتة. لن يصمدا طويلاً. ما يصلان إلى رايكرز أيلاند لن يظنّا أنها نكتة». كانت أياماً صعبة. ـسناً، هذا هو الحال. هناك ليالٍ تجني فيها مائة دولار. وهناك ليالٍ ـى لا تجني فيها شيئاً».







في ليلة، ركبنا مترو الأنفاق في التايمز سكواير. مشى أمامنا رجل مهندم ترنّح قليلاً.

ـ نظر إليه روي وقال: «إنه صيد. لنرَ إلى أين يذهب».

ركب الصّيد المترو الموصل إلى بروكلين. وقفنا عند المسافة الفاصلة بين العربتين وانتظرنا إلى أن نام. بعدها دخلنا إلى المقطورة. جلست بجانبه وفتحت **النيويورك تايمز**. كان روي صاحب فكرة **التايمز**. قال إنّي مع **التايمز** بدوتُ مثل رجل أعمال. كانت المقطورة شبه فارغة، وكنّا ملتصقين بالصّيد وقد توفّرت ستّة مقاعد شاغرة بمسافة ستة أمتار من حولنا. بدأ روي يعمل خلف ظهري. لم يتوقّف الصّيد عن الحركة، استيقظ ونظر إليّ بانزعاج مشوّش. جلس أمامنا زنجيّ وابتسم.

ـ «هذا الزنجيّ ذكيّ»، همس روي في أذني. «لا بأس به».

لم ينجح روي في العثور على المحفظة. صار الأمر خطيراً. شعرتُ أن العرق يقطر على ذراعيّ.

ـ قلت: «هيا ننزل».

ـ «لا. إنّه صيدٌ جيّد. هو يجلس على المعطف ولا أستطيع الوصول إلى محفظته. عندما أعطيكَ الإشارة، انقضّ عليه، وأنا سأسحب المعطف في نفس اللحظة... **الآن**! هيا بربّك! لم يكن ذلك قوياً كفاية!».

ـ قلت مجدداً: «هيا ننزل». أمكنني أن أشعر بالخوف يدبّ في بطني. «سوف يستيقظ».

ـ «لا. دعنا نحاول من جديد ...**الآن**! ما بك؟ فقط انقضّ عليه بقوّة».

ـ قلت: «يا روي، بربّك! دعنا ننزل! سوف يستيقظ».





بدأت أنهض، لكنّ روي شدّني. فجأة دفعني بقوّة، ووقعت بثقل على الصّيد.

ـ قال روي: «أصبت هذه المرة».

ـ «المحفظة؟».

ـ «لا. نجحت في تحريك المعطف».

خرج القطار من النفق نحو السكة الحديديّة المرتفعة. أثار بي الخوف شعوراً بالغثيان واصلبّت كلّ عضلاتي من مجهود الانضباط. كان الصّيد شبه مستيقظ. توقّعت أن يقفز على قدميّ في أيّ لحظة ويبدأ بالصراخ.

أخيراً سمعتُ روي يقول: «وجدتها».

ـ «إذاً، هيا ننزل».

ـ «لا. وجدت فقط لفة ورق مفكوكة. المحفظة معه في مكان ما وسوف أجدها. لا بدّ أنّ معه محفظة».

ـ «أنا سأنزل».

ـ «لا. انتظر».

شعرت به يتحسس خلف ظهري بحركات مكشوفة إلى حدّ كان من المستحيل تصديق أنّ الرجل يواصل نومه.

وصلنا إلى نهاية الخطّ. نهض روي. «احمِني» قال. وقفت أمامه مع الجريدة وحجبته عن المسافرين قدر مستطاعي. بقي ثلاثة أشخاص فقط في المقطورة، لكنهم جلسوا في أماكن متفرقة. تفقّد روي جيوب الرجل بجرأة وفجاجة.

ـ «هيا نخرج» قلت.





نزلنا إلى رصيف المحطة.

استيقظ الصّيد وأدخل يديه في جيوبه. ثمّ نزل إلى رصيف المحطة واتّجه نحو روي.

ـ قال: «أوكي يا حلو، أعطني نقودي».

هزّ روي كتفيه مستهجناً وقلب كفّي يديه إلى أعلى.

ـ «أية نقود؟ عمّ تتحدّث؟».

ـ «أنت تعرف جيداً عم أتحدّث! يدك مُدّت إلى جيبي!».

ـ مدّ روي يديه مرة أخرى مرتبكاً ومستنكراً: «أوه. عم تتحدّث؟ لا أعلم شيئاً عن نقودك».

ـ «كلّ ليلة أراك في هذا الخط. هذا مسارك». استدار وأشار إليّ. «وهذا شريكك. والآن هل ستُعيد إليّ نقودي؟».

ـ «أية نقود؟».

ـ «أوكي. لا تتحرك. سنسافر إلى البلدة ومن الأفضل لك ألا تكون كاذباً».

فجأةً دفع الرجل بيديه ـ جيب معطف روي وصرخ «يا ابن القحبة! أعد إليّ نقودي!».

لكمه روي في وجهه وسقط الرجل أرضاً.

ـ «ما هذا»، قال روي الذي عزف فجأةً عن سلوكه الاسترضائيّ والمحيّر. «أبعد يديك عنّي!».

قام مفتّش التذاكر الذي استشرف عراكاً، بإيقاف القطار حتى لا يقع شخص على السكة.





«هيا نغادر» قلت. بدأنا نتحرك على طول الرصيف. نهض الرجل وبدأ يركض باتجاهنا. طوّق روي بذراعيه وأمسك به بصلابة. لم ينجح روي في التخلّص منه. تنفّس بمجهود كبير.

ـ «أبعد عنّي هذا الصّيد!» صرخ روي.

لكمتُ الرجل مرّتين في وجهه. ضعفت قبضته ووقع على ركبتيه.

ـ «الكمه في رأسه» قال روي.

لكمته بين أضلاعه وشعرتُ بكسر ضلع. وضع الرجل يده على المكان. «أنقذوني!» قال صارخاً. لم يحاول النهوض.

ـ «هيا نرحل» قلت.

في الجانب المقابل للرصيف سمعت صافرة شرطي. ظل الرجل ممدداً على الرصيف وهو يضمّ أضلاعه ويصرخ بوتيرة ثابتة «أنقذوني!».

في الخارج، هطل رذاذ مطر. عندما وصلت إلى الشارع انزلقت على الرصيف المبلل. وقفنا عند محطة وقود مغلقة ونظرنا إلى الخلف باتجاه السكة الحديدية المرفوعة.

ـ «هيا نرحل» قلت.

ـ «سيروننا».

ـ «لا يمكننا أن نبقى هنا».

بدأت أتحرك. انتبهت إلى أنّ فمي جاف. أخذ روي قُرصين من المهدّئات من جيب قميصه.

ـ قال: «فمي جافّ جداً، لا يمكنني أن أبتلعها».

واصلنا السير.





ـ قال روي: «لا بدّ أن هناك بلاغ إنذار ضدّنا. انتبه إلى وجود سيارات شرطة. إذا وصلَت سيارة، سنقفز بين الشجيرات. لا بدّ أنهم يظنون أننا ركبنا القطار عائدين، لذا فإن الأفضل لنا أن نواصل السير».

تواصل الرذاذ. نبحت الكلاب باتجاهنا ونحن نسير.

ـ قال روي: «إذا أمسكوا بنا تذكّر قصّتنا. نمنا في القطار واستيقظنا عند المحطة الأخيرة. هذا الرجل اتّهمنا بأننا سرقنا نقوده. خفنا، لذلك أسقطناه أرضاً وهربنا. سوف يشبعوننا ضرباً. توقّع ذلك».

ـ قلت: «ها هي سيارة قادمة. أضواؤها صفراء أيضاً».

زحفنا باتجاه الشجيرات الموجودة على جانبي الشارع وربضنا خلف لافتة. مرّت السيارة بسرعة بطيئة. واصلنا السير. بدأت أشعر بعلّة وتساءلت إن كنت سأنجح في الوصول إلى المنزل وإلى المورفين الذي خبأته في الشقة.

ـ قال روي: «عندما نصل من المستحسن أن ننفصل. هنا يمكننا أن نتعاون. إذا واجهنا شرطيّ سنقول له إننا أمضينا وقتاً مع بعض الفتيات وإننا نبحث عن محطة مترو الأنفاق. هذا المطر في صالحنا. لا بدّ أن كلّ رجال الشرطة ذهبوا إلى مكانٍ ما لاحتساء القهوة. قال بعصبيّة: «بربك! لا تتجول هكذا!».

استدرت ونظرت خلف الكتف.

ـ «أمر طبيعيّ أن أنظر إلى الخلف» قلت.

ـ «أمر طبيعيّ للصوص!».

في النهاية وصلنا محطة خط بي.أم. تي. وسافرنا عائدين إلى مانهاتن.





ـ قال روي: «لا أعتقد أني أتحدّث فقط باسمي عندما أقول إنّي خفت. آه، هاك نصيبك!».

سلّمني ثلاثة دولارات.

غداة اليوم التالي قلت له إنّي أقلعتُ عن سرقة السكيرين.

ـ قال: «أنا لا ألومك. لكنّك كوّنت انطباعاً مغلوطاً. إذا بقيت في العمل مدّة أطول بما فيه الكفاية ستجرّب أشياء جيّدة».

* * *

أحيلَت قضيّتي إلى المحاكمة في جلسة خاصّة. حُكِم عليّ بأربعة أشهر مع وقف التنفيذ. بعد أن تنازلتُ عن مهنة السرقة قررت التجارة في الهيروين. لا يوجد فيها ربحٌ وفير. إذا كنتَ مدمناً وتاجراً على مستوى الشارع فإنّ كلّ ما يمكنك توقّعه هو أن تموّل إدمانك. لكن عندما تكون تاجراً فأنت على الأقلّ مزوّد بالهيروين على الدوام، وهذا ما يعطيك شعوراً بالأمان. بالطبع هناك على الدوام أشخاص يربحون من تجارة الهيروين. عرفت تاجراً أيرلندياً باع أكياساً احتوت على غرامين من الهيروين وبعد مرور عامَين عندما قبضوا عليه وحكم عليه بالسجن ثلاثة أعوام، امتلك ثلاثين ألف دولار ومبنى سكنيّاً في بروكلين.

إذا أردت أن تبيع، عليك أولاً أن تجد تاجر جملة. لم يكن لي تاجر جملة وعقدتُ شراكة مع بيل غينس الذي كان له تاجر جملة إيطاليّ لا بأس به في لاور إيست سايد. اشترينا منه البضاعة بتسعين دولاراً لربع أوقية، وقمنا بتخفيف تركيزها مع اللاكتوز إلى الثلث وعبّأناها في كبسولات ذات الحبّة الواحدة. بعنا كلّ كبسولة بدولارين، سعر التجزئة. كلّ كبسولة احتوَت على نسبة بين ١٠ وحتّى ١٦ في المائة من الهيروين





وهو كثير على كبسولات بسعر التجزئة. قبل البدء بتخفيف ربع أوقية يجب أن تتوفر مائة كبسولة من الهيروين على الأقل. لكن إذا كان تاجر الجملة إيطاليّاً، فَشِبه مؤكّد أنّه يخدعك. عادة ما نجحنا في تحضير ثمانين كبسولة من ربع أوقية إيطاليّة.

كان بيل غينس من عائلة كريمة ـ وفق ما أذكر، كان والده رئيس بنك في مكان ما في ماريلاند ـ وكانت له جبهة. اعتاد غينس على سرقة المعاطف من المطاعم، وقد وافقه هذا العمل تماماً. المواطن الأمريكيّ ابن الطبقة الوسطى فما فوق عبارة عن تركيبة من الصفات السالبة. تعرفه من خلال نقيضه. كان غينس أكثر من ذلك. لم يكن مجرّد سالب. كان غير مرئيّ بشكل مدهش؛ وجود محترم ومبهم. هناك نوع من الأشباح يتجسد فقط من خلال ملاءة أو أي قطعة ملابس أخرى تمنحه هيكلاً. كان غينس من هذا النوع. تجسّد في معطف شخص آخر.

امتاز غينس بابتسامة طفوليّة وشريرة تنافت على نحو صادم مع عينيه الزرقاوين الشاحبتين، الهامدتين والهَرمتين. ابتسم، وأصغى إلى دواخله وكأن شيئاً سبّب له السعادة. أحياناً، بعد الحقنة، ابتسم واستمع وقال بخبث «هذه المادّة نافدة». الابتسامة نفسها أقرّت بتدهور وسوء حظّ آخرين. «كان هيرمان فتى جميلاً عندما وصل إلى نيويورك. المشكلة أنّه فقد وسامته».

كان غينس من المدمنين القلائل الّذين خالجتهم متعة حقيقيّة برؤية أشخاص يتحوّلون إلى مدمنين. العديد من المدمنين التجار يفرحون برؤية مدمن جديد لأسباب ماديّة. عندما تكون في حوزتك بضاعة، من الطبيعيّ أن ترغب في استقطاب الزبائن شريطة أن يكونوا من الصّنف





المثاليّ. لكن غينس أحبّ دعوة الشّبان إلى غرفته وحقنهم بمادّة عادةً ما كانت مركّبة من منسوجات قطنيّة قديمة، ثم يراقب تأثيرها، بابتسامته الصغيرة.

عادة ما قال الفتية إنّ الحقنة كانت جيّدة، وهذا كلّ شيء. مجرّد حقنة جيدة، مثل المسكّنات، أو المنشّطات، أو الكحول، أو الحشيش. لكن قلّة من ظلّوا وأدمنوا، نظر غينس، راهب الهيروين، إلى المتحوّلين وابتسم. لاحقاً سمعوه يقول: «في الحقيقة، ذلك الشخص عليه أن يدرك أنّي لا أستطيع أن أحتمله أكثر». انتهت الحفلة. حان وقت الدفع. وسيدفع طيلة حياته، وسينتظر عند زوايا الشوارع وفي المقاصف، التاجرَ الوسيط بينه وبين الهيروين. في هرميّة الهيروين كان غينس مجرّد كاهن رعيّة. تحدث عن الكبار في التجارة بصوت فيه رهبة كئيبة. «التجار يقولون...».

كانت أوردته شبه مهترئة، غائرة في العظام كي تفلت من الإبرة التي تجسّها. لفترة من الزمن، استخدم شرايينه التي كانت أعمق من الأوردة ومن الصعب الوصول إليها، لهذا اشترى إبرة طويلة خصيصاً لها. تحوّل من ذراعيه ويديه إلى أوردة قدميه. كان يعود إلى الوريد في الوقت المناسب. مع ذلك، كان عليه أن يحقن تحت الجلد معظم الوقت. لكنه تنازل وحقن تحت الجلد فقط بعد نحو نصف ساعة من عذاب الجسّ والوخز وتنظيف الإبرة التي انسدّت بالدم.

* * *

أحد زبائني الأوائل شخصيّة من القرية يُدعى نيك. رسم نيك لوحة كلّما فعل شيئاً. كانت أقمشة لوحاته صغيرة جداً وبدت كأنّها رُكزت، وضُغطت





وشوّهت كلّها تحت ضغط هائل. «إنّها حصيلة عقلٍ مشوّه»، صرّح أحد وكلاء مكافحة المخدّرات بجديّة بعد أن تأمّل إحدى لوحات نيك.

نيك كان دائماً شبه مصاب بنوبة: عيناه البنيّتان الحزينتان الكبيرتان دمعتا قليلاً، وسال المخاط من أنفه الرفيع. نام على الأرائك في شقق الأصدقاء، وحافظ على وجوده بالصبر المتداعي الذي تحلّى به العصابيّون المتقلّبون والمتشككون حد البلاهة والذين طردوه بدون سبب أو إنذار. اشترى المادّة أيضاً من أجل هؤلاء الأشخاص آملاً في أن يحصل في المقابل على طرف كبسولة تخفف من جوعه الدائم للهيروين. في أحيان كثيرة لم يتلقّ شيئاً سوى كلمات شكر عرضيّة، بعد أن اقتنع المشتري نفسه أنّ نيك أخذ بشكل ما نصيبه من التاجر. كانت النتيجة أنّ نيك بدأ يسرق كميات قليلة من كلّ كبسولة، ثمّ قام بتحريكها حتّى امتلأت الكبسولة بالهيروين.

لم يتبقّ من نيك الكثير. جوعه الكبير المتواصل حرق كلّ الاعتبارات الأخرى. تحدّث بغموض عن رغبته في السفر إلى لينغستون للعلاج، أو الإبحار في أسطول التاجر البحريّ أو شراء صبغة الأفيون في كونيكتيكوت والإقلاع تدريجياً من خلاله.

عرّفني نيك إلى طوني الذي عمل ساقياً في حانة ومطعم في القرية. كان طوني تاجراً وكادوا يقبضون عليه عندما اقتحمت الشرطة الفدراليّة شقّته. بالكاد وجد وقتاً لرَمي رزمة غرامَين من الهيروين تحت البيانو. لم تجد الشرطة الفدراليّة شيئاً سوى عدّته، وأطلقت سراحه. خاف طوني وترك المهنة. كان شاباً إيطالياً وبدا واضحاً أنه يفهم الأمور. بدا كمن كان قادراً على حفظ السّر. زبون من الطراز الجيّد.

اعتدت الذهاب إلى حانة طوني يومياً وطلبت الكوكا كولا. كان





طوني يقول لي إنّه يريد كبسولات عدة، وكنتُ أتوجّه بدوري إلى كابينة التليفون أو إلى المرحاض وألفّ كبسولاته في ورق ألومنيوم. عندما أعود إلى طاولة المشرب، أجد نقود الكبسولات ملقاة فوق الطاولة وكأنّها فكّة. أرمي الكبسولات في المنفضة الموجودة على طاولة المشرب، يفرغ طوني المنفضة تحت طاولة المشرب ويلتقط الكبسولات. هذا النظام كان ضرورياً لأن صاحب الحانة علم أنّ طوني يتعاطى المخدرات وقد أبلغه بأن يتوقّف أو يبحث عن عمل آخر. في الواقع، ابن صاحب الحانة تعاطى أيضاً ـ في تلك الفترة كان في مصحّة للعلاج. عندما خرج حضر إليّ ليشتري المادة. قال إنّه لا يمكنه التوقف.

وصل إلى هذه الحانة يومياً شاب إيطاليّ عصريّ يُدعى راي. بدا شخصاً جيداً لذا اهتممت بأمره أيضاً ووضعت كبسولاته مع كبسولات طوني في المنفضة. كانت الحانة التي عمل فيها طوني صغيرة، ودرجها أقل من مستوى الشارع. كان فيها باب واحد فقط. شعرتُ دائماً أنّي عالق كلّما ذهبتُ إلى هناك. شعرت بالاكتئاب والخطر إلى حدّ بالكاد نجحتُ في تجاوز عتبة الباب.

بعد أن رتّبت أمر طوني وراي، التقيت عادةً بنيك في الكافتيريا المتواجدة في الجادة السادسة. دائماً توفّر لديه المال لبعض الكبسولات. كنت أعرف بالطبع أنّه يشتري لصالح الآخرين لكنّي لم أعرفهم. كان عليّ أن أعرف أنّ عقد الصفقات مع نيك أمر محظور، لأنّه عانى من النوبات ومن الإفلاس طيلة الوقت لهذا كان عرضة لطلب المال من أيّ شخص كان. ثمّة أشخاص يحتاجون إلى وسيط يشتري لهم المادّة، إما لكونهم غرباء في البلدة، أو لأنّهم لم يتعاطوا الهيروين فترة طويلة كافية





ليراكموا معارف. لكنّ التاجر الوسيط له عذره في اتخاذ الحيطة من الأشخاص الذين يرسلون أحداً ليشتري لهم. عموماً يكمن السبب في عدم قدرة شخص على الشراء في أنه يعمل «واشياً». لذا فإنّه يقوم بإرسال شخص آخر ليشتري قد لا يكون هو نفسه «واشياً»، وإنّما مجرّد متعطّش للهيروين. أن تشتري من أجل واشٍ مسألة لا أخلاقيّة بلا شكّ. مرّات كثيرة ينتقل فيها الشّخص من مشترٍ إلى واشٍ مثلهم.

لكنّي لم أكن في وضع يسمح لي برفض المال. لم يكن لديّ متنفّس. كان عليّ أن أبيع يومياً ما يكفي من الكبسولات لأتمكّن من شراء الربع أوقية التالية، ولم يكن معي سوى بضع دولارات للمرة التالية. لهذا أخذت النقود التي أحضرها نيك ولم أطرح أيّ أسئلة. عرفتُ أن نيك مجازفة خطيرة سيّئة، لكني لم أستطع أن أوقفه.

* * *

بدأت أتاجر مع بيل غينس، الذي اهتمّ بالمصالح التجاريّة في إيبتاون. التقيت ببيل في كافتيريا في الجادة الثامنة بعد أن انتهيتُ من القرية. كان له زبائن جيّدون. عمل إيزي، ربّما كان أفضل زبائنه، طباخاً في قارب جرّار في ميناء نيويورك. كان من جماعة شارع ١٠٣. في إحدى المرّات جرّب إيزي تجارة المخدرات واشتهر بنزاهته البحتة، وكان له مصدر دخل ثابت. هو زبون مثاليّ.

ظهر إيزي أحياناً مع شريكه، غولدي، الذي عمل معه في نفس القارب. كان غولدي شخصاً نحيفاً ذا أنف معقوف وبشرة وجه مشدودة وبقعتين ملوّنتين على إحدى وجنتيه. ماطي هو صديق آخر لإيزي كان مظلّياً سابقاً، شاب بوجه صارم ووسيم وضخم، لم تبد عليه إمارات





الإدمان. كانت هناك عاهرتان اهتمّ بيل بشأنهما. بشكل عام، العاهرات لسن صفقة جيّدة. هنّ يستقطبن الشرطة، ومعظمهنّ يعترفن. لكنّ بيل أصرّ أنّ هاتين العاهرتين بالذات كانتا على ما يرام.

زبون آخر من زبائننا يُدعى بارت العجوز. أخذ بضع كبسولات يومياً وباعها لقاء عمولة. لم أعرف زبائنه، لكنّ ذلك لم يقلقني. كان بارت على ما يرام. إذا وقعت فوضى، تحمّل المسؤوليّة دون أن يتفوّه بكلمة. على أيّة حال، كان صاحب خبرة في مجال الهيروين مدّة ثلاثين عاماً وعرف عمله.

عندما وصلت إلى الكافتيريا التي اعتدنا أن نلتقي فيها، جلس بيل إلى إحدى الطاولات، جسده النحيل يربض في معطف شخص آخر. غمس بارت العجوز، رثّ الملبس وباهت الهيئة، غمس الكعكة في القهوة. قال لي بيل إنّه اهتمّ بشأن إيزي، ثمّ أعطيت بارت عشر كبسولات للبيع، وركبنا أنا وبيل سيارة أجرة إلى شقّتي. هناك حقنّا أنفسنا وفحصنا المخزون ووضعنا جانباً تسعين دولاراً لشراء ربع أوقية أخرى.

بعد أن حقن بيل نفسه، تمددت بعض الصبغة في وجهه، وتحوّل هو إلى شبه خجول. كان ذلك منظراً مخيفاً. أذكر أنه حكى لي مرّة كيف تلقّى عرضاً من مثليّ عرض عليه عشرين دولاراً. رفض بيل، وقال: «لا أعتقد أنّك ستشعر بالاكتفاء». شدّ بيل وركيَه الهَزيلَين بقوّة. قال: «عليك أن تراني عارياً، أنا جميل للغاية».

أحد مواضيع حديث بيل الدائمة والبغيضة دارت حول وضع أمعائه بالتفصيل.





ـ «أحياناً أصل إلى وضع أضطرّ فيه أن أدخل عدة أصابع إلى الداخل لكي أسحبه. إنه صلب كالخزف، هل تفهم؟ والألم فظيع».

ـ قلت: «اسمع، هذا التاجر الوسيط دائماً يخدعنا. تمكّنت من الحصول على ثمانين كبسولة من الدفعة الأخيرة».

ـ «حسناً، لا يمكنك أن تتوقّع أكثر من اللازم. لو كنت قادراً فقط على الذهاب إلى المستشفى والحصول على حقنة شرجيّة! لكنّهم لا يفعلون شيئاً من أجلك إلا إذا راجعتهم في المستشفى من قبل، وبالطبع لا يمكنني أن أفعل هذا. يحتجزونك هناك أربعاً وعشرين ساعة على الأقل. قلت لهم: من المفروض أنكم مستشفى. أعاني من آلام وأحتاج إلى علاج. لماذا فقط تنادون المرافق و..».

لم يكن إسكاته أمراً ممكناً. عندما يشرع الناس في الحديث عن حركة أمعائهم يتصلّبون مثل العمليات التي يتحدّثون عنها.

* * *

سارَت الأمور على هذا النحو لعدة أسابيع. عثر زبائن نيك عليّ، واحداً تلو الآخر. سئموا من الشراء عن طريق نيك، لأنّهم اكتشفوا أنّه سرق رؤوس الكبسولات. يا لها من مجموعة! متسكعون، مثليّون، نصابون، واشون، عاطلون ـ دون إبداء استعداد للعمل، غير قادرين على السّرقة، مفلسون على الدوام، يتباكون طيلة الوقت ويريدون الاستدانة. جميعهم ضعفوا وأجابوا من أوّل لكمة عن سؤال «من أين لكم على هذا؟».

كان جين دولي الأسوأ في هذه المجموعة، أيرلنديّ قصير أعجف بسلوك يراوح بين المثليّ والقوّاد. كان جين واشياً حتى العظم. كان





إنساناً قذراً، وعلى الأرجح، كانت بحوزته قوائم سوداء أخرجها وقرأ أسماء أشخاص أمام رجال الشرطة. كان من السّهل تخيّله وهو يدخل بهمّة مركز قيادة الشرطة البريطانيّة أثناء الانتفاضة الأيرلنديّة، يرتدي رداءً رمادياً قذراً ويسلّم المسيحيين، ويعطي معلومات للغستابو، للشرطة السوفياتيّة السريّة، يجلس في الكافتيريا ويتحدّث إلى الوكيل الموزّع للمخدرات. دائماً بنفس الوجه الجرذيّ النحيل، والملابس الرثة القديمة، والصّوت النافذ المتذمر.

أكثر ما لا يُحتمل في جين هو صوته. كان صوته نافذاً تماماً. هذا الصّوت كان أول علمي بوجود جين. وصل نيك إلى شقتي ومعه أموال لشراء البضاعة، ثمّ استدعوني عبر الجرس الكهربائيّ لتلقّي مكالمة هاتفيّة.

ـ قال الصوت: «اسمي جين دولي. أنا في انتظار نيك، وأنتظر هنا منذ مدة طويلة». في عبارة «مدة طويلة» تحوّل الصوت إلى أنين حادّ عالٍ.

ـ قلت: «حسناً، هو عندي الآن. أعتقد أنه بإمكانك رؤيته بعد قليل»، وأغلقت الخط.

في اليوم التالي، اتّصل دولي بي مجدداً. «لست بعيداً عن منزلك. هل تمانع لو حضرت؟ الأفضل لي أن ألتقي بك لوحدك».

أغلق الخط قبل أن أجيب، وفي غضون عشر دقائق وقف عند الباب.

عندما تلتقي بشخص لأوّل مرّة، هناك فترة زمنية من التفحّص المتبادل على المستوى الحدسيّ للعاطفة والتعارف بينكما. لكن كان من المستحيل التعامل مع دولي في أيّ جانب. كان مجرد حلقة وصل لقوة





اقتحاميّة عدائيّة. أمكنك أن تشعر به يلج عقلك وينظر من حوله ليرى إن كان هناك من أحد يستغله. ابتعدت قليلاً عن الباب تجنّباً لأي اتصال معه. دفع بنفسه نحو الغرفة وجلس فوراً على الأريكة وأشعل سيجارة.

ـ «الأفضل أن نلتقي هكذا، كان لابتسامته إيحاء جنسيّ مبهم. «نيك شخص غير حذر». نهض ومدّ إليّ أربعة دولارات. «هل تمانع لو خلعت هنا؟» سأل وهو يخلع عنه معطفه.

لم أسمع شخصاً يستخدم هذا التعبير قطّ. في لحظة جنون ظننته يغازلني. رمى معطفه على الأريكة وثنى ردنه. أحضرت له كبسولتين وكأس ماء. أحضر معه عدّته، وكنت ممتناً له. راقبته وهو يبحث عن الوريد، ضغط على القطارة وأنزل ردنه.

عندما تكون مدمناً، لا يكون تأثير الحقنة مفاجئاً. لكن المراقب المدقّق يمكنه أن يرى نتائج الهيروين في دم وخلايا متعاطٍ آخر. لم ألاحظ أيّ تغيير عند دولي. ارتدى معطفه ورفع سيجارته التي خمدت في المنفضة. نظر إليّ بعينين زرقاوين شاحبتين لا عمق فيهما. بدتا اصطناعيتين.

ـ قال: «دعني أقول لكَ شيئاً، ثقتك بِنيك خطأ فادح. قبل عدّة ليالٍ كنتُ في كافتيريا تومبسون والتقيتُ بالتاجر روجرز. قال لي: «أعرف أنّ نيك يشتري لكلّ المدمنين اللعينين هنا في القرية. أنتم تحصلون على بضاعة جيّدة ـ ما بين ست عشرة وعشرين بالمائة. لذا أصغ إليّ، يمكنك أن تقول لنيك إنّه بإمكاننا إيقافه متى أردنا، وعندما نصل إليه في النهاية سيضطر للعمل معنا. اعترف لي مرّة. وسيفعلها مرة أخرى. عندها سنكتشف من أين يأتي بالبضاعة».

نظر إلي دولي ومصّ سيجارته.





ـ «عندما يصلون إلى نيك، سيصلون إليك. الأفضل لك أن تبلغ نيك أنّه إذا تكلّم سنهتمّ بأن يصبّوك داخل برميل إسمنتي وإلقائك في إيست ريفر. لست في حاجة لأن أقول أكثر من ذلك. إفهم لوحدك».

نظر إليّ محاولاً قياس مدى تأثير كلماته. كان من المستحيل أن يعرف كم سأصدّق من هذه القصّة.

ربّما كانت تلك طريقته ليقول بشكل غير مباشر: «كيف يمكنك أن تعرف من استهدفك؟ بما أنّ نيك مشبوه مؤكّد، فلن تعرف أنّي أنا الواشي لو فتحت فمي، أليس كذلك؟».

ـ«سألني: هل يمكنك أن تعطيني كبسولة تحت الحساب؟ ما حكيته لك للتوّ يستحقّ شيئاً».

ناولته كبسولة ووضعها في جيبه دون تعليق.

ـ وقف وقال: «حسناً، سأراك. سآتي غداً في نفس الوقت».

أجريتُ بعض الاستيضاحات لأعرف كيف يمكنني العثور على دولي، ولأعرف حكايته. لم يعرف أحد شيئاً محدداً عنه. طوني الساقي قال: «دولي سيشي عند الضرورة». لكنه لم يعطِني أيّ دليل. نعم، عُرف عن نيك أنّه وشى في إحدى المرّات. لكن وقائع هذه الحالة، التي تورّط فيها دولي أيضاً، تشير إلى أن الوشاية كان من الممكن أن تصدر عن دولي أيضاً.

بعد مضيّ أيّام على حكاية دولي، كنت خارجاً من محطة مترو الأنفاق في واشنطون سكواير، عندما قصدني شاب أشقر نحيف.

ـ قال: «بيل، أظنّك لا تعرفني. منذ مدّة وأنا أشتري منك عن طريق





نيك، وقد سئمت من سرقاته لرؤوس الكبسولات. ألا يمكنك أن تهتمّ بي مباشرة؟».

**قلت في نفسي اللعنة، لماذا يجب أن أكون انتقائياً بعد جين دولي؟**

ـ قلت: «حسناً يا فتى، كم تريد؟».

أعطاني أربعة دولارات.

ـ قلت: «تعال نمشي». وبدأت أسير ناحية الجادة السادسة. كانت في يدي كبسولتان وانتظرت أن نصل إلى مكان خال في المدينة.

ـ قلت: «استعدّ لتتناول»، وألقيت الكبسولات في يديه. التقيت به في اليوم التالي في «بيكفورد» في واشنطون سكواير.

كان اسم الفتى الأشقر كريس. سمعتُ من نيك أنّ والديه ثريّان وأنّه عاش من مخصصات أرسلاها إليه. عندما التقيت به في بيكفورد غداة اليوم التالي، أعاد عليّ جملته التحذيرية من نيك. «يتعقبون أثر نيك طيلة الوقت. عندما يكون المرء في نوبة فإنه لا ينظر خلفه، وأنت تعرف ذلك. إنه يركض. لذا تحقّق من الشخص الذي تثق فيه حتّى تعطيه رقم هاتفك وعنوانك».

ـ «أعرف كلّ هذا» قلت.

تظاهر كريس بأنّي أهنته.

ـ «حسناً، أرجو أنّك تعرف ماذا تفعل. الآن اسمع، هذا ليس كلاماً معاداً. سأستلم حوالة من عمّتي بعد ظهر اليوم، هذا مؤكّد. انظر هنا».

أخرج برقيّةً من جيبه. نظرت إليها. كان فيها تلميح بالحوالة. واصل شرحه عن الحوالة. أثناء حديثه، لم يتوقّف عن وضع يده على ذراعي





والتحديق بجديّة في وجهي. شعرت أنّه لا يمكنني احتمال هذه المخاتلة المداهنة. لكَي أقطع عليه، ناولته كبسولة قبل أن يطلب منّي اثنتين أو ثلاثاً.

في اليوم التالي ظهر ومعه دولار وثمانون سنتاً. لم يحك شيئاً عن الحوالة. وهكذا كان. دائماً عانى من نقص في الأموال، أو كان مفلساً تماماً. دائماً كان يستعدّ لاستلام أموال من عمّته أو حماته أو أيّ أحد. هذه الروايات وثّقها بالرسائل والبرقيات. كان مخيّباً مثل جين دولي.

كان مارفين زبوناً بارزاً آخر، عمل نادلاً بوظيفة جزئيّة في ناد ليليّ في القرية. لم يحلق، وكان وسخاً على الدوام. امتلك قميصاً واحداً، غسله أسبوعياً ونشفه عبر مشعاع التدفئة. الأنكى من ذلك، أنّه لم يرتد الجوارب. اعتدت إحضار البضاعة إلى غرفته، غرفة مؤثثة وقذرة في بناية ذات قرميد أحمر في شارع جين. فضّلت أن أحضر إليه البضاعة على أن ألتقي به في أيّ مكان آخر.

بعض الأشخاص يعانون حساسيّة من الهيروين. ذات مرة، أحضرت لمارفين كبسولة وقام بحقن المادة. وقفت ونظرت من النافذة إلى الخارج ـ أمر مؤلم مشاهدة شخص يتحسس وريداً ـ وعندما استدرت إلى الخلف انتبهت إلى أنّ قطارته مليئة بالدم. غاب عن الوعي، وعاد الدم وملأ القطارة. اتّصلتُ بنيك فسحب الإبرة وصفع مارفين بمنشفة رطبة. عاد إلى وعيه جزئياً وتمتم شيئاً.

ـ «أظنّه على ما يرام... دعنا نخرج» قلت.

بدا مثل جثّة ملقاة فوق السرير الفوضوي القذر، ذراعه المرتخية ممدودة، وقطرة دم بدأت تحتشد عند المرفق.





عندما نزلنا عن الدرج أخبرني نيك أن مارفين يضغط عليه كي يعطيه عنواني.

ـ قلت: «اسمع جيداً، إذا أعطيته عنواني فَجِد تاجراً جديداً يبيعك. لا أحتاج إلى شخص يحتضر في شقتي».

تظاهر نيك بالإهانة.

ـ «بالطبع لن أعطيه عنوانك».

ـ «وماذا عن دولي؟».

ـ «لا أدري كيف حصل على عنوانك. أقسم لك».

* * *

إلى جانب هؤلاء المتبطّلين، كان لدي زبونان جيّدان. التقيت ببيرت، وهو شخص تعرّفت إليه في حانة أنجل. عُرف عن بيرت أنّه رجل عضلات. كان شخصاً ثقيل البنية بوجه مدوّر ومظهر بريء خادع، وكان خبيراً في البلطجة والابتزاز. عرفته كشخص تعاطى الحشيش فقط، وتفاجأت عندما سألني عن الهيروين. قلت له نعم، أبيع الهيروين، واشترى عشر كبسولات. بعدها اكتشفت أنّه مدمن منذ نصف عام.

عبر بيرت، التقيت بزبون آخر. يدعى لويس، وكان شخصاً وسيماً ذا بشرة ناعمة، ووجه رقيق وشارب أسود حريريّ. بدا مثل لوحة تعود إلى عام ١٨٩٠. كان لويس لصاً لا بأس به، وعموماً كان ذا سعة. عندما طلب مني أن يستدين، ونادراً ما حدث ذلك، سدّد دينه في اليوم التالي. أحياناً كان يحضر معه ساعة يد أو بذلة بدلاً من السيولة، وهذا لم يزعجني على الإطلاق. مقابل خمس كبسولات أخذت منه ساعة بقيمة خمسين دولاراً.





التجارة في الهيروين مهنة توتّر الأعصاب. عاجلاً أم آجلاً، يصيبك التوتّر، ويبدو الجميع كأنّهم رجال شرطة. وكأنّ المسافرين في مترو الأنفاق يقتربون منك حتى يتمكنوا من الإمساك بك قبل أن تتمكن من حقن نفسك.

حضر دولي يومياً، شخص وقح، ملحّ، لا يطاق. عادة ما حمل تفاصيل جديدة حول الحوار بين نيك وروجرز. لم يمانع بأن يحكي لي عن علاقته بروجرز.

ـ قال لي دولي: «روجرز شخص فطن، لكنّه مبتذل. لا يتوقف عن قول «لا يهمني أيّ منكم، أنتم، الحشاشين اللعينين. أنا أبحث عن أولئك القادرين على جني الأموال منه. عندما نعثر على نيك، سيفتح فمه. لقد فتح فمه مرة. سيفعلها ثانية».

لم يتوقف كريس عن ملاحقتي ليستدين، تباكى ولمسني طيلة الوقت، وتحدث عن المال الذي أكّد أنّه سيحصل عليه في غضون أيام، أو ساعات.

بدا نيك منزعجاً ومحبطاً. أظنّ أنّه لم ينفق أموالاً على الطعام. بدا وكأنّه في آخر مراحل مرض فتّاك.

عندما سلّمت مارفين المادّة، غادرت قبل أن يحقن نفسه. عرفت أنّه قد يموت من الهيروين عاجلاً أم آجلاً ولم أرغب في أن أتواجد هناك عندما يحدث ذلك.

فوق ذلك كلّه، كسبتُ رزقي بشق الأنفس. التاجر الذي غشّنا في الكميّات، الاستدانة المتواصلة، الزبائن الذين نقصهم خمسة وعشرون، أو خمسون سنتاً، أو حتى دولار، وإدماني الشخصيّ، كلّ هذا خفض الأرباح إلى حدّ الكفاف.





عندما اشتكيت ضدّ التاجر، صار بيل لاذعاً وقال إنّه عليّ أن أخفف المادّة أكثر. «أنت تعطي أفضل الكبسولات في نيويورك. لا أحد يبيع كبسولة بنسبة ١٦ في المائة في الشارع. وإن لم يرق الأمر لزبائنك، فليرحلوا».

واصلنا تغيير مكان لقاءاتنا من كافتيريا إلى أخرى. لا يحتاج مدير الكافتيريا وقتاً طويلاً حتّى يميّز وكيل المراهنات أو تاجر الهيروين. كنّا ستّة زبائن ثابتين في أبتاون الآن، وهذا يعني قدراً كبيراً من الحركة. لذا واصلنا التحرك.

أعطتني حانة طوني إحساساً بالرعب. في يومٍ، هطل مطر شديد وكنت في الطريق إلى طوني بتأخير زهاء نصف ساعة. أطلّ راي، الشاب الإيطالي العصريّ، برأسه من باب المطعم وناداني. كان هناك بوفيه مأكولات، وصفّ من المقصورات على طول الحائط. جلسنا في مقصورة وطلبت الشّاي.

ـ قال راي: «هناك وكيل يتجول في الخارج يرتدي معطفاً عسكرياً أبيض. تعقبني إلى هنا من حانة طوني، وأخشى الخروج».

كانت الطاولة مصنوعة من أنابيب معدنيّة، ووضع راي يدي تحت الطاولة حيث أراني فتحة تواجدت في طرف إحدى الأنابيب. بعته كبسولتين. لفّهما بمنديل ورقيّ وحشا المنديل في الأنبوبة.

قال: «سأخرج نظيفاً من القضيّة في حال فتّشوني».

ارتشفت من كأس الشاي، وشكرته على المعلومات، وغادرت قبله. كانت المادة في علبة سجائر وكنتُ على استعداد لرميها في بالوعة مليئة بالماء. من المؤكد أن شاباً قوي البنية يرتدي معطفاً عسكرياً أبيض كان





عند المدخل. عندما رآني بدأ يسير أمامي في الشارع بتؤدة. ثم انعطف إلى الشارع الجانبي وانتظر أن أتجاوزه حتى يتمكن من تعقّبي. استدرت وركضتُ في الاتجاه المعاكس.

عندما وصلت الجادة السادسة، كان يبعد عني مسافة خمسين قدماً. قفزت عن الباب الدوار عند مدخل مترو الانفاق ودفعت بعلبة السجائر إلى المساحة الموجودة وراء آلة بيع العلكة. ركضت إلى المستوى التحتي وركبت القطار الذي أوصلني إلى السكوير.

جلس بيل غينس إلى طاولة في الكافتيريا. ارتدى معطفاً مسروقاً، وكان هناك معطف آخر على ركبتيه. بدا خبيثاً وراضياً. تواجد بارت العجوز هناك، كذلك سائق سيارة عاطل عن العمل يدعى كيلي، تسكع في شارع ٤٢ ومن وقت لآخر ربح بضعة دولارات من بيع الواقي المطاطي ومن استجداء خمسين سنتاً من المسافرين في مترو الأنفاق وهي عادة من باب «تكسّب الفكة». أخبرتهم عن الوكيل، وانحنى بارت العجوز ليرفع أغراضه.

بدا غينس منزعجاً وقال بغضب:

ـ «بربّك، لماذا لا تنتبه إلى زبائنك؟».

«لو لم أبع لراي لكنت الآن في طريقي إلى مبنى الإف.بي.أي».

«حسناً، توخ الحذر».

بينما انتظرنا بارت، بدأ كيلي يقص قصة طويلة عن فترة قضاها في السجن ـ وكيف مصّ للحارس.

خلال مدة قصيرة، عاد بارت ومعه المادة. قال بأن رجلاً يرتدي





معطفاً عسكرياً أبيض ما زال يتجول على رصيف المحطة. مررت لبارت كبسولتين من تحت الطاولة.

مشينا، أنا وغينس إلى غرفته، لنحقن المادة.

ـ قال: «سأحكي لبارت أني صدقاً لم أعد قادراً على تحمله أكثر».

عاش غينس في بناية شقق رخيصة غربي شارع ٤٠. فتح له باب الغرفة. قال:

ـ «انتظر هنا. سأحضر عدّتي».

مثل غالبيّة المدمنين، خبأ «عدّته» وكبسولاته في مكان ما خارج غرفته. عاد مع العدّة وحقنّا معاً.

كان غينس واعياً لموهبته بأن يكون خفياً عن العين، وشعر أحياناً بالحاجة إلى شدّ نفسه ليكون لديه على الأقل جسداً يحقن الإبرة فيه. في هذه الحالات، جمع كل القرائن التي أثبتت وجوده. الآن بدأ يفتش في جوارير المنضدة، وأخرج منها مغلفاً بنيّاً بالياً. أراني شهادة إعفاء من أكاديمية في أنابوليس «لحسن أداء الخدمة»، رسالة قذرة قديمة من «صديقي، القبطان»، بطاقة أرسلت إلى «البناؤون الأحرار»، وبطاقة عضو في «فرسان كولومبوس».

«حتّى القليل يساعد»، قال مشيراً إلى رسائل التوصية. جلس لبضع دقائق، صامتاً متأملاً. ثم ابتسم وقال:

ـ «مجرد ضحية للظروف». وقف وأعاد المغلف بعناية. قال: «لقد أحرقت نفسي مع كل مكاتب الرهونات في نيويورك. هلاّ رهنت هذه المعاطف لي؟».





بعد ذلك ساءت الأمور. أوقفني موظف الفندق في البهو. قال: «لا أدري كيف أقول ذلك ولكن ثمة شيئاً ليس على ما يرام في الأشخاص الذين يحضرون إلى غرفتك. أنا نفسي مارست أفعالاً غير قانونية منذ سنوات. أردت فقط أن أنبهك بأن تأخذ حذرك. كما تعلم، كل المكالمات تمر عبر المكتب. سمعت مكالمة هذا الصباح وكان الأمر في غاية الوضوح. لو جلس شخص غيري أمام لوحة المفاتيح... لذا كن حذراً وأخبر هؤلاء الأشخاص بأن ينتبهوا إلى كلامهم عبر الهاتف».

المكالمة التي أشار إليها كانت من دولي. هاتفني صباح ذلك اليوم وصاح:

ـ «أريد أن أراك. أنا مريض. سأحضر فوراً».

شعرت برجال الإف.بي.أي يقتربون بخطى ثابتة. كانت مسألة وقت. لم أثق في أيّ من زبائني في القرية، وكنت مقتنعاً أن واحداً منهم على الأقل كان واشياً حقيراً.

كان دولي المتهم الأول، ونيك الثاني، وكريس الثالث. بالطبع، هناك دائماً احتمال بأن يكون مارفن قد سلك الطريق السهل في جني الأموال لشراء زوج من الجوارب.

اشترى نيك لبعض الأشخاص الذين عملوا في وظائف محترمة في القرية ورغبوا من حين لآخر في الانغماس في «الكيف». يشكّل هذا الصّنف من البشر خطراً أمنياً كبيراً بسبب خوفه. إنهم يخافون من الشرطة، يخافون من فقدان وظائفهم المحترمة. لا يخطر في بالهم للحظة أن تقديم معلومات للشرطة قد يكون خطأ. بطبيعة الحال، لن يقدموا معلومات خشيةَ «التورط». لكنهم عموماً سيروون كلّ شيء في تحقيق الشرطة.





يعمل وكلاء المخدرات إلى حدّ كبير بمعونة الواشين. النظام المعتاد، هو الإمساك بشخص يتعاطى الهيروين، وتركه في السجن حتى يصاب بنوبة ويصبح جاهزاً تماماً. ثم يقولون له بكلام معسول:

ـ «يمكنك أن تسجن لمدة خمس سنوات بتهمة حيازة المخدرات. من ناحية أخرى، يمكنك الخروج من هنا الآن. القرار يعود لك. إذا تعاونت معنا، يمكننا أن نوفر لك صفقة جيدة. أولاً، سيكون لديك وفرة في الهيروين ومصروف الجيب. هذا إذا سلمتنا المعلومات. نمهلك بضع دقائق لتفكّر في الأمر».

يخرج الوكيل بضع كبسولات ويضعها على الطاولة. الأمر يشبه سكب كوب من الماء المثلج أمام رجل يموت عطشاً. «لماذا لا تلتقطها؟ جيد، أنت تفكر بحكمة. الرجل الأول الذي نريده هو..».

بعضهم لا يحتاج لممارسة أيّة ضغوطات عليه. الهيروين ومصروف الجيب هما كل ما يريدونه، ولا تهمّهم الطريقة. الواشي الجديد يُعطى مالاً معلّماً ويتم إرساله لشراء المادّة.

عندما تتمّ صفقة الشراء، ينتشر الوكلاء فوراً لتنفيذ الاعتقال. من الضروري اعتقال البائع قبل أن يتمكن من تبديل المال المعلّم. يوجد لدى الوكلاء المال المعلّم الذي تم دفعه لقاء الهيروين، ولقاء الهيروين الذي تم شراؤه. إذا كانت القضية مهمة بما فيه الكفاية، يمكن استدعاء الواشي للإدلاء بشهادته. وبطبيعة الحال، بمجرد أن يظهر في المحكمة ويدلي بشهادته، تنكشف هويته ولا يعود هناك من يكون على استعداد لبيعه. بعد ذلك، يكون قد أنهى مهنة الوشاية، إلا إذا أرسلوه إلى مدينة أخرى (بعضهم على قدر كافٍ من الموهبة لتنفيذ مهمّات).





عاجلاً أم آجلاً، يصبح التجار واعين للواشي فلا يعود قادراً على شراء المادة. عندما يحدث هذا، تنتهي صلاحيته عند وكلائه، وعادة ما يقومون بتسليمه. في أحيان كثيرة ينتهي به الأمر في السجن مدّة أطول من أي شخصٍ وشى عنه.

في حالة من هم أصغر سناً من أولئك الذين لا يمكن استخدامهم كواشين بوظيفة كاملة، يكون الإجراء مختلفاً. قد يحاول الوكيل أن يقول كلاماً قديماً: «أكره أن أنحّي طفلاً صغيراً مثلك. من المؤكّد أنك ارتكبت خطأ. يمكن أن يحدث ذلك لأي شخص. اسمع الآن. سأمنحك فرصة، ولكن عليك أن تتعاون معنا. وإلا فلن أتمكّن من مساعدتك». أو يقوم بلكمه في وجهه ويقول: «من أين لك هذا؟» مع الكثيرين، هذا كل ما يتطلبه الأمر. يمكن أن تجد بين زبائني عيّنات لجميع أصناف الواشين، علنيين أو محتملين.

بعد أن كلّمني موظّف الفندق، انتقلت إلى فندق آخر وتسجّلت فيه باسم آخر. توقفت عن الذهاب إلى القرية، وحوّلت لقاءات الزبائن إلى أبتاون.

عندما حكيت لغينس ما قاله لي موظّف الفندق وكيف كنا محظوظين أننا وقعنا مع الرجل المناسب، قال:

ـ «علينا أن نتوقف. لا يمكننا أن نتواصل مع هذا الحشد».

ـ قلت: «حسناً، إنهم الآن هناك، ينتظروننا عند الآلة. جميعهم هناك. هل نذهب اليوم؟».

ـ «نعم. أنا ذاهب إلى ليكسينغتون للعلاج وأحتاج إلى دفع أجرة الحافلة. سأغادر الليلة».





ـ حالما وصلنا إلى مكان اللقاء ورأونا، ترك دولي الآخرين، وركض صوبنا بأقصى سرعة، وأثناء ركضه نزع عنه معطفاً بلَونين. انتعلَ صندلاً أو شبشباً.

ـ قال: «أعطني أربع كبسولات مقابل هذا المعطف، لقد قضيت في السجن أربعاً وعشرين ساعة».

كانت نوبة دولي توتّر الأعصاب. أذابت الخلايا الجائعة للهيروين غلاف شخصيّته وأخفته تماماً. الخلايا الجائعة التي استيقظت للعمل مثل حشرة كريهة، بدت وكأنّها على وشك اختراق سطح الجسم. كان وجهه مبهمَ، مجهولاً، وفي الوقت نفسه كان متقلّصاً ومتورّماً.

أعطى غينس كبسولتين لدولي وأخذ المعطف.

ـ قال: «سأعطيك اثنتين أخريين هذه الليلة. احضر إلى هنا في التاسعة».

إيزي، الذي وقف جانباً في هدوء، نظر إلى دولي باشمئزاز.

ـ قال: «يا إلهي! صنادل!».

احتشد الآخرون من حولنا، وبسطوا راحاتهم مثل حشد من المتسولين الآسيويين. لم يكن لدى أيّ منهم أية أموال.

ـ قلت لهم: «الدين ممنوع».

وبدأت أمشي في الشارع. تبعونا، وهم يتذمّرون ويمسكون بسواعدنا». كبسولة واحدة فقط». قلت «لا» وواصلنا السير. ابتعدوا واحداً تلو الآخر. مشينا إلى المترو وأبلغنا إيزي أننا سنتوقف عن هذا العمل.





- قال: «يا إلهي. لا ألومكم. صنادل!».

اشترى إيزي ست كبسولات، وأعطيت اثنتين لبارت العجوز الذي كان على وشك أن يسافر إلى رايكرز أيلاند للعلاج في ثلاثين يوماً.

تفحّص بيل غينس المعطف بمهنيّة وقال:

- «يمكنه أن يجلب عشرين دولاراً بسهولة. أعرف خياطاً سيصلح لي هذا الشقّ». كان هناك شق صغير في أحد الجيوب. «من أين أتى به؟».

- «يدّعي أنّه من بروكس بروذرز. لكنّه من صنف الرجال الذين سيقولون لك عن أيّ شيء يسرقونه إنه من بروكس بروذرز أو من أبركومبي أند فيتش».

- قال غينس مبتسماً: «خسارة أن حافلتي تصل في السادسة. لن أتمكّن من إحضار الكبسولتين اللتين وعدته بهما».

- «لا تقلق بشأن هذا. إنّه يدين لنا بعشرين دولاراً».

- «آه، حقاً؟ حسناً، إذاً لا يهمّ».

* * *

سافر بيل غينس إلى ليكسينغتون، وسافرت أنا في سيارتي إلى تكساس. كان في حوزتي غرامان من الهيروين تقريباً. ظننتها كافية للإقلاع التدريجيّ، وكنت قد سجلت جدول العلاج بعناية. كان من المفروض أن تكفي لاثني عشر يوماً. قمنا بحلّ الهيروين، ووضعتُ ماء مرشّحاً في زجاجة أخرى. في كلّ مرة سحبت كميّة من المحلول بواسطة القطارة، أعدت إلى زجاجة المحلول نفس كمية الماء المرشح. في نهاية الأمر حقنت ماءً مرشحاً. هذه الطريقة يعرفها جميع المدمنين.





هناك طريقة أخرى تشبهها تُعرف باسم «العلاج الصينيّ»، يتمّ فيها استخدام الأفيون وماء التونيك. بعد مضيّ أسابيع قليلة، تجد نفسك تشرب ماء تونيك خالصاً.

بعد أربعة أيّام، وأنار في سينسيناتي، نفد الهيروين وشُللتُ تماماً. لم أسمع قط عن علاج ذاتيّ تدريجيّ ذاتي مرّ بنجاح. في كلّ مرة يحقن الشخص نفسه، يجد عذراً لزيادة الجرعة قليلاً. في النهاية ينفد الهيروين ـ ويتواصل الإدمان.

أبقيت السيارة في الموقف، وركبتُ القطار إلى ليكسينغتون. لم أحمل كلّ الأوراق المطلوبة للقبول، لكني اعتمدت على شهادة الإعفاء العسكريّ كي أدخل. عندما وصلت إلى ليكسينغتون استقلّيت سيارة أجرة إلى المستشفى الذي كان على بعد عدّة أميال من المدينة. أوصلتني سيارة الأجرة إلى مقصورة مدخل المستشفى. كان في المقصورة حارس أيرلنديّ مسنّ. تأمل شهادة الإعفاء العسكريّة.

«هل أنت مدمن على تعاطي أدوية تسبب الإدمان؟».

قلت نعم.

«حسناً، اجلس» قال مشيراً نحو المقعد.

ـ اتّصل بالمبنى الرئيسيّ. «كلا، لا يملك أوراقاً... معه شهادة إعفاء عسكريّة». قال رافعاً بصره عن السماعة. «هل سبق لك أن كنت هنا؟».

قلت لا.

ـ «يقول إنه لم يكن هنا من قبل».

أنزل الحارس السماعة.





ـ قال: «بعد بضع دقائق ستصل سيارة لتقلّك. هل تملك عقاقير أو إبراً أو قطّارات؟ يمكنك أن تسلّمها هنا، ولكن إذا كنت ستأخذها معك إلى المبنى الرئيسيّ فقد يتّهمونك بتهريب الممنوعات إلى حيّز حكوميّ».

ـ «لا أملك شيئاً».

بعد فترة وجيزة من الانتظار، حضرت سيارة عند المدخل وأوصلتني إلى المبنى الرئيسيّ. باب حديديّ ثقيل فُتح تلقائياً، سمح بدخول السيارة ثم أغلق. حارس مهذّب قيّد تاريخ إدماني.

ـ قال: «خيراً فعلت بمجيئك إلى هناك. الآن يوجد شخص هنا أمضى أعياد الميلاد الخمسة والعشرين الماضية حبيساً في مكان ما».

وضعت ملابسي في سلّة واستحممت. كانت الخطوة التالية الفحص البدنيّ. اضطررت إلى انتظار الطبيب ما يقارب خمس عشرة دقيقة. اعتذر الطبيب عن انتظاري له، وأجرى لي الفحص البدنيّ وسجّل تاريخ إدماني. كان ذا كياسة وكفاءة. أصغى إلى تاريخ إدماني وقاطعني بين الحين والآخر بملاحظة أو بسؤال. عندما أشرت إلى أنّي أشتري الهيروين بكميات تصل إلى ربع أوقية، ابتسم وقال:

ـ «تبيع نصيباً منها لتواصل الإدمان، أليس كذلك؟».

في النهاية مال بكرسيّه إلى الخلف وقال:

ـ «كما تعلم، يمكنك مغادرة هذا المكان في غضون مهلة مدّتها أربع وعشرون ساعة. هناك أشخاص يرحلون بعد مضيّ عشرة أيام، ويقلعون عن التعاطي بشكل تامٍ. وهناك من يبقون لمدة ستة أشهر ويعودون إلى التعاطي بعد مضيّ يومين على رحيلهم. لكن، من الناحية الإحصائية، كلما بقيت مدة أطول هنا، ازدادت احتمالات إقلاعك عن الإدمان.





الإجراءات هنا عادية. تستمر فترة العلاج حوالي ثمانية أو عشرة أيام، الأمر يتعلق بخطورة الإدمان. يمكنك أن ترتدي الرّوب الآن».

تحدث الطبيب على عجل إلى الديكتافون. وصف باقتضاب حالتي الجسدية وتاريخ إدماني.

«يبدو المريض واثقاً من نفسه، ويقول إن سبب رغبته في العلاج هي حاجته إلى إعالة عائلته».

قادني حارس إلى قِسمي.

ـ قال: «إذا كنتَ ترغب في التخلص من الإدمان، فإنّ هذا هو المكان الأمثل لذلك».

سألني أحد العاملين في القسم إذا كنتُ راغباً حقاً في الإقلاع عن الإدمان. قلت نعم. خصّص لي غرفة.

بعد زهاء خمس عشرة دقيقة صاح العامل:

ـ «صفّ الحقن! فليصطفّ جميع من في القِسم!».

هكذا فعل كلّ المتواجدين في القسم. عندما تلوا أسماءنا، أدخلنا أذرعنا عبر نافذة في باب عيادة القسم وقام العامل بحقننا. الحقنة التي أخذتها وازنتني رغم النوبة التي أصابتني. بدأت أشعر بالجوع.

سرتُ إلى وسط القِسم، حيث كانت مقاعد وكراسي ومذياع، وتحدّثت إلى شاب إيطاليّ بدا مجرماً. سألني إذا كانت لي سوابق. قلت لا.

ـ قال: «يجدر بك أن تكون مع المعتدلين، ستحصل هناك على علاج أطول وغرف أفضل».

كان المعتدلون أشخاصاً جاءوا من ليكسينغتون للمرة الأولى،





واعتبرت احتمالات إقلاعهم جيدة بشكل خاص. على ما يبدو، ظنّ الطبيب في الاستقبال أن احتمالاتي ليست جيدة بشكل خاص.

خرج آخرون من غرفهم وانضموا إلى المحادثة. أشعرتهم الحقنة بالاستئناس. جاء أولاً زنجيّ من أوهايو.

ـ «كم من الوقت لبثت؟» سأله الإيطالي.

ـ «ثلاث سنوات» قال الزنجي.

سجن بتهمة تزوير وبيع روشتات طبية. حدّثني عن الفترة التي قضاها في سجن ولاية أوهايو. «إنه ألعن مكان يقضي فيه المرء وقتاً». كانت هناك مجموعة من الشبان، أوغاد صغار صارمون. تحصل على تموينك من مخزن التموين ويأتي إليك أزعر ويقول: «أعطني هذا». إذا لم تعطه، لكمك في وجهك، ثم انقض عليك الجميع دفعة وحدة. وأنت لا تقوى على الجميع».

وصف أحد التجار من ناد للقمار من شرق سانت لويس طريقة لطهي حامض الكربوليك من وصفة مكونة من الفينول، الزيت وصبغة الأفيون.

«أخبرُ الصيدلانيّ أنّ لي أمّاً مسنّة تستخدم هذه الوصفة للبواسير. بعد أن ترشح الزيت، تضع المادة في ملعقة فوق لهب غاز. يعمل اللهب على حرق الفينول فوراً. سيجعلك هذا تصمد لمدة أربع وعشرين ساعة».

كان هناك رجل وسيم قوي البنية، في الأربعين، ذو بشرة مسفوعة وشعر حديديّ اللون يميل إلى الرماديّ، حدّثني كيف هرّبت صديقته من أجله مادّة داخل برتقالة.

ـ «كنا في سجن اللواء. تغوطنا في سراويلنا من فرط الخوف،





كالإوز. عندما قضمت من البرتقالة كان الطعم مراً للغاية. احتوت البرتقالة على ١٥ أو ٢٠ غراماً، حقَنَتها داخلها. لم أحسب أنّها ذكيّة إلى هذا الحد».

«قال لي الحارس، "أيّها المدمن! يا ابن القحبة، أتريدُ أن تقول لي إنّك كنتَ مولعاً بالمخدرات؟! لن تحصل على أيّ دواء هنا!"».

ـ «زيت وصبغة. الزيت يطفو إلى الأعلى، ويمكنك شفطه بالقطارة. إنه ينضج ويتحول إلى أسود كالقطران».

ـ «إذاً، وصلتُ إلى فيلادلفيا وأنا أعاني من نوبة حقيرة».

ـ «ثم يقول لي الطبيب: حسناً كم تحتاج؟».

ـ «هل حقنت مرة الديلاوديد؟ العديد من الأشخاص قتلوا أنفسهم به. تقريباً بحجم الكميّة التي يمكنك أن تضعها على طرف المسواك. الطرف السميك، وانتهى الأمر». اكبيرعلى طرفقتلوا أنفسهم منهاني من نوبة سافلة، أخبرني كيف هربت له صديقته مادة داخل برتقالة. .

ـ «قم بتسخينه واحقنه».

ـ «تحريك».

ـ «سكب».

ـ «كان ذلك في عام ١٩٣٣. ثمانية وعشرون دولاراً للأوقية».

ـ «اعتدنا تحضير البانغو من زجاجة وقصبة مطاطية. عندما انتهينا من التدخين، كسرنا الزجاجة».

ـ «قم بتسخينه واحقنه».

ـ «تحريك».





- «بالتأكيد يمكنك حقن الكوكايين في الجلد. سيصل إلى المعدة على الفور».

- «بإمكانك أن تشمّ رائحة الهيروين والكوكايين وهما يتسربان إلى الداخل».

مثل رجال جائعين ولا يستطيعون الحديث عن أي شيء سوى الأكل. بعد مدة بدأ تأثير الحقنة يزول. خف الحديث. تجوّل الناس، أو ارتاحوا أو قرؤوا أو لعبوا الورق. قُدّمت وجبة الغداء في قاعة القِسم، كانت الوجبة ممتازة.

كانت هناك ثلاث حقن يومياً. في السابعة صباحاً، عندما استيقظنا، وفي الواحدة ظهراً وفي التاسعة مساء. شخصان أعرفهما معرفة شخصيّة قديمة وصلا في ساعات بعد الظهر، هما ماتي ولويس. التقيت بلويس عند اصطفافنا لتلقّي حقنة المساء.

- «هل أمسكوا بك؟» سألني.

- «لا. جئت إلى هنا للعلاج فقط. ماذا عنك؟».

- «مثلك»، أجاب.

أثناء حقنة المساء، أعطوني أيضاً هيدرات الكلورال في كأس للشرب. أثناء الليل، وصل إلى القِسم خمسة وافدين جدد. لوّح عامل القِسم بيديه. «لا اعرف أين سأضعهم. لديّ الآن واحد وثلاثون مدمناً هنا».

من بين الوافدين الجدد، حضر رجل أبيض الشّعر سبعينيّ اسمه بوب ريوردان، مهيب الهيئة نصّاب قديم وتاجر مخدرات ونشّال. بدا مثل مصرفيّي عام ١٩١٠. وصل مع صديقين له في سيّارة. في الطريق إلى ليكسينغتون، اتّصلوا بوزير الصحة في واشنطن وطلبوا منه أن يرسل برقيّة





إلى البوابة تبلغ بقدومهم وبضرورة إدخالهم. نادوا الوزير باسم «فليكس»، وبدا أنّهم عرفوه في السابق. لكن ريوردان وحده من دخل في تلك لليلة. سافر الآخران إلى بلدة قريبة من ليكسينغتون، حيث عرفوا طبيباً هناك، وذلك لكي يتوازنوا قبل أن تشلّ حركتهم من نقص الهيروين.

حضر كلاهما في ساعات الظهر من اليوم التالي. كان سول بلوم رجلاً سميناً بوجه يهوديّ ثقيل. كان كلّ ما فيه يصرخ بأنّه نصّاب. وصل معه شخص نحيل وصغير يدعى بانكي. قد يكون بانكي مزارعاً عجوزاً أو مجرّد عجوز نحيل وجافّ لولا عيناه الرماديتان، الهادئتان والباردتان من وراء النظارة ذات الإطار الفولاذي. كان هذان الشخصان صديقَي ريوردان. قضوا سنوات في السجن، تحديداً في السجون الفدراليّة، بتهمة بيع الهيروين. كانوا اجتماعيين، لكنّهم حافظوا على مسافة. الحكاية التي روّجوا لها هي أنّهم فعلاً أرادوا العلاج من الهيروين لأنّ الشرطة الفدراليّة ضايقتهم طيلة الوقت.

كما قال سول: «تباً، أنا أحبّ الهيروين ويمكنني أن أحصل على شاحنة كاملة منه. لكن إذا لم يكن بإمكاني تعاطيه دون أن تضايقني الشرطة، فسأعزف عن الموضوع».

مضى في الحديث عن معارف له قدماء تعاطوا الهيروين في البداية وتحوّلوا إلى شخصيّات محترمة لاحقاً. «الآن يقولون لا علاقة تربطنا بسول. إنّه مدمن».

لا أعتقد أنهم توقّعوا أن يصدّق أحدٌ حكاية رغبتهم في الإقلاع عن التعاطي. تلك كانت طريقتهم كي يقولوا: «سبب مجيئنا إلى هنا مسألة تخصّنا وحدنا فقط».





بعد ذلك، وصل شخص آخر يُدعى إيب غرين، وهو يهوديّ بأنف طويل وساق واحدة. بدا شبيه جيمي دورانتي. كانت عيناه زرقاوين كَعَيني عصفور. حتّى أثناء النوبة شعّ حيويّة. في ليلته الأولى في القِسم، عانى من نوبة حتى جاء الطبيب لفحصه وقام بحقنه بنصف حبة إضافية من المورفين. خلال أيام كان يتعكز في القسم، ويتحدث ويلعب الورق. كان غرين تاجر مخدّرات مشهوراً من بروكلين، أحد المستقلين القلائل في هذا المجال. معظم التجار اضطروا أن يعملوا لحساب النقابة أو أقلعوا، لكن غرين امتلك شبكة علاقات كبيرة، حيث نجح في الصّمود من تلقاء نفسه. في تلك الفترة، خرج من السجن بكفالة، لكنّه توقّع أن يفلت من لائحة الاتهام على أساس الاعتقال غير القانوني.

ـ «يقوم (الوكيل) بإيقاظي في منتصف الليل ويبدأ بضربي على رأسي بمسدّسه. يريدني أن أعطيه اسم التاجر. قلت له «عمري أربعة وخمسون عاماً وحتّى اليوم لم أخبركم بشيء يا رفاق. أفضّل الموت قبل أن أحكي».

تحدّث عن الفترة التي مكث فيها في أتلانتا، حيث شفي من الإدمان دون أن يتلقّى مساعدة:

ـ «١٤ يوماً وأنا أضرب رأسي بالحائط وسال الدم من عيني وأنفي. عندما حضر السجان، بصقتُ في وجهه».

كانت لهذه الحكايات طبيعة ملحميّة وهو يرويها.

كان بيني أيضاً يهودياً ومدمناً قديماً من نيويورك. زار ليكسينغتون إحدى عشرة مرة، وهذه المرة وصل إلى هنا بموجب قانون «البلو ـ غراس». وفق قانون بلو غراس لولاية كنتاكي، يمكن الحكم على مدمني





المخدرات بالسّجن لمدّة عام واحد، أو أن يختار العلاج في ليكسينغتون. كان بيني يهودياً ضئيلاً سميناً قصير القامة مدوّر الوجه. لن أبيع الهيروين له. امتلك صوتاً جميلاً عالياً في الغناء، وأدّى أفضل ما عنده في أغنية «وابل أبريل».

دخل بيني يوماً غرفة الاستخدام النهاريّ، كان منفعلاً.

ـ قال: «للتو وصل مويشيه، هو شحاذ ومثليّ. هو عار للشعب اليهوديّ».

ـ قال أحدهم: «لكن يا بيني، هو متزوّج ولديه أطفال».

ـ قال بيني: «لا يهمّني حتّى لو كان لديه عشرة أطفال، يبقى مثلياً».

ظهر مويشيه بعد ساعة. بانَ عليه تماماً أنّه مثليّ وأنّه شحاذ محترف. قاربَ الستين، بوجهٍ ورديّ أملس، وشعر أبيض.

ركض ماطي في كافّة أرجاء القِسم، وتحدث إلى الجميع، طرح أسئلة حادة، ووصف أعراض الانسحاب عنده بالتفصيل. لم يشتك قط. لا أعتقد أنه كان قادراً على الإشفاق على نفسه. سأله بوب ريوردان عن عمله فأجاب ماطي: «أنا مجرّد لصّ مغفل». روى قصة عن رجل مخمور نام على مقعد في رصيف المترو:

ـ «عرفتُ أنّ معه مبلغاً من المال في جيب معطفه، لكن في كلّ مرة فَصَلت بيننا ثلاثة أمتار، استفاق وقال: ماذا تريد؟».

كان من السهل تخيّل الطاقة النّشيطة والاختراقيّة التي تحلّى بها ماطي والتي أيقظت المخمور. «ثم ذهبتُ ووجدت رجلاً أعرفه. عاطل مدمن على المسكّنات. جلس بجانب المخمور، وخلال عشرين ثانية فعلها. قصّ الجيب».





ـ «ولماذا لم تلصقه بالحائط وأخذت كلّ أمواله؟» سأل ريوردان بطريقته الوديّة والمتعالية.

كان ماطي واثقاً جداً من نفسه، ولم يكن في ذلك شكّ. لم يبد عليه أنّه مدمن. إذا رفضوا في الصيدلية أن يبيعوه إبرة، قال:

ـ «لماذا لا تريدون أن تبيعوني؟ هل أبدو لكم مدمناً؟».

أحد الأطباء أثار رغبة ماطي في المخدرات.

ـ قال ماطي: «ذلك اليهودي الوغد، كان يقول لي، "يا ماطي أنت تحتاج إلى حقنة صغيرة" لكني جعلته يندم أنه عرفني».

أمكنني أن أتخيّل طبيباً يهودياً سميناً كبيراً مسناً يحاول أن يرفض إعطاء ماطي حقنة على الحساب. أشخاص من أمثال ماطي يشكّلون خطراً في تجارة المخدرات. عادة ما يملكون المال. عندما لا يملكونه، يتوقعون أن يشتروا بالدّين. إذا رفضت، سيأخذون منك المخدّرات بالقوة. إذا أرادوا الهيروين، فإنهم غير مستعدّين لسماع كلمة «لا».

لم يُصمّم العلاج في ليكسينغتون ليكون مريحاً للمدمنين. في البداية يتلقون نصف حبة من المورفين ثلاث مرات في اليوم، وتتواصل العملية لمدة ثمانية أيام. المادة التي استخدموها هناك هي مورفين اصطناعي يدعى دولوفاين. بعد ثمانية أيام تتلقى حقنة الوداع وتنتقل إلى جناح «التأهيل». هناك تتناول المسكّنات لثلاث ليال، وتصل إلى نهاية مرحلة تعاطي الأدوية.

المدمن الثقيل له جدول زمني صعب للغاية. كنت محظوظاً لأني وصلت وأنا أعاني من نوبة، إذ إن الكمية التي تلقيتها في فترة العلاج





وازنتني. طالما كنتَ في نوبة وطالما كنتَ بعيداً عن الهيروين أطول فترة ممكنة، فإنّ الكميّة التي من شأنها أن توازنك قد تكون أقلّ.

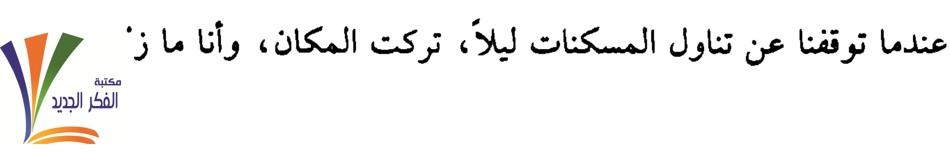
عندما حانت ساعة تناول حقنة الوداع، أرسلوني إلى القسم المسمّى بـ«السجن». الإقامة كانت جيّدة، لكنّ النزلاء كانوا بائسين، في قِسمي، كانت هناك حفنة من المتشردين المسنّين يسيل اللعاب من أفواهم.

بعد توقّف العلاج، يُسمح لك بسبعة أيام راحة في قسم «التأهيل». بعدها عليك أن تختار وظيفة وتشرع في العمل. ليكسينغتون فيها مزرعة ومَلبنة بمعنى الكلمة. هناك أيضاً مصنع لتعليب الفواكه والخضروات التي تُربّى في المزرعة. يدير النزلاء مختبراً للأسنان حيث يقومون بتصنيع الأسنان الاصطناعية، ومختبراً لإصلاح الراديو، ومكتبة: هم بمثابة عمال نظافة، يطهون ويقدمون الطعام، ويعملون كمساعدين للعاملين في الأقسام. هكذا تكون هناك مجموعة واسعة من المهن يمكن الاختيار من بينها.

لم أخطط للبقاء فترة من الزمن تكفي للعمل. بعد أن بدأ يزول عنّي تأثير حقنة الوداع، مرضت. رغم أنّه كان مجرد شعور خالجني عندما وصلت، لكنه كان سيئاً بما يكفي.

رغم المسكنات، لم أنم في تلك الليلة. في اليوم التالي ازداد وضعي سوءاً. لم أستطع تناول أي شيء، وبالكاد تحركت. الدولوفاين يعلّق النوبة، ولكن عندما تتوقف عن تناول الدواء تعود النوبة. قال لي أحد النزلاء: «لن تشفى من إدمانك في قسم الحقن. ستشفى منه هنا في قسم التأهيل».

عندما توقفنا عن تناول المسكنات ليلاً، تركت المكان، وأنا ما ز



أعاني من النوبة. بعد ظهر يوم عاصف بارد، استقلّ خمسة منا سيارة أجرة في ليكسينغتون.

قال أحد الرفاق: «يجب أن تغادر ليكسينغتون. اقصد محطة الحافلات وابق هناك حتى تحضر حافلتك. وإلا ففي مقدورهم أن يوقفوك بموجب قانون بلو ـ غراس. سنّ القانون، من جملة أهداف أخرى، بغية الدفاع عن الأطباء والصيادلة في كنتاكي من إلحاح المدمنين المنضمّين إلى «مزرعة المخدرات في ليكسينغتون» أو الخارجين منها. هدفه أيضاً منع المدمنين من البقاء في بلدة ليكسينغتون نفسها.

في سينسيناتي، ذهبت إلى عدة صيدليات واشتريت زجاجات من صبغة الأفيون ذات الأوقية الواحدة. أوقيتان منها كافيتان لموازنة مدمن في حالة إقلاع تدريجيّ، كما كنتُ أنا وقتها. شربت ثلاث زجاجات منها، ثمّ أردفتها بقليل من الماء الدافئ. خلال عشر دقائق شعرت بالهيروين يسيطر على الأمور، واختفت النوبة. شعرت بالجوع على الفور وخرجت من الفندق باحثاً عن مطعم.

* * *

أخيراً وصلت إلى تكساس وأقلعتُ عن الهيروين لمدة أربعة أشهر. ثم ذهبت إلى نيو أورلينز. في نيو أورلينز توجد طبقات من الأنقاض تتبع لفترات قديمة. على طول شارع بوربون تجد أنقاضاً تعود لسنوات العشرينيات. في المنطقة التي يتمازج فيها الحيّ الفرنسي مع مجمع ترفيهي مهمل، هناك أنقاض تعود إلى عهد أقدم: أوكار التشيلي، الفنادق المردّمة، الحانات القديمة ذات طاولات المشرب المصنوعة من خشب الماهوغاني، المباصق، والثريات المصنوعة من الكريستال. أنقاض تعود إلى العام ١٩٠٠.





هناك أشخاص في نيو أورلينز لم يخرجوا قطّ خارج حدود المدينة. اللهجة في نيو أورلينز مماثلة تماماً للهجة بروكلين. الحيّ الفرنسيّ مزدحم دائماً. سياح، عسكريون، بحارة تجار، مقامرون، منحرفون، متشردون وهاربون من القانون من كل دول الاتحاد. الناس يهيمون على وجوههم، منقطعون، بلا هدف، ومعظمهم يبدون متجهمين وعدائيين على نحو لا يفهم. هذا هو المكان الذي يمكنك أن تستمتع فيه. حتى المجرمون يأتون إلى هنا للهدوء والاسترخاء.

لكن نسيجاً معقداً من التوترات، مثل المتاهات الكهربائية التي يبتكرها علماء النفس بهدف إقلاق الجهاز العصبي عند الفئران البيضاء والخنازير الغينية، يُبقي طالبي المتع التعساء في حالة من التيقظ الناقص. أوّلاً، نيو أورلينز مدينة صاخبة جداً. السائقون يوجّهون أنفسهم إلى حدّ كبير باستخدام أبواق سياراتهم، مثل الخفافيش. السكان عابسون. السكان المؤقتون متنوعون ومنقطعون، بحيث لا يمكنك أن تتوقع أبداً سلوك أي شخص.

كانت نيو أورلينز مدينة غريبة في نظري، ولم أملك أي وسيلة أتواصل من خلالها مع تاجر محليّ. عندما مشيت في جميع أنحاء المدينة، رصدت عدة أحياء للهيروين: سانت تشارلز وبويدراس، المنطقة التي تحيط بالدوار وأعلاه، كانال وإكستشينج بلايس. لا أحدد منطقة الهيروين من خلال شكلها وإنما من خلال الإحساس، تشبه العملية إلى حدّ ما عثور مستكشف على مجمع مياه غير بادٍ للعين. أسيرُ في طريقي، وفجأة يتحرك ويتشنّج الهيروين الموجود في خلايا جسدي مثل عصا الساحر: «الهيروين هنا!».





لم ألتق بأحد، وعدا عن ذلك، أردت أن أبقى بعيداً عن الهيروين، أو على الأقل هكذا ظننت.

* * *

ذات ليلة، تواجدتُ في حانة «فرانك»، وهي حانة قريبة من اكستشينج بلايس، شربت الروم والكولا. كان مكاناً مشبوهاً: بحارة وعمال شحن وتفريغ، مثليّون، تجار لعبة البوكر عملوا كل ليلة في مكان مجاور، وآخرون لا يمكن تصنيفهم. وقف بجانبي رجلٌ في منتصف العمر طويل الوجه، نحيل، وأشيب الشعر. سألته إذا كان بإمكاني دعوته لشرب البيرة.

ـ قال: «كان بودّي، ولكن للأسف... للأسف وضعي لا يسمح بالردّ بالمثل». من الواضح أَنّ الرجل اعتاش من عمل بدنيّ، ومتثقف ذاتياً ومملّ بشكل فظيع منذ اللحظة التي عرّفك بأنّك «رجل مثقف».

طلبت بيرَتين، وحكى لي كيف اعتاد على الرّد بالمثل.

ـ قال: «هل يمكننا أن نجد طاولة نتداول عليها وضع العالم ومعنى الحياة دون أن يزعجونا؟».

أخذنا البيرة ووجدنا طاولة. حضّرت ذريعة كي أغادر.

ـ قال الرجل على نحو مباغت: «أعرف مثلاً أنك معنيّ بالمخدرات».

ـ «كيف يمكنك أن تعرف ذلك؟» سألت.

ـ «أعرف» قال مبتسماً. «أعرف أنك هنا لتتحرّى أمر المخدرات. لقد فعلت أنا نفسي الكثير في هذا المجال. جئت إلى هنا خمسين مرة مع





الإف.بي.أي لأخبرهم بما أعرفه. أنت تعلم، بطبيعة الحال، كيف ترتبط المخدرات بالشيوعية. قبل عام أبحرت في سفينة لشركة سي أند أي. كان الخط تحت السيطرة الشيوعية. وكان رئيس المهندسين منهم. عرفته على الفور. دخن الغليون الذي أشعله بولاعة سجائر. استخدم الولاعة كي يعطي إشارات». أراني كيف يشعل المهندس غليونه بولاعة سجائر، وصار يغطي الولاعة ويكشفها ليعطي الإشارات من خلالها. «نعم، كان متمرساً».

ـ «يعطي إشارات لمن؟».

ـ «لا أعرف بالضبط. كانت هناك طائرة تعقبتنا لبعض الوقت. سمعت صوت الطائرة كلّما خرج الرجل ليشعل الغليون. اسمح لي أن أقول لك شيئاً قد يوفر عليك الكثير من الوقت. المكان الذي يمكنكم أن تبحثوا فيه عن المعلومات التي تريدونها هو فندق «فرونتير». الأشخاص المسؤولون عن فندق «فرونتير» في هذه المدينة هم أصحاب السيادة على فندق «ستانديش» في فيلاديلفيا. يتعاطون المخدرات، وعلى صلة بالشيوعية».

ـ «ألا يعرضك هذا الكلام للخطر؟ أنت لا تعرف من أكون. لنفترض أنّي في الجانب الآخر؟».

ـ قال: «أنا أعرف مع من أتحدث، لو لم أعرف، لما كنت هنا. لكنتُ ميتاً. من بين جميع الناس في هذه الحانة اخترتك أنت، أليس كذلك؟».

ـ «نعم، ولكن لماذا؟».

ـ قال: «شيء ما يقول لي ماذا أفعل». أراني ميدالية دينيّة وضعها حول رقبته. «هذا الشيء أنقذني منذ زمن ـ لولاه ـ لكنت ميتاً برصاصة أو بسكين».





ـ «لماذا تشعر بالقلق إزاء المخدرات؟».

ـ «لأنّي لا أحب ما يفعله للناس. كان لي زميل بحار تعاطى المخدرات».

ـ قلت: «قل لي، ما هي بالضبط العلاقة بين المخدرات والشيوعية؟».

ـ «أنت تعرف الجواب على ذلك أفضل مني. أرى أنك تحاول أن تكشف مدى معرفتي. حسناً. نفس الأشخاص الذين تجدهم في مجال المخدرات تجدهم في الجانب الشيوعي. الآن هم يسيطرون على معظم أمريكا. أنا بحار. أبحر منذ عشرين عاماً. من يحصل على فرصة عمل في اتّحاد البحريّة القوميّ؟ أمريكيّون بيض من أمثالي وأمثالك؟ كلا. الإيطاليون والإسبانيون والزنوج. لماذا؟ لأن الاتحاد يسيطر على حمولة السفن، والشيوعيون يسيطرون على الاتحاد».

ـ قلت: «اسمع، إذا احتجتني سأكون في المنطقة» ونهضت لكي أنصرف.

* * *

في الحيّ الفرنسيّ هناك العديد من حانات المثليّين وفي الليالي تعجّ بالبشر إلى حدّ يُطرَح فيه المثليّون خارج الحانة. الغرفة المليئة بالمثليين ترهبني. يتحرّكون مثل دمى بخيوط غير مرئيّة، يخضعون لنشاط بشع ينفي كلّ ما هو حيويّ وعفويّ. الإنسان الحيّ غادر هذه الأجساد منذ زمن. لكن عندما رحل الساكن الأصليّ، شيءٌ ما حلّ مكانه. المثليّون أشبه بدمى ساحرٍ دخلت البطن وسيطرت على الساحر. تجلس الدمية متيبّسة الوجه في حانة المثليين، تعبّ البيرة وتثرثر بلا سيطرة.





أحياناً، تجد أشخاصاً طبيعيّين في حانة مثليّين، ولكن من يحدّد جوّ هذه الأماكن هم المثليّون، وعندما أدخل حانة المثليين هذه، أصاب بالاكتئاب المتواصل. بعد أسبوعي الأول في المدينة الجديدة، لا أعود أحتمل هذه الأماكن، فأتحول إلى مكان آخر، عادة ما يكون حانة في مجمع ترفيهي مهمل في المدينة، أو بجانبه.

لكنّي أعود بين الحين والآخر. ذات ليلة، كنت في حالة سكر مغيّبة في حانة «فرانك» وقصدتُ حانة للمثليين. لا بدّ أنّي شربت أكثر من اللازم لأنّ فترات من الزمن قد سقطت. لاح الضوء في الخارج وساد الحانة هدوء فجائيّ. هدوء نادراً ما يسود في حانات المثليين. بدا أنّ معظم المثليين قد غادروا المكان. اتّكأتُ على طاولة المشرب وأمامي بيرة لم أكن أرغب بها. تلاشت الضوضاء مثل الدخان، ورأيتُ فتى أحمر الشعر يقف على بعد مترٍ واحد منّي ينظر إليّ.

لم ينظر نظرة مثليّ، فسألته: «كيف الحال؟» أو شيئاً من هذا القبيل.

ـ قال: «هل تريد أن تضاجعني؟».

ـ قلت: «حسناً، هيّا نخرج».

ونحن نهمّ بالخروج، أمسك بزجاجة البيرة ودسّها تحت معطفه. في الخارج، لاح ضوء النهار مع شروق الشمس. ترنّحنا عبر الحيّ الفرنسيّ وتبادلنا زجاجة البيرة. قادنا إلى اتجاه الفندق الذي يقيم فيه، على حدّ قوله. شعرت ببطني يصلبّ، كأني على وشك تعاطي حقنة هيروين بعد انقطاع طويل. كان عليّ أن أكون يقظاً أكثر، بالطبع، ولكن لم أنجح يوماً في الربط بين اليقظة والجنس. طيلة سيرنا، تحدث بصوت جنوبي مثير بلهجة لم تكن لهجة نيو أورلينز، وفجراً أيضاً بدا بمظهر جيد.





وصلنا إلى الفندق، وباعني كلاماً حول سبب ضرورة دخوله هو أولاً لوحده. سحبت بعض الأوراق النقديّة من جيبي. نظر إليها وقال:

ـ «من الأفضل أن تعطيني الورقة من فئة العشرة».

أعطيته. دخل الفندق وخرج على الفور.

ـ «لا غرف هناك. سنجرّب فندق سافوي».

تواجد فندق سافوي في الجانب الآخر من الشارع.

ـ قال: «انتظر هنا».

انتظرت زهاء ساعة. ثمّ تبادرت إلى ذهني مشكلة الفندق الأول. لم يكن فيه باب خروج خلفيّ أو جانبيّ. عدتُ إلى شقّتي وأخذتُ مسدّسي. انتظرتُ في منطقة «سافوي» وبحثت عن الفتى في أرجاء الحيّ الفرنسيّ. ظهراً، شعرتُ بالجوع، تناولتُ طبقاً من المحار مع كأس بيرة، وفجأةً شعرتُ بالتعب عندما خرجتُ من المطعم لدرجة أنّ ساقيّ وقعتا وكأنّ أحدهم ضربني خلف الركبتين.

استقلّيت سيارة أجرة كي أصل إلى المنزل وسقطت في السرير دون أن أخلع حذائي. استيقظت زهاء السادسة مساء، وتوجهت إلى حانة «فرانك». بعد ثلاث بيرات سريعة شعرت بتحسّن.

كان هناك رجل يقف بجانب الصندوق الموسيقي ولاحظت نظراته عدّة مرّات. نظر إليّ وكأنّه يعرفني، مثل مثليّ ينظر إلى مثليّ. بدا مثل إصيص مصنوع من التيرا كوتا يُزرع فيه الحشيش. وجه ريفيّ يتميّز بحدس وغباء ودهاء وقسوة ريفيّة.

الصندوق الموسيقي لم يعمل. اتجهت نحوه وسألته عن المشكلة.





قال إنه لا يعرف. دعوته لتناول مشروب فطلب الكولا. قال لي إن اسمه بات. قلت له إنّي أتيت مؤخراً من الحدود المكسيكيّة.

ـ قال: «أودّ أن أسافر إلى المكسيك. لكي أجلب بعض الأشياء من هناك».

ـ قلت: «الحدود إشكاليّة جداً».

ـ قال: «أرجو ألا تشعر بالإهانة مما سأقوله لك، لكنك تبدو كشخص يتعاطى».

ـ «أنا بالطبع أتعاطى».

ـ سألني: «هل تريد أن تشتري؟ سأشتري شيئاً خلال دقائق. كنت أحاول أن أرتّب أمر المال. إذا اشتريت كبسولة من أجلي، يمكنني أن أشتري من أجلك».

وافقت.

خرجنا ومررنا بمبنى اتّحاد البحريّة القومي في الركن. قال: «انتظر هنا دقيقة» واختفى داخل الحانة. توقّعت بشكل ما أن ينصب عليّ بدولاراتي الأربعة، لكنه عاد خلال دقائق.

ـ قال: «حسناً، اشتريت».

اقترحت عليه أن نذهب إلى شقّتي ونحقن. عدنا إلى غرفتي وأخرجت عدّة الحقن التي لم أستخدمها منذ خمسة أشهر.

ـ قال محذراً: «إن لم تكن تتعاطى على الدوام، من الأفضل أن تتناول هذه المادة ببطء، هي مادة قويّة جداً».

قست ثلثي كبسولة.

ـ قال: «نصف كبسولة كثير. أقول لك إنّها مادة قوية».





ـ قلت: «ستسير الأمور على ما يرام».

لكن عندما سحبت الحقنة من الوريد عرفت أنّ الأمر ليس على ما يرام. شعرت بضربة خفيفة في القلب. بدأ وجه بات يشحب، وتمدد اللون الأسود في وجهه. شعرت بعينيّ تنقلبان.

استيقظت بعد ساعات. رحل بات. استلقيت في السرير. كانت ياقة قميصي مفكوكة. حاولت النهوض لكنني وقعت على ركبتي. شعرت بدوار وألم في رأسي. فقدت عشرة دولارات من جيب السروال الصغير. أعتقد أنّه ظنّ أنّي لا أحتاجها أكثر.

بعد مضي أيام قابلت بات في نفس الحانة.

ـ قال: «يا إلهي، خلتك ستموت! فككت ياقة قميصك ووضعت ثلجاً على رقبتك. كان لونك أزرق. ثم قلت في نفسي، "يا إلهي، هذا الرجل يحتضر!" سأهرب من هنا!».

بعد أسبوع كنت رجلاً مدمناً. سألت بات عن احتمالات البيع في نيو أورلينز.

ـ قال: «صعب. هذه المدينة تعجّ بالواشين».

* * *

وهكذا انجرفت وراء بات. عزفت عن الشرب، عزفت عن الخروج ليلاً، ووقعت في برنامج روتيني: تعاطيت كبسولة الهيروين ثلاث مرات يومياً، وكان عليّ أن أعبّئ ما بينها من ساعات. عادةً ما أمضيتُ الوقت في الرسم وفي العمل داخل المنزل. في العمل البدنيّ يمرّ الوقت بسرعة. وبالطبع، عمليّة الشراء استهلكت منّي وقتاً طويلاً.

في أوّل مرّة وصلت إلى نيو أورلينز، كان التاجر الرئيسيّ ـ أو





«الرجل» كما كانوا يسمّونه، يدعى بِلو. سمي بهذا الاسم لصفرة بشرة وجهه الذي بدا مريضاً. كان نحيلاً وقصيراً القامة ويعرج. جلس في الحانة القريبة من مبنى اتحاد البحارة، ومن وقت لآخر طلب البيرة ليبرر الساعات التي أمضاها طيلة النهار في الحانة. وقتها، أطلقوا سراحَه بكفالة، وعندما قُدّم للمحاكمة في النهاية، حكم عليه بالسجن لمدة عامين.

ثم تلت فترة من الفوضى. كان من الصعب حينها العثور على المادّة. أحياناً قضيتُ ست أو ثماني ساعات أتجول في السيارة مع بات، ونحن نبحث عن أشخاص قد تتوفّر لديهم المادة أو أنهم ينتظرون الحصول عليها. أخيراً التقى بات بتاجر جملة باع الكبسولة بدولار ونصف، امتلك ما لا يقل عن عشرين كبسولة. كان اسمه جو براندون، وكان واحداً من التجار القلائل الذي صادفتهم في حياتي ولم يتعاطوا.

بدأنا، أنا وبات، نبيع بشكل محدود، ما يكفي لنموّل حاجتنا. بعنا فقط لأشخاص عرفهم بات جيداً ووثق فيهم. كان دوبري أفضل زبائننا. عملَ موزّع أوراق اللعب في مقمرة، وتوفّر معه المال على الدوام. لكنّه كان مريضاً بالهيروين، ولم يتوقّف عن سرقة المال من الخزينة. في النهاية فقد عمله.

عمل دون، وهو صديق قديم لبات، في البلديّة. عمل مراقباً على شيء ما، لكنه كان مريضاً نصف الوقت ولم يعمل. لم يتوفّر لديه المال لأكثر من كبسولة، ومعظم أمواله تلقاها من أخته. قال لي بات إنّ دون مريض بالسرطان.

ـ قلت: «إذاً، أحسبه سيموت قريباً».

وهذا ما حصل. مرض، تقيّأ لمدة أسبوع، ومات.





«ويلي الصودا» امتلك شاحنة لتوزيع الصودا. هذا العمل وفّر له كبسوليتن في اليوم، لكنّه كتاجر صودا لم يكن شخصاً صاحب مبادرة. كان شخصاً نحيفاً، أحمر الشعر، دمثاً، ممن يقال عنهم إنّهم لا يؤذون.

ـ قال بات: «إنه خجول. خجول وغبيّ».

وكان هناك آخرون ممّن حضروا ليدخّنوا «شحطة». أحدهم كان يدعى «وايتي» ـ لم أفهم السبب، لأنّه كان فاتح البشرة ـ رجل سمين، غبيّ، عمل نادلاً في أحد الفنادق الكبرى. وفق حساباته، كلّما دفع لقاء كبسولة، حقّ له أن يقيّد واحدة على الحساب. في إحدى المرات، بعد أن رفض بات طلبه، هرع نحو الباب غاضباً ولوّح بنيكل.

ـ قال: «أترون هذا النيكل؟ ستندمون على رفضكم طلبي. سأتّصل بـ«الجماعة» ـ وسأحكي لهم كلّ شيء».

أخبرت بات بأنّه علينا أن نتوقّف عن البيع لوايتي.

ـ قال بات: «صحيح، لكنه يعرف أين أسكن. علينا أن نجد شقة أخرى».

شخصٌ عرضيّ آخر هو لوني القوّاد، الذي نشأ وترعرع في بيت الدعارة الذي أدارته والدته. حاول لوني ألّا يتعاطى في أوقات متقاربة، حتى لا يتحوّل إلى مدمن. تذمر دائماً من عدم تحقيقه أرباحاً حتى الآن، كان عليه أن يستثمر الكثير من المال في غرف الفنادق، والشرطة لا تتركه في حاله.

ـ قال: «هل تفهمني؟ لا يوجد أي ربح».

كان لوني قواداً نظيفاً. كان نحيلاً وعصبياً. لم يقوَ على الجلوس بهدوء أو السكوت. عندما تكلّم، حرّك يديه النحيفتين اللتين كساهما





الشّعر الطويل الدهنيّ الأسود. من مجرّد النظر إليه، أمكنك أن تعرف أنّ له قضيباً كبيراً. هكذا هم القوادون. كان لوني مولعاً بالملبس وقاد سيّارة بويك سقفها متحرّك. لكنّه لم يتردّد في أن ينصب علينا بدَين قيمته دولاران سعر كبسولة.

بعد أن حقن لوني نفسه، أنزل كمّ قميصه الحريريّ المخطّط، أغلق الأزرار وقال: «اسمعوا يا رفاق، أعاني من نقص في السيولة. هل تمانعون بإضافة هذا على الحساب؟ أنتم تعلمون أنّي أسدّد».

كان بات ينظر إلى عينيه الصّغيرتين المحتقنتين. نظرة فلاحين عابسة ويهزّ رأسه قائلاً:

ـ «بربّك يا لوني، نحن ملزمون بالدفع مسبقاً لقاء هذه المادّة. كيف سترد لو جاء أحدهم إليك وضاجع إحدى فتياتك وطلب أن تضيفها على الحساب؟ أنت كالجميع. كلّ ما يعنيهم أن يحقنوا المادّة في الوريد. لديّ مكان رائعٌ يمكن للناس أن يأتوا ويحقنوا فيه، ومن يراعيني؟ كلّ ما يهمّهم أن يحقنوا المادّة في الوريد».

ـ «حسناً، اسمع يا بات، لا أريد أن أنصب عليك. إليك دولار والباقي سأحضره بعد ظهر هذا اليوم، أوكي؟».

تناول بات الدولار ووضعه في جيبه دون أن يقول شيئاً. زمّ شفتيه مستهجناً.

حضر ويلي الصّودا في العاشرة صباحاً أثناء دوام عمله، أخذ كبسولة واشترى واحدة أخرى للّيل. وصل دوبري زهاء الثانية عشرة وكان قد أنهى عمله. عمل في ورديّة ليليّة. حضر الآخرون متى أرادوا.

خرج جو براندون، تاجرنا، من السجن بكفالة. وجّهت إليه محكمة





لويزيانا تهمة حيازة الهيروين، وهي جناية بموجب قانون ولاية لويزيانا. استندت القضيّة المرفوعة ضدّ براندون إلى آثار المادّة ـ بمعنى أنه نجح في التخلّص من الهيروين قبل أن يصل رجال الشرطة إلى المكان. لكنّه لم يغسل الجرّة التي حوت على الهيروين. رفضت المحكمة الفدراليّة أن تتولّى قضيّة تستند إلى «آثار مادّة»، فتولّتها الدولة. في لويزيانا، يُعتبر هذا إجراءً عادياً. إذا كانت القضيّة ضعيفة في نظر المحاكم الفدراليّة، انتقلت إلى محاكم الدّولة، هناك دائماً يكونون على استعداد للمحاكمة. توقّع براندون أن يفلت من القضيّة. كانت علاقاته جيّدة مع الدوائر السياسيّة، وعلى أيّة حال، كانت الدولة أمام قضيّة ضعيفة. لكنّ المدّعي العامّ أقحمَ سجلّ براندون، الذي شمل إدانة بالقتل، وحُكم عليه بالسّجن لمدّة عامين حتّى خمسة أعوام.

وجد بات تاجراً آخر على الفور، وواصلنا تجارتنا. بدأ شخص يُدعى جونكرز يبيع في اكستشينج عند زاوية كانال. تحول بعض زبائن بات إلى جونكرز. في الواقع، كانت بضاعة جونكرز أفضل حالاً، وكنت أنا نفسي في بعض الأحيان أشتري منه، أو من شريكه، رجل عجوز وأعور يدعى ريختر. بشكل ما، كان بات يكتشف الأمر دائماً ـ امتلك حدس أمّ متملّكة ـ فيعبس لمدّة يومين أو ثلاثة.

جونكرز وريختر لم يستمرّا في العمل طويلاً. بخصوص الهيروين، كانت منطقة اكستشينج زاوية كانال إحدى أكثر الأمكنة مراقبةً. اختفى جونكرز وريختر يوماً وقال بات:

ـ «قلت في حينها للوني "إذا أردتَ أن تشتري من جونكرز فافعل، لكن لا تعد إليّ بعدها وتتوقّع منّي أن أبيعك". الآن ماذا سأقول له لو





حضر إلى هنا. ووايتي كذلك. هو أيضاً اشترى من جونكرز». نظر إليّ بات نظرة عابسة وطويلة.

اعترضتني في الرواق يوماً امرأة كانت تدير فندق بات.

ـ قالت: «أريد أن أقول لكم أن تأخذوا حذركم. حضر رجال الشرطة إلى هنا البارحة وأجروا تفتيشاً شاملاً في غرفة بات. أوقفوا الرجل صاحب شاحنة الصودا. هو محتجز الآن».

شكرتها. بعدها بمدّة قصيرة وصل بات. أخبرني أن رجال الشرطة هجموا على ويلي الصّودا لحظة مغادرته الفندق. لم يضبطوا الهيروين معه، فاقتادوه إلى المخفر الثالث واحتجزوه «على ذمة التحقيق». بقي هناك لمدّة اثنتين وسبعين ساعة، وهي أطول مدّة يمكن حبس شخصٍ فيها دون توجيه تهمة إليه.

قام رجال الشرطة بتفتيش غرفة بات، لكنه خبّأ الهيروين في مكان في الرواق ولم يعثروا على شيء.

ـ قال بات: «قالوا لي "وصلتنا معلومات تفيد بأنك تدير هنا محطة منظمة. من الأفضل لك أن تنهي المصلحة لأننا في المرّة القادمة سنأتي وسنأخذك. هذا كلّ شيء"».

ـ قلت: «اسمع، من الأفضل لك أن تتوقف عن البيع إلّا لدوبري. لا ضرر من بيعه».

ـ قال بات: «دوبري أقيلَ من عمله، ويدين لي بعشرين دولاراً».

عدنا إلى البحث اليوميّ عن تاجرٍ يزوّدنا بالبضاعة. ثم اكتشفنا أن لوني هو «الرجل». هكذا كانت الأحوال في نيو أورلينز، لا يمكنك أن تعرف أبداً من سيكون «الرجل» التالي.





في تلك الفترة ضربت المدينة موجة حرب ضدّ المخدرات.

ـ قال رئيس الشرطة: «ستظلّ هذه الموجة طالما بقي مدمن واحد في المدينة». سنّت هيئة المشرّعين في الدولة قانوناً يعرّف الإدمان كجريمة. لم يفصّل هذا القانون أين أو متى أو ما المقصود بـ«إدمان».

بدأ رجال الشرطة بإيقاف مدمنين في الشارع وفحص آثار حقن في أذرعتهم. إذا وجدوا آثاراً، ضغطوا على المدمن ليوقّع على إفادة خطيّة يعترف فيها بحالته، حتّى يتمكّنوا من تقديم لائحة اتّهام ضدّه في إطار «قانون مدمني المخدرات». كي يشرعوا في تطبيق القانون، وعدوا المدمنين بالسجن مع وقف التنفيذ في حال أن اعترفوا بالتهمة. كان المدمنون يفتشون في أجسادهم عن أوردة ليحقنوا فيها، بعيداً عن الأذرع. إذا لم يجد رجال الشرطة أيّ آثار حقن، أطلقوا سراح الشخص. إذا وجدوا آثاراً، اعتقلوه لمدة اثنتين وسبعين ساعة، محاولين إجباره على التوقيع على الإفادة الخطيّة.

اختفى تاجر الجملة الذي وفّر البضاعة للوني، و«الرجل» الجديد كان شخصاً يدعى «أولد سام». خرج أولد سام للتو من سجن في أنغولا خيث قضى هناك اثني عشر عاماً. عمل أولد سام في منطقة تواجدت مباشرة فوق لي سيركِل، وهي أيضاً بقعة ساخنة في نيو أورلينز فيما يتعلّق بالهيروين، أو بأيّ شيء آخر.

* * *

يوماً، كنتُ مفلساً وغلّفت مسدّسي لآخذه معي إلى البلدة وأرهنه. عندما وصلت إلى غرفة بات، كان هناك شخصان. الأول رِد ماكيني، مدمن عاجز ومنكمش، الثاني كان بحّاراً تاجراً شاباً يُدعى كول. في





تلك الفترة، لم يكن كول مدمناً وأراد فقط أن يحصل على بعض الحشيش. كان حشّاشاً أصيلاً. قال لي إنّه غير قادر على الاستمتاع بشيء بدون الحشيش. عرفت أشخاصاً مثله. بالنسبة إليهم، الحشيش يسدّ بئر الخمر. لم يكونوا بحاجة ماسّة إليه من الناحية الجسدية، وإنّما لم يكن في مقدورهم قضاء وقت ممتع بدونه.

تصادف أنّه توفّرت لديّ بضع أوقيات من الحشيش في المنزل. وافق كول على شراء أربع كبسولات مقابل أوقيتين من الحشيش. ذهبنا إلى منزلي، وفحص كول الحشيش وقال إنّه جيّد. ثمّ خرجنا لنبحث عن مكان يبيع الهيروين.

قال رِد إنّه يعرف تاجراً في شارع جوليا. «من المفروض أنّه يتواجد هناك الآن».

قادَ بات سيارتي، وكان بات ينودُ من فرط النعاس. كنّا على العبّارة التي تربط بين ألجيرز، حيث سكنت، ونيو أورلينز. فجأةً رفع بات رأسه وفتح عينيه المحتقنتين.

ـ «هذا الحيّ ملغوم» قال بصوت عال.

ـ «لكن أين يمكننا أن نشتري؟» سأل ماكيني. «حتّى الذهاب إلى أولد سام يكون من هنا».

ـ «أقول لكم إنّ هذا الحيّ ملغوم»، كرّر بات. نظر من حوله بامتعاض، وكأنّه يرى شيئاً غير مألوف ومقيتاً.

في الواقع، لم يكن هناك مكان آخر نشتري منه. دون أن يتفوه بكلمة، بدأ بات يقود باتجاه لي سيركل. عندما وصل إلى شارع جوليا، قال ماكيني لكول:





ـ «أعطني النقود، قد نراه في كلّ لحظة. إنّه يتجول في المنطقة. هو تاجر مشّاء».

أعطى كول ماكيني ١٥ دولاراً. درنا المنطقة ثلاث دورات بطيئة، لكن ماكيني لم ير «الرجل».

ـ «حسناً، أظن أننا سنضطرّ إلى المحاولة مع أولد سام» قال ماكيني.

بدأنا نفتش عن أولد سام في المنطقة التي تعلو لي سيركل. لم يكن أولد سام متواجداً في المبنى القديم الذي أقام فيه. واصلنا القيادة ببطء. من وقت لآخر، رأى بات شخصاً مألوفاً وأوقف السيارة. لم ير أحد أولد سام. بعض الأشخاص الذين ناداهم بات، هزّوا أكتافهم مستهجنين وواصلوا سيرَهم.

ـ قال بات: «لن يخبرك هؤلاء بشيء. متى صنعوا معروفاً شعروا بالألم».

أوقفنا السيارة بالقرب من المبنى السكنيّ الذي سكن فيه أولد سام، واتّجه ماكيني إلى الزاوية ليشتري علبة سجائر. عاد وهو يعرج بسرعة وركب السيارة.

ـ قال: «شرطة. هيا نخرج من هنا».

بدأنا نبتعد، ومرّت سيارة الشرطة عنّا. رأينا الشرطيّ الذي قاد السيارة يستدير إلى الوراء وينظر إلى بات نظرة من يعرفه.

ـ قلت: «لقد عرفونا يا بات، امش».

لم يكن بات في حاجة لأن يقولوا له. ضغط على دواسة الوقود وعند المفترق الركنيّ اتجه إلى كوروندوليت. استدرتُ ناحية كول، الذي جلس على المقعد الخلفيّ.





ـ قلت له آمراً: «ارمِ الحشيش».

ـ قال كول: «انتظر. قد نفلت منهم».

ـ قلت: «هل جننت؟». صرخنا، أنا وبات وماكيني صرخنا بصوتٍ واحد: «ارمه!».

كنّا في كوروندوليت وفي طريقنا إلى داون تاون. رمى كيس الحشيش الذي انزلق تحت سيارة متوقّفة. اتّجه بات يميناً إلى شارعٍ ذي اتجاه واحد. من الاتجاه المعاكس، سافرت سيارة شرطة في اتجاهنا. خدعة شرطيين معروفة. علقنا. سمعت كول يصرخ: ـ «أوه يا إلهي، معي سيجارة حشيش أخرى!».

قفز رجال الشرطة من السيارة وأياديهم على المسدسات، لكنّهم لم يسحبوها. ركضوا باتجاه السيارة. أحدهم، وهو السائق الذي ميّز بات، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة. «من أين لك السيارة يا بات؟» سأله.

فتح الشرطيّ الآخر الباب الخلفيّ.

ـ قال: «فليخرج الجميع».

جلس ماكيني وكول على المقعد الخلفيّ. خرجا، وقام رجال الشرطة بتفتيشهم. الشرطيّ الّذي ميّز بات وجد في الحال سيجارة الحشيش في جيب قميص كول.

ـ قال: «هذا يكفيني لإيقافكم جميعاً». هذا الشرطي كان صاحب وجهٍ أحمر وأملس ولم يتوقّف عن الابتسام. وجد مسدّسي في صندوق التابلوه.





ـ قال: «هذا المسدّس صناعة أجنبيّة، هل سجّلته في دائرة ضرائب الإيرادات الداخليّة؟».

ـ قلت: «ظننتُ أنّ التسجيل ينطبق فقط على الأسلحة الأوتوماتيكيّة، التي تطلق أكثر من رصاصة مع كلّ ضغطة على الزناد».

ـ قال الشرطي المبتسم: «لا، الأمر ينطبق على جميع الأسلحة الأوتوماتيكية من صنع أجنبيّ. عرفتُ أنه كان مخطئاً، لكن لم تكن هناك فائدة من إخباره بذلك.

ـ نظر إلى ذراعيّ: «لقد حقنتَ كثيراً في هذا المكان حتّى إنّك على وشك أن تصابَ بتلوّث» وأشار إلى أثر الإبرة.

* * *

وصلت سيّارة الدوريّة ودخلنا جميعنا. أخذونا إلى مخفر الحيّ الثاني. نظر رجال الشرطة إلى رخص السيارة. لم يصدقوا أن السيارة ملكي. فتّشني أشخاص مختلفون ست مرّات على الأقل. في النهاية، أدخلونا إلى زنزانة واحدة طولها متران وعرضها متران ونصف المتر. ابتسم بات وفرك يديه.

ـ «سيكون هنا بعض الحشاشين الملاعين الذي يعانون من نوبات».

بعد ذلك بقليل حضر سجّان ونادى عليّ باسمي. نقلوني إلى غرفة صغيرة مفتوحة على غرفة استقبال المخفر. في الغرفة جلس محققان إلى طاولة. الأول كان طويل القامة وبديناً وله وجه ضفدع من الجنوب العميق. الآخر كان شرطياً أيرلندياً ممتلئ الجسم في منتصف العمر. بعض أسنانه الأمامية لم تكن موجودة، وبدا وكأنّ له شفة أرنبيّة. يمكن





لهذا النوع من رجال الشرطة أن يكون مجرماً بلطجياً بكلّ سهولة. لم يبدُ عليهِ شيء بيروقراطيّ.

كان واضحاً أنّ الشرطي صاحب وجه الضفدع هو المسؤول عن التحقيق. طلب مني الجلوس وجلست إلى الطاولة التي تقابله. دفع بعلبة سجائر وعيدان ثقاب إلى الطاولة.

ـ قال: «خذ سيجارة».

جلس الشرطيّ الأيرلنديّ عند طرف الطاولة عن يساري. كان قريباً ما يكفي ليلمسني دون أن ينهض. فحص الشرطيّ المسؤول رخص السيارة. كلّ ما أخذوه من جيوبي كان منثوراً على الطاولة أمامه: علبة النظارات، بطاقات هوية، المحفظة، المفاتيح، رسالة من صديق في نيويورك، كلّ شيء ما عدا المطواة، التي وضعها الشرطيّ صاحب الوجه الأملس في جيبه.

فجأة تذكرت شيئاً يتعلّق بتلك الرسالة. الصديق المتواجد في نيويورك الذي كتب الرسالة كان حشاشاً قديماً، وأحياناً باع الحشيش. كتبَ إليّ يسألني عن سعر الحشيش الجيّد في نيو أورلينز. سألت بات الذي قدّر سعر نصف كيلو بأربعين دولاراً تقريباً. في الرسالة التي كانت على الطاولة، تطرّق صديقي إلى الأربعين دولاراً وقال إنّه يريدُ بعضاً من المادة.

في البداية ظننت أنّهم لن ينتبهوا إلى الرسالة. كانوا من قسم السيارات المسروقة وبحثوا عن سيارة مسروقة. نظروا طيلة الوقت إلى الأوراق وطرحوا الأسئلة. القشّة التي قصمت ظهر البعير كانت لحظة لم أنجح في تذكّر التواريخ الدقيقة التي تتعلق بالسيارة. كانوا على وشك معاملتي بقسوة.





ـ أخيراً، قلت: «حسناً، أنها مجرد مسألة فحص. عندما تفحصون ستعرفون أني أقول الحقيقة وأن السيارة ملكي. ولكن لا توجد وسيلة أستطيع إقناعكم من خلالها إلا الكلام. بطبيعة الحال، إذا أردتم أن أقول إني سرقت السيارة، سأقول. ولكن عندما تفحصون، سوف تكتشفون أن السيارة ملكي».

«سنفحص، حسناً».

قام الشرطي صاحب وجه الضفدع بطيّ رخص السيارة بعناية ووضعها جانباً. التقط الظرف ونظر إلى عنوان وختم البريد. ثم سحب الرسالة منه. قرأ الرسالة بصمت.

ثم قرأ بصوت عال، وتجاوز مقاطع لم تكن فيها أي إشارة إلى الحشيش. أنزل الرسالة ونظر إلي.

ـ قال: «لا يقتصر الأمر على تعاطي الحشيش، أنت تبيعه أيضاً، وتخبئ كمية منه في مكان ما» نظر إلى الرسالة. «ما يقارب الأربعين كيلو غراماً». نظر إليّ. «من الأفضل أن تبرر نفسك».

لم أقل شيئاً.

ـ قال الشرطي الأيرلندي العجوز: «إنه مثل كل هؤلاء الرجال. لا يتحدثون. حتى تهشم ضلوعهم. عندها سيتحدثون، بسرور».

ـ قال الشرطيّ صاحب وجه الضفدع: «سنخرج لنفتّش منزلك، إذا وجدنا شيئاً، زوجتك أيضاً ستزج في السجن. لا نعرف ماذا سيكون مصير أولادك. لكنهم سيضطرون للذهاب إلى إحدى المؤسسات».

ـ «لماذا لا تقترح شيئاً على الرّجل؟» قال الشرطي الأيرلنديّ العجوز.





عرفتُ أنهم إذا قاموا بتفتيش المنزل سيعثرون على المادّة.

ـ قلت: «استدعوا الشرطة الفدرالية وسوف أدلكم على مكان المادة».

ـ «لكني أريد وعداً منكم أن أحاكَم في محكمة فدرالية، وأن لا تتورط زوجتي في القضية».

أومأ الشرطيّ صاحب وجه الضفدع برأسه وقال:

ـ «حسناً. قبلت الاقتراح». التفت إلى شريكه وقال: «اذهب واستدع روجرز».

وبعد بضع دقائق عاد كان الشرطي العجوز.

ـ «روجرز خارج المدينة ولن يعود إلا صباحاً، ووليامز مريض».

ـ «حسناً، استدع هاوزر».

خرجنا وركبنا السيارة. الشرطيّ العجوز هو من قاد، وفي الخلف جلس النقيب بجانبي.

ـ قال النقيب: «هذا هو المكان».

أوقف الشرطيّ العجوز السيارة وأطلق الصافرة. خرج رجل يحمل غليوناً من المنزل وجلس على المقعد الخلفي. نظر إلي ثم أشاح بنظره بعيداً، ونفث من غليونه. بدا شاباً في الظلام، ولكن عندما مررنا تحت ضوء الشارع رأيت وجهه مليئاً بالتجاعيد، وكانت الدوائر السوداء من تحت العينين. كان ذا وجه فتيّ أمريكيّ، من الوجوه التي شاخت لكنّها لم تنضج. افترضت أنه كان وكيلاً فدراليّاً.

بعد التدخين في صمتٍ لعدة دقائق، تحول الوكيل إلي وأخرج غليونه من فمه وسأل: «ممن تشتري الآن؟».





ـ قلت: «من الصعب العثور على شخص الآن فقد رحل معظمهم».

بدأ يسألني عن معارفي، وذكرت عدداً من الأشخاص الذين رحلوا بالفعل. بدا راضياً من المعلومات التي لا قيمة لها. إن لم تجب رجال الشرطة فإنّهم سيشرعون في ضربك. يريدون منك أن تعطيهم شيئاً، حتى لو لم يكن في مقدورهم أن يفعلوا شيئاً بالمعلومات التي قدمتها لهم.

سألني إن كان لدي سجل إجراميّ، فحكيت له حكاية الروشتات في نيويورك.

ـ «كم من الوقت فعلتم ذلك؟» سأل.

ـ «ولا مرّة. تُعتبر هذه جنحة في نيويورك. قانون الصحة العامة. قانون الصحة بند ٣٣٤، وفق ما أذكر».

ـ «إنّه على دراية»، قال الشرطي العجوز.

وضح النقيب للوكيل أنّه يبدو له أنّي أخاف تحديداً من محاكم لويزيانا، وأنّه توصّل معي إلى اتفاق بتحويل القضية إلى المحكمة الفدراليّة.

ـ قال الوكيل: «حسناً، هذه هي طريقة النقيب. كما تعامل تُعامَل». دخّن لفترة من الوقت.

كنّا على متن العبّارة إلى ألجيرز.

ـ قال في النهاية: «هناك طريقة سهلة وطريقة صعبة للقيام بالأشياء».

عندما وصلنا إلى منزل النقيب أمسك بي من حزام الظهر.

ـ سألني: «من يتواجد هنا غير زوجتك؟».

ـ قلت: «لا أحد».





بلغنا الباب، وأظهر الرجل صاحب الغليون لزوجتي بطاقته المعدنية وفتح الباب. أوصلتهم إلى نصف كيلو غرام من الحشيش كانت في المنزل، وإلى بضع كبسولات من الهيروين. لم تُرضِ النقيب. أراد أربعين كيلو غراماً من الحشيش.

- ظل يقول: «أنت لا تتعاون معنا للنهاية يا بيل. هيا. نحن نعاملك جيداً».

أبلغتهم أنّه لم يكن عندي أكثر من ذلك.

نظر إلي الرجل صاحب الغليون وقال: «نريد كلّ شيء».

لم تكن عيناه ترغب في شيء بحدّ ذاته. وقف تحت الضوء. لم يكن وجهه شائخاً فحسب، بل كان متحللاً. بدا مثل رجل عانى من مرض فتّاك.

- قلت له: «لقد حصلت على كلّ شيء».

نظر بعيداً بشكل غامض وبدأ يفتش في الأدراج والخزائن. وجد بعض الرسائل القديمة التي قرأها مقرفصاً. تساءلت لماذا لم يجلس على كرسي. بدا أنه لم يرغب في أن يشعر بالراحة أثناء قراءة رسائل شخص آخر. بدأ الشرطيان من قسم السيارات المسروقة يشعران بالملل. أخيراً، أخذوا الحشيش والكبسولات والمسدس الذي احتفظت به في المنزل وتأهبوا للرحيل.

- «الآن، هو ملك العم سام»، قال النقيب لزوجتي ونحن نغادر المنزل.

عادا إلى المخفر في الحيّ الثاني وحبسوني هذه المرة في زنزانة مختلفة. تواجد بات وماكيني في الزنزانة المجاورة. ناداني بات وسألني عمّا حدث.





ـ «الأمر جدّي»، قال بعد أن حكيت له.

أعطى بات أحد المحامين عشرة دولارات ليسرّحه في الصباح.

* * *

كنت في الزنزانة مع أربعة غرباء، ثلاثة منهم كانوا مدمنين. كان هناك مقعد واحد فقط، وكان محجوزاً، وبالتالي وقف بقيتنا أو انبطحوا على الأرض. انبطحت على الأرض بجانب رجل اسمه مكارثي. كنت قد رأيته في جميع أنحاء المدينة. مكث هناك زهاء اثنتين وسبعين ساعة. تأوه قليلاً من وقت لآخر. قال ذات مرة: «أليس هذا هو الجحيم؟».

يسير المدمن وفق زمن الهيروين. عندما ينقطع عنه الهيروين، يبدأ الوقت بالتباطؤ ثم يتوقف. لم يتبق له سوى أن يصمد وينتظر بدء زمن ما، ليس بزمن الهيروين. المدمن الذي يعاني من نوبة لا يمكنه أن يهرب من الزمن الخارجي، لا مكان يهرب إليه. يمكنه فقط الانتظار.

تحدث كول عن يوكوهاما. «الهيروين والكوكايين رائعان. عندما تحقن نفسك بهما يمكنك أن تشم رائحتهما».

أطلق مكارثي تنهيدة جوفاء وهو منبطح.

ـ قال: «يا رجل، لا تتحدث عن تلك الأشياء».

في صباح اليوم التالي، نقلونا إلى خط المتابعة. كان هناك شاب يعاني من الصرع يتقدمنا على المنصة. تحاذق رجال الشرطة وقتاً طويلاً على هذه الشخصية الدوسويّة.

ـ «منذ متى وأنت في نيو أورلينز؟».





ـ «منذ خمسة وثلاثين يوماً».

ـ «ماذا فعلت كلّ هذا الوقت؟».

ـ «مكثتُ في السجن ثلاثة وثلاثين يوماً».

ظنّوا أنّ الإجابة مضحكة وواصلوا الضحك لخمس دقائق تقريباً.

عندما جاء دورنا، قرأ الشرطي الذي كان أدار خط المتابعة ملابسات القضية.

ـ «كم مرة كنت هنا؟» سألوا بات.

ـ ضحك أحد رجال الشرطة وقال: «نحو أربعين مرة».

سألوا كل واحد منا عن عدد مرات اعتقاله وعن المدّة التي قضاها. عندما جاء دوري، سألوا كم من الوقت قضيت في السجن بتهمة الروشتات الطبية في نيويورك.

ـ قلت: «ولا مرّة. حاكموني مع وقف التنفيذ».

ـ «حسناً»، قال الشرطي المسؤول عن خط المتابعة. «هذا ما سيحدث معك هنا أيضاً».

فجأة سمعت صوت شخير وصراخ هائلين بجانب المنصة، وظننت للحظة أن رجال الشرطة يضربون الشاب المصروع. لكني عندما نزلت عن المنصة، رأيته تخبّط على الأرض في نوبة بينما ظل المحققون بجانبه يحاولون التحدث إليه. ذهب شخص ليستدعي للطبيب.

أعادونا إلى الزنزانة. كان هناك شرطي بدين، بدا أنه عرف بات، حضر ووقف عند الباب.

ـ قال: «هذا الشخص مريض نفسياً، يقول الآن خذوني إلى نقيبي. مريض. استدعيت الطبيب».





بعد ساعتين تقريباً، نقلونا إلى الدائرة حيث انتظرنا بضع ساعات. عند الظهر، وصل إلى المخفر الرجل صاحب الغليون ورجل آخر، وسافر بعضنا معهما إلى المبنى الفدرالي. كان الرجل الجديد شاباً وبديناً بعض الشيء. مضغ السيجار. كول، مكارثي، وأنا واثنان من الزنوج زُججنا إلى المقعد الخلفي. الرجل صاحب سيجار هو من قاد. أخرج السيجار من فمه والتفت إلي.

ـ «بم تعمل يا سيد لي؟» سأل بأدب، بلهجة رجل متعلّم.

ـ «في الزراعة»، أجبت.

ضحك الرجل صاحب الغليون.

ـ «الحشيش بين أسراب الذرة؟»، قال.

هز الرجل صاحب السيجار رأسه وقال:

ـ «كلا، فهو لا ينمو جيّداً بين الذرة. عليه أن ينمو لوحده». التفت إلى مكارثي الذي كان يتحدث من وراء كتفه. «سأسجنك في أنغولا».

ـ «لماذ يا سيّد مورتون؟» سأل مكارثي.

ـ «لأنك مدمن مخدرات منيك».

ـ «لست أنا يا سيّد مورتون».

ـ «ماذا عن كلّ علامات الحقن هذه؟».

ـ «أعاني من الزهري يا سيّد مورتون».

ـ «كل المدمنين يعانون من الزهري» قال مورتون. كان صوته بارداً، متعالياً، وعابثاً.





حاول صاحب الغليون بلا نجاح إضحاك أحد الزنوج. كان يدعى «كلاتش» لتشوّهٍ في يده.

ـ «هل أنت من هؤلاء المدمنين؟» سأل صاحب الغليون.

ـ «لا أدري عمّا تتحدّث» أجاب كلاتش. كان كلامه مباشراً. لم يتواقح. لم يكن كلاتش مدمناً وهذا ما قاله.

أوقفنا السيارة أمام المبنى الفدرالي واقتادونا إلى الطابق الرابع. هناك، انتظرنا في أحد المكاتب، واستجوبونا واحداً تلو الآخر في مكتب داخليّ.

عندما جاء دَوري، دخلت وجلس الرجل صاحب السيجار إلى الطاولة. أشار إليّ بالجلوس على الكرسيّ.

ـ قال: «اسمي السيّد مورتون. أنا وكيل مخدرات فدرالي. أترغب في الإفادة؟ كما تعلم، حقّك القانونيّ أن ترفض. طبعاً، إذا رفضت التوقيع على الإفادة، سيتطلّب مزيداً من الوقت حتى نتقدّم بلائحة اتهام ضدّك».

قلت إنّي سأوقع على الإفادة.

تواجد الرجل صاحب الغليون في الغرفة.

ـ «بيل ليس على ما يرام اليوم. ربّما حقنة هيروين صغيرة تساعده».

قلت «ربّما». بدأ يطرح أسئلة عليّ، بعضها سخيفة، لم أصدّق ما سمعته. بدا أنه لا يمتلك حدس المحقق. ولا فكرة لديه بشأن شيء ما ليس مهماً.

ـ «من هم مزّودوكم في تكساس؟».

ـ «لا أحد». كان ذلك صحيحاً.





ـ «هل تريد أن ترى زوجتك في السجن؟».

مسحت العرق عن وجهي بمنديل.

ـ «لا»، قلت.

ـ «حسناً، سوف تدخل السجن. إنها تستخدم هذا البنزيدرين. هذا أسوأ من الهيروين. هل أنت وزوجتك متزوجان قانونياً؟».

ـ «وفق القانون العام».

ـ «سألت هل أنت وزوجتك متزوجان قانونياً؟».

ـ «لا».

ـ «هل درست الطبّ النفسيّ؟».

ـ «ماذا؟».

ـ «سألت، هل درست الطبّ النفسيّ؟».

كان قد قرأ رسالة من صديق لي هو طبيب نفسانيّ. في الواقع، أخذ كلّ رسائلي القديمة بعد أن قام بتفتيش المنزل.

ـ «لا لم أدرس الطبّ النفسيّ. يمكن القول إنّها مجرّد هواية».

ـ «لديك بعض الهوايات الغريبة».

انحنى مورتون إلى الخلف في كرسيه وتثاءب.

فجأة طوى الرجل صاحب الغليون قبضته وضرب صدره.

ـ قال «أنا شرطي، هل تفهم؟». أينما أذهب أصادق رجال الشرطة. أنت تعمل في تجارة المخدرات. ومن المنطقي أنك تعرف أشخاصاً آخرين في مجال عملك. لا نتعامل مع أشخاص مثلك مرة واحدة في الشهر. نتعامل معهم بشكل يومي. لم تكن لوحدك في هذا المجال.





لديك علاقات في نيويورك، تكساس، وهنا في نيو أورلينز. من الواضح الآن أن لديك صفقة على وشك إتمامها».

ـ قال مورتون: «أعتقد أنه إذا لم يعطنا هذا المزارع المعلومات، سنجعله يزرع في أنغولا».

«ماذا عن شبكة السيارات المسروقة؟» سأل الرجل صاحب الغليون، أدار ظهره لي وسار في أرجاء الغرفة.

ـ «أي شبكة سيارات مسروقة؟» سألت متفاجئاً تماماً.

في وقت لاحق تذكرت الرسالة المكتوبة قبل خمس سنوات حيث تضمنت إشارة إلى سيارات مسروقة. واصل وواصل. مسح العرق عن جبينه وسار في كلّ أرجاء الغرفة. أخيراً، قطعه مورتون.

ـ قال: «كما أرى يا سيد لي، أنت على استعداد للاعتراف بذنبك، ولكنك لست مستعداً لتوريط أي شخص آخر، فهل هذا صحيح؟».

ـ «صحيح»، قلت.

حرّك سيجاره.

ـ «حسناً. هذا كلّ شيء في الوقت الحالي. كم شخصاً في الخارج؟» نادى.

دسّ أحد رجال الشّرطة رأسه في الباب.

ـ «حوالي خمسة».

حرّك مورتون رأسه بغضب.

ـ «لا وقت. عليّ أن أتواجد في المحكمة في الواحدة. أدخل الجميع».





دخل الآخرون ووقفوا في نصف دائرة أمام الطاولة. قلّب مورتون في رزمة أوراق. نظر إلى مكارثي وتحول إلى وكيل شاب له قصة شعر قصيرة.

ـ «هل وجدت معه شيئاً؟».

هز الوكيل رأسه وابتسم. رفع إحدى قدميه وسأل مكارثي:

ـ «هل ترى هذه القدم؟ سأحشرها في حنجرتك».

ـ «أنا لا أتعامل مع المخدرات يا سيّد مورتون لأنّي لا أريد أن أسجن».

ـ إذاً، ماذا فعلت هناك عند زاوية الشارع مع أولئك المدمنين؟».

ـ «مررت من هناك فقط. شربت بيرة ريغال يا سيد مورتون. أشرب الريغال متى استطعت. انظر هنا».

أخرج عدة بطاقات من جيبه وأراها للحاضرين مثل الساحر الذي يوشك على تنفيذ خدعة بطاقات. لم ينظر أحد إلى البطاقات. ـ «أعمل نادلاً، وها هي بطاقة النقابة. يمكنني أن أحصل على عمل في روزفلت في عطلة نهاية الأسبوع. يوجد هناك اجتماع. إذا أطلقتم سراحي، يمكنني أن أنجز صفقة رابحة».

ـ اتّجه إلى مورتون ومدّ يده. «أعطني عشرة سنتات يا سيد مورتون، أجرة السّفر».

ضرب مورتون عملة معدنية بكفّه.

ـ قال: «أخرج مؤخرتك السّوداء من هنا».

ـ «سنمسك بك في المرة القادمة»، صاح الوكلاء معاً، ولكن مكارثي كان قد خرج.

ضحك الوكيل الشاب صاحب قصة الشعر القصيرة.





ـ «أراهن أنه نزل على الدرج».

لملم مورتون أوراقه ودفع بها إلى حقيبة أوراق.

ـ قال: «أنا آسف. ولكن لا وقت لدي الآن لآخذ أقوالكم. عليّ الذهاب إلى المحكمة. يمكنني أن آخذها من البقيّة بعد ظهر اليوم».

ـ قال صاحب الغليون: «طلبت أن يرسلوا إليّ سيارة الدوريّة. سنقتادهم إلى مخفر الحيّ الثالث ونضعهم في السجن».

في المخفر، أدخلونا، أنا وكول إلى زنزانة واحدة. استلقيت على المقعد. عانيتُ من ألم قاسٍ في رئتيّ. يتباين الناس في تأثير نوبة الهيروين عليهم. البعض يعاني غالباً من التقيّؤ والإسهال. الأشخاص المصابون بالرّبو، أصحاب الصدر العميق الضيق، معرضون لنوبات عنيفة من العطاس، ودموع في العيون وسيلان في الأنف، وفي بعض الحالات تقلّصات في الشعب الهوائيّة تقطع النفس. في حالتي، أسوأ ما يمكن أن يحدث هو انخفاض في ضغط الدّم وبالتالي فقدان سوائل الجسم، والوهن الشديد، كما هو الحال عند الإصابة بصدمة. كأنّ طاقة الحياة توقفت بحيث اختنقت كلّ خلايا الجسم. شعرت، وأنا مستلقٍ على المقعد وكأنّي أتقلص إلى كومة من العظم.

تواجدنا في المخفر الثالث زهاء ثلاث ساعات، بعدها وضعونا في سيارة الدورية ولسبب ما أخذونا إلى السجن الإقليميّ. التقى بنا الرجل صاحب الغليون في السجن الإقليمي وأخذنا إلى المبنى الفدرالي.

بيروقراطي مجهول الهوية في منتصف العمر، قال لي إنّه مدير مكتب نيو أورلينز وسألني إن كنت أرغب في تقديم إفادة خطيّة.

ـ قلت «نعم. اكتب أنت، وسوف أوقع».





لم يكن وجهه فارغاً أو بلا تعابير. ببساطة لم يكن هناك. الشيء الوحيد الذي أتذكره من وجهه هو النظارات التي ارتداها. دعا كاتبة الاختزال واستعدّ لإملاء الأقوال. توجه إلى الرجل صاحب الغليون الذي جلس إلى طاولة هناك، وسأل إن كان بوده أن يضيف شيئاً على الأقوال.

ـ قال الرجل صاحب الغليون: «آه، لا، هذه هي كلّ الحكاية».

بدا أن البيروقراطيّ الرئيسيّ فكّر في شيء. قال: «انتظر». رافق الرجل صاحب الغليون إلى مكتب آخر. عادا بعد مرور دقائق وواصل البيروقراطيّ الإملاء. اعترفت في أقوالي بحيازة الحشيش والهيروين اللذين تمّ ضبطهما في منزلي.

سألني كيف حصلت على الهيروين.

قلت إنّي ذهبت إلى إكستشينج زاوية كانال واتّصلت بتاجر متجوّل.

ـ سأل: «وماذا فعلت بعد ذلك؟»

ـ «عدت إلى المنزل».

ـ «بسيارتك؟».

أدركتُ مقاصده، لكن لم تكن لدي الطاقة لأقول: «غيّرت رأيي ولا أريد الإدلاء بأقوالي». عدا عن ذلك، خفتُ من قضاء يوم آخر في نوبة في المخفر. ثم قلت: «نعم».

أخيراً وقّعت على إفادة خطيّة منفصلة، كُتب فيها أنّي أنوي الاعتراف بهذه التهم في المحكمة الفدراليّة. أعادوني إلى مخفر الحيّ الثاني. أكّد لي الوكلاء أنّ أوّل ما سأفعله صباحاً هو المثول أمام المحكمة.





ـ قال كول: «ستشعر بتحسّن في خمسة أيام. هذا الإحساس ستتجاوزه مع الوقت، أو بحقنة».

عرفت ذلك طبعاً. لن يقف أحد في حالة نوبة مكتوف الأيدي إلا إذا كان في السجن أو انقطع عنه إمداد الهيروين. سبب استحالة التوقف عن التعاطي هو أن النوبة تستمرّ ٥ ـ ٨ أيام. أن تستمرّ النوبة مدّة اثنتي عشرة ساعة فهذا أمر سهل، ومدة أربع وعشرين ساعة أمر ممكن. أمّا ثمانية أيام فهي مدة طويلة جداً.

استلقيتُ على المقعد الخشبيّ الضيّق وتقلّبت على الجانبين. كان جسدي مسلوخاً، موخوزاً، منتفخاً، اللحم الذي تجمد في الهيروين ذاب في الألم.

استدرت على بطني وقد زلقت ساق عن المقعد. تحركت إلى الأمام، وانزلقت حافة المقعد المدورة، المقعد الذي صقلته ونعّمته احتكاكات الأقمشة، على طول منفرجي. هذا الاتصال الزلق أدى إلى تدفق مفاجئ للدم إلى الأعضاء التناسلية. انفجر شرر أمام عيني، اهتزت ساقاي ـ نشوة رجل مشنوق انكسرت رقبته.

فتح السجان باب الزنزانة.

ـ قال: «محاميك هنا يا لي».

نظر إلي المحامي طويلاً ثم عرّف بنفسه. أوصوا زوجتي به، ولم أره في حياتي. قادنا السجان إلى غرفة كبيرة من فوق الزنازين، وفيها مقاعد.

ـ قال المحامي: «أستطيع أن أرى عدم رغبتك في الحديث الآن. نتحدث لاحقاً في التفاصيل. هل وقّعت على شيء؟».

رويت له حكاية الإفادة.





قال: «يفعلون ذلك ليضعوا يدهم على سيّارتك. أنت متهم في نظر الدولة. تحدّثت مع النيابة العامة الفدراليّة عبر الهاتف وسألتهم إن كانوا سيتولون القضية». قال لي المدعي العام:

ـ «قطعاً لا. نحن نتحدّث عن ضبط غير قانوني، ولن يرفع هذا المكتب أي دعوى». سكت ثم قال: «أعتقد أنّه بإمكاني أن أدبّر حقنة من أجلك في المستشفى. الضابط المناوب صديق عزيز. سأنزل وأتحدث معه».

أعادني السجان إلى الزنزانة. بعد مضي دقائق فتح الباب من جديد وقال:

ـ «هل تريد أن تذهب إلى المستشفى يا لي؟».

أخذني شرطيّان في سيارة الدوريّة إلى مستشفى «تشاريتي». الممرضة في مكتب الاستقبال أرادت أن تعرف مشكلتي.

ـ قال أحد الشرطيين: «حالة طارئة. سقط من مبنى».

ذهب الشرطيّ إلى مكان ما ثمّ عاد برفقة طبيب شاب ممتلئ الجسم وله شعر يميل إلى الحمرة ونظارات ذات إطار ذهبيّ. طرح الطبيب بعض الأسئلة ونظر إلى ذراعي. اقترب طبيب آخر ذو أنف طويل وذراعان مشعران، وأدلى برأيه.

ـ قال لزميله: «في النهاية يا دكتور هناك السؤال الأخلاقي. كان على هذا الرجل أن يفكّر في هذا قبل أن يتعاطى المخدرات».

ـ «نعم، السؤال الأخلاقي قائم، ولكن هناك أيضاً السؤال الجسمانيّ. هذا الرجل مريض». اتجه صوب الممرضة وطلب نصف حبة من المورفين.





بينما كانت سيارة الدوريّة تصطدم بالشارع في طريق العودة إلى المخفر، شعرت بالمورفين يتفشّى في خلايا جسمي. تحرك بطني وتقرقر. عندما تعاني من نوبة شديدة، تثير الحقنة دائماً حركة الأمعاء. عادت عضلاتي إلى قوتها الطبيعيّة. كنت في حالة جوع ونعاس.

* * *

زهاء الحادية عشرة صباح اليوم التالي وصل الضّامن ليأخذ توقيعي. مثل كلّ الضامنين بدا محنطاً، كما لو حقنوه بالبارافين تحت الجلد. وصل محاميّ الخاصّ، تايغ، عند الثانية عشرة تقريباً ليطلق سراحي. كان قد قام من أجلي بالترتيبات المطلوبة حتى أتمكن من السفر مباشرة إلى مصحة للعلاج. قال لي إن العلاج ضروريّ من الناحية القانونيّة. سافرنا في سيّارة شرطة مع اثنين من رجالها. كان هذا جزءاً من خطّة المحامي، وقد لعب فيها المحققان دور شاهدَين محتملين.

عندما توقفنا أمام المصحّة، سحب المحامي بعض الأوراق النقديّة من جيبه واتّجه إلى أحد رجال الشرطة.

ـ قال: «هل يمكنك أن تضع هذه على الحصان من أجلي؟».

لمعت عينا الشرطيّ الضفدعيّتين بالسخط. لم يتحرّك ليأخذ النقود.

ـ «لن أضع نقوداً على أيّ حصان».

ضحك المحامي ورمى النقود على مقعد السيارة. قال: «ماك سيفعل».

قلة البراعة الواضحة في إرشاء رجال الشرطة أمامي كانت متعمدة. عندما سألوه عن الأمر لاحقاً، قال: «هذا الفتى كان مريضاً جداً ولم يلاحظ شيئاً». فإذا تمّ استدعاء اثنين من رجال الشرطة كشهود سيقولون





إنه بدا في حالة سيئة. من جهة المحامي، فقد أراد الشهود ليشهدوا أني كنت في حالة سيئة عندما وقعت على الإفادة.

أحد الحراس أخذ ملابسي وانبطحت على سرير أنتظر الحقنة. حضرت زوجتي لرؤيتي وذكرت أن الإدارة لم تعرف شيئاً عن المدمنين والحشاشين.

ـ «عندما قلتُ لهم إنك مريض، قالوا: ما مشكلته؟ قلتُ لهم إنك مريض وتحتاج إلى حقنة مورفين، فقالوا: ظننا المسألة مجرد إدمان على الماريحوانا».

ـ قلت: «إدمان على الماريحوانا! ما هذا بحق الجحيم؟ اعرفي ماذا يدبّرون لي. أحتاج إلى علاج تدريجي. إذا لم يسمحوا بذلك، أخرجيني من هنا الآن».

عادت بعد وقت قصير وقالت لي إنها نجحت أخيراً في أن تصل إلى طبيب متفهم. كان طبيب المحامي، ولم يكن مرتبطاً بالمصحة.

ـ «أعرب عن دهشته عندما قلت له إنك لم تتلق شيئاً. قال إنه سيتصل على الفور بالمستشفى وسيهتم بأن يعتنوا بك».

بعد مضيّ دقائق حضرت ممرضة ومعها حقنة احتوت على الديميرول. الديميرول يساعد بعض الشيء، ولكنه في ما يتعلق بتخفيف آلام الهيروين، فهو أقل نجاعة من الكودئين. في ذلك المساء حضر طبيبي وفحصني. كان دمي سميكاً ومركّزاً بسبب فقدان السوائل في الجسم. خلال الساعات الثماني والأربعين التي كنت فيها بلا هيروين فقدت خمسة كيلوغرامات من وزني. تطلب الطبيب عشرين دقيقة لسحب أنبوبة من الدم لفحص الدم، لأنّ الدم السميك ظلّ متخثراً في الإبرة.





في التاسعة مساء، حصلت على حقنة أخرى من الديميرول. هذه الحقنة لم يكن لها تأثير. بشكل عام، اليوم الثالث للنوبة هو اليوم الأسوأ، بليله ونهاره. بعد اليوم الثالث، يبدأ المرض في الانحسار. شعرت بحرق بارد على سطح جسدي وكأن الجلد ملتهب. بدا كما لو أن النمل يزحف تحت الجلد.

يمكنك أن تنقطع عن أغلب أنواع الألم ـ الأسنان، العينين، والأعضاء التناسلية، ـ بحيث يصبح الألم شعوراً محايداً. لكن لا يمكن الهروب من ألم النوبة. نوبة الهيروين هي الجانب المعكوس لسطلة الهيروين. تكمن سطلة الهيروين في ضرورة حيازته. يتصرّف المدمنون وفق المدة الزمنية للهيروين ووفق عملية الأيض. هم يخضعون لمناخ الهيروين. الهيروين يسبب لهم الدفء والقشعريرة. سطلة الهيروين منوطة بظروف الهيروين. لا يمكن الهروب من سطلة الهيروين، كما لا يمكن الهروب من سطلة الهيروين بعد الحقنة.

كنت أضعف من أن أنهض من السرير. لم أتمكن من الاستلقاء بهدوء. عندما تعاني من نوبة، يبدو كلّ خط عمل أو تراخ شيئاً لا يطاق. قد يموت المرء لأنه ببساطة غير قادر على البقاء داخل جسده.

* * *

في السادسة صباحاً تلقيت حقنة أخرى، أحدثت بعض التأثير. كما علمت في وقت لاحق، لم تكن حقنة ديميرول. حتى إنني تمكّنت من تناول القليل من الخبز المحمص والقهوة.

عندما حضرت زوجتي لرؤيتي في وقت لاحق من نفس اليوم، قالت لي إنهم يجربون علاجاً جديداً لحالتي. بدأ العلاج بحقنة الصباح.





ـ «لاحظت فرقاً. ظننت أن حقنة الصباح كانت مورفين».

ـ «تحدثت إلى الدكتور مور عبر الهاتف. قال لي إن هذا دواء سحري بحثوا عنه لعلاج الإدمان على المخدرات. بحيث يخفف من أعراض الانسحاب دون أن يؤدي إلى إدمان جديد. إنه ليس مادة مخدرة على الإطلاق. من مضادات الهستامين. أعتقد أنه قال إن اسمه «تيفورين».

ـ «يبدو أن أعراض الانسحاب هي رد فعل حساسي».

ـ «هذا ما يقوله الدكتور مور».

الطبيب الذي أوصى بهذا العلاج كان طبيب محاميّ الخاصّ. لم يكن على صلة بالمصحة ولم يكن طبيباً نفسانياً. خلال يومين أمكنني أن أتناول وجبة كاملة. استمر تأثير مضادات الهيستامين ٣ ـ ٥ ساعات ثم عادت النوبة. مادة الحقن شابهت الهيروين.

عندما نهضت وتحركت، جاء طبيب نفسي لمقابلتي. كان طويل القامة جداً. كان ذا سيقان طويلة وجسم ثقيل يشبه الكمثرى، طرفها الحاد إلى أعلى. ابتسم عندما تحدث وكان صوته متذمراً. لم يكن مخنثاً. ببساطة لم يكن فيه شيء يجعل منه رجلاً. هو الدكتور فريدريكس، الطبيب النفساني الرئيسي في المستشفى.

طرح السؤال الاعتيادي الذي يطرحه الجميع:

ـ «لماذا تظن أنك تحتاج إلى المخدرات يا سيّد لي؟».

عندما تسمع هذا السؤال، كن على يقين من أن الرجل الذي يسأل لا يعرف شيئاً عن الهيروين.





ـ «أنا أحتاجها لأنهض من السرير في الصباح، لأحلق وأتناول وجبة الفطور».

ـ «أقصد نفسياً».

هززت كتفي. قلت في نفسي إنّه من الأفضل أن أعطيه تشخيصه، كي يغادر. «إنه إحساس بالنشوة».

الهيروين ليس إحساساً بالنشوة. بالنسبة إلى المتعاطي، نقطة الهيروين الأساسيّة أنّه يؤدي إلى الإدمان. لا أحد يعرف ما هو الهيروين إلا إذا جرّب نوباته.

أومأ الطبيب. **شخصية سيكوباتية**. وقف. فجأة حرك وجهه بابتسامة كان القصد الواضح منها أن تعكس التفاهم وتبدد تحفظي. سيطرت الابتسامة على وجهه وانتهت إلى نظرة شزراء مجنونة. انحنى إلى الأمام وقرّب ابتسامته إلى وجهي.

ـ سألني: «هل ترضيك حياتك الجنسيّة؟ هل العلاقة بينك وبين زوجتك مُرضية؟

ـ قلت له: «أوه نعم، عندما لا أتعاطى الهيروين».

انتصب. لم يعجبه جوابي على الإطلاق.

ـ «حسناً، سأراك ثانية».

احمر خجلاً واندفع برعونة نحو الباب. عرفت منذ أن دخل الغرفة أنّه مزيّف ـ كان واضحاً أنّه يتظاهر بالثقة أمام نفسه وأمام الآخرين ـ لكنّي توقّعت سلوكاً أعمق وأكثر صرامة.

قال الطبيب لزوجتي إن تشخيصي كان سيئاً للغاية. موقفي من





الهيروين كان: «ماذا في ذلك؟»، وكان من المتوقع أن أعود إلى الإدمان، لأن العوامل النفسية المحددة لم تتغير.

لا يستطيع مساعدتي إلا إذا وافقت على التعاون. إذا وافقت، سيكون على استعداد لتفكيك نفسيتي وتركيبها من جديد في ثمانية أيام.

* * *

كان المرضى الآخرون مغفلين وبؤساء. لم يكن هناك مدمن غيري. المريض الوحيد الواعي في قسمي، كان سكيراً وصل مع كسر في فكّه وإصابات أخرى في وجهه. أخبرني أن جميع المستشفيات العامّة رفضته. في مستشفى «تشاريتي» قالوا له: «انصرف من هنا. نزفت دماً على الأرض». فجاء إلى هذه المصحة حيث كان في السابق، وعرفوا أنه سيدفع الحساب.

أما البقيّة فكانوا شلّة من المتشرّدين الأصفار. من الصنف الذي يحبّه الأطباء النفسانيّون. صنف يمكن للدكتور فريدريكس أن يقنعه. تواجد هناك رجل صغير شاحب ونحيل وفاقد للدم، شاحب، يكاد يكون شفافاً. بدا مثل سحلية باردة وضعيفة. اشتكى هذا الشخص من مشاكل في الأعصاب، وقضى معظم نهاره يصول ويجول في الأروقة ويقول:

- «يا الله، يا الله، أنا حتى لا أشعر أني بشر».

لم يمتلك تركيز الطاقة المطلوب ليصمد بنفسه، وكاد جسده يتفكّك إلى أجزاء.

كان معظم المرضى بالغين. نظروا إليك نظرة حيرة واستياء وحماقة كنظرة بقرة تحتضر. قلّة منهم لم يغادروا غرفهم قطّ. وكان هناك شاب





منفصم الشخصية كبّلوا يديه حتى لا يزعج المرضى الآخرين. مكان كئيب وبشر مكتئبون.

كلّما مرّ الوقت تناقص إحساسي بالحُقن وبعد مرور ثمانية أيام بدأت أتجاوزها. عندما تجاوزت الحقن لمدة أربع وعشرين ساعة قررت بأنه حان وقت الرحيل.

ذهبت زوجتي لرؤية الدكتور فريدريكس وأمسكت به في القاعة خارج مكتبه. قال إنّه يجب عليَّ أن أمكث أربعة أو خمسة أيام أخرى.

ـ قال الطبيب: «ما زال يجهل الأمر، لكننا سنتوقف عن إعطائه الحقن من الآن فصاعداً».

ـ قالت زوجتي: «لقد تجاوز الحقن منذ أربع وعشرين ساعة».

احمرّ وجه الطبيب. عندما تمكّن من الحديث من جديد، قال:

ـ «على أيّة حال، قد يطوّر أعراض الانسحاب».

«من المرجح أن الأمر لن يكون بعد عشرة أيام، أليس كذلك؟».

«ربما»، قال الطبيب، وابتعد قبل أن تتمكن من قول أي شيء آخر.

ـ قلت لها: «فليذهب إلى الجحيم، لا نحتاج إلى شهادته. تايغ يريد استخدام طبيبه الخاص شاهداً على وضعي. لا يمكننا أن نعرف ماذا سيقول هذا المغفّل على منصّة إدلاء الشهادة».

كان على الدكتور فريدريكس أن يوقّع على ورقة تسريحي من المستشفى. بقي في مكتبه ودخلت الممرضة ومعها ورقة التسريح ليوقّع عليها. وكتب بطبيعة الحال: «خلافاً للمشورة الطبية».

غادرنا المستشفى في الخامسة بعد الظهر، وركبنا سيارة أجرة إلى





شارع كانال. دخلت حانة وشربت أربع كؤوس من الويسكي مع الصودا وسكرت كما يجب. لقد تعافيت.

عندما اجتزت شرفة منزلي وفتحت الباب، خامرني الإحساس بالعودة بعد غياب طويل. عدت إلى نفس النقطة الزمنية الذي تركتها قبل عام مع أول سطلة جراء التعاطي مع بات.

بعد اكتمال العلاج من الهيروين، عادة ما تشعر أنك بخير، لعدة أيام. يمكنك أن تشرب، يمكنك أن تشعر بالجوع الحقيقي وبالمتعة في تناول الطعام، وتعاودك الرغبة الجنسية. يبدو كل شيء مختلفاً، أكثر حدّةً. ثم تصاب بالترهل. عليك أن تبذل مجهوداً في ارتداء الملابس، النهوض عن الكرسي، والتقاط الشوكة. لا تريد أن تفعل أي شيء أو تذهب إلى أي مكان. لا ترغب حتّى في الهيروين. يتبدد التوق إلى الهيروين، لكن لا شيء يبدله. عليك أن تجتاز هذه الفترة. أو أن تهزمها بالعمل. العمل الزراعي أفضل علاج.

جاء بات حالما سمع بخروجي. هل كانت لدي رغبة في التعاطي؟ مرة واحدة لن تضر. يمكنه الحصول على سعر جيد لقاء عشرة أو أكثر. قلت لا. لا تحتاج إلى قوة إرادة لترفض الهيروين بعد العلاج. ببساطة لم تكن لديك الرغبة.

إلى جانب ذلك، واجهتُ تهمة في محكمة لويزيانا، وإدانات أخرى تتعلق بالهيروين مثل أي جناية أخرى. إدانتان تتعلقان بالهيروين يمكنهما أن تسجناك مدة سبع سنوات، أو يمكن توجيه اتهام ضدك في محكمة الولاية، واتهام آخر في المحكمة الفدرالية، وعند خروجك من سجن الولاية، ينتظرك الوكلاء الفدراليون عند الباب. إذا قضيت في السجن





حكم المحكمة الفدرالية أولاً، فسيكون ممثلو الولاية في انتظارك عند الباب.

عرفتُ أن الشرطة تسعى لترتب لي قضية أخرى لأنهم أخفقوا في حكاية اصطناعهم دور الوكلاء الفدراليين لتفتيش منزلي دون أمر قضائي. كان لي مطلق الحرية في ترتيب روايتي للأحداث لأنّي لم أوقع على إفادة خطيّة تقيدني. لا يمكن للولاية أن تقدّم الإفادة التي وقّعت عليها للشرطة الفدراليّة دون أن تكشف عن الصفقة التي أبرمتها مع الفنان اللاعب، ذلك القائد البدين. لكن إذا كان في مقدورهم أن يرتّبوا لي تهمة أخرى، فسينجحون بكل تأكيد.

عادة، عندما يُسرّح مدمن من أيّ مكان يُسجن فيه، يتّصل أولاً بتاجر. توقّعت الشرطة أن أفعل هذا وراقبت بات. لذلك قلت لبات إني لن أتعاطى حتى تتم تسوية القضية. استلف مني دولارين وغادر.

بعد مضيّ أيّام، شربتُ في الحانات الموجودة من حول شارع كانال. عندما يسكر مدمن مُقلع، تنتقل أفكاره إلى الهيروين. دخلت المرحاض في إحدى الحانات، ووجدت محفظة على صندوق ورق التواليت. عندما تجد نقوداً، تشعر وكأنك في حلم. فتحت المحفظة وأخرجت ورقة من فئة عشرين دولاراً، وعشرة دولارات، وخمسة دولارات. قررت أن أستخدم مراحيض أخرى وحانة أخرى، وخرجت من هناك تاركاً كأس المارتيني كما هي.

ذهبت إلى غرفة بات.

فتح بات الباب وقال: «مرحباً يا صديقي القديم، أنا سعيد لرؤيتك».





كان هناك شخص آخر يجلس على السرير، التفت إلى الباب عندما دخلت.

قال: «مرحباً يا بيل».

تأملته لثلاث ثوان قبل أن أعرفه. إنّه دوبري. بدا بالغاً وشاباً. تلاشى الفتور من عينيه وكان أقلّ وزناً بعشرة كيلوغرمات. ارتعش وجهه بشكل متقطع مثل مادة ميتة عادت إلى الحياة، وهو لا يزال متشنجاً وآلياً. طيلة تعاطي الهيروين، بدا دوبري شخصاً مجهولا وميتاً، بحيث من الصعب تمييزه وسط حشد أو عن بعد. الآن، صارت صورته أوضح وأكثر حدة.

لو مشيتَ بسرعة في أحد الشوارع المزدحمة ومررت عن دوبري، لانحفر وجهه في ذاكرتك، مثل لعبة الأوراق التي يوزع فيها موزع الأوراق، الأوراق الثلاث على عجل، قائلاً: «خذ هذه الورقة، أي ورقة»، فيما يدس ورقةً معينة في يدك.

طالما توفّر لديه الهيروين، ظلّ دوبري صامتاً. الآن صار ثرثاراً. أخبرني أنّه اختلس كثيراً من الخزينة حتّى فقد وظيفته. الآن لا يملك أموالاً من أجل الهيروين. لا يستطيع حتى تجنيد ما يكفي من المال للباريغوريك وللمسكنات كي يُقلع تدريجياً. تحدث بلا انقطاع.

ـ «كانت هناك فترة قبل الحرب عرفني فيها كلّ رجال الشرطة. كثيرة هي المرّات التي اعتقلوني فيها لمدة اثنتين وسبعين ساعة في مخفر الحيّ الثالث. وقتها كان يدعى «الأول». الآن أنت تعرف كيف تسير الأمور عندما تتوقف عن التعاطي». وأشار إلى أعضائه التناسلية، بجميع أصابعه، ثم حوّل كف يده إلى أعلى. إيماءة حقيقيّة، وكأنه التقط ما أراد أن يتحدث عنه وصار الآن يمسك به في كف يده ويريه لك. «يبدأ في





الانتصاب، وتقذف في سروالك. حتى إنه لا يحتاج لأن ينتصب. أذكر مرة كنت فيها مع لاري. أنت تعرف ذلك الفتى لاري. كان يبيع منذ مدة. قلت له: «يا لاري عليك أن تفعلها من أجلي». فأنزل سرواله. «كما تعرف، اضطر أن يفعلها من أجلي».

فتش بات عن وريد. زمّ على شفتيه باستياء. «تتحدثان مثل منحرفَين».

ـ قلت: «ما المشكلة يا بات؟ ألا تجد وريداً؟».

قال: «لا». حرك الرباط المطاطي تجاه معصم اليد وبدأ يبحث عن وريد في اليد.

لاحقاً، توقفت عند مكتب محاميّ الخاصّ للحديث عن القضية وسأل إذا أمكنني أن أترك الولاية وأسافر إلى وادي ريو غراندي في تكساس، حيث امتلكت مزرعة.

ـ «أنت ساخن مثل مفرقعات نارية في هذه المدينة» قال لي تايغ.

ـ «حصلت على إذن لك من القاضي لتتمكن من مغادرة الولاية. يمكنك أن تذهب إلى تكساس متى شئت».

ـ قلت: «قد أرغب في القيام برحلة إلى المكسيك. أهذا أمر جيد؟».

«طالما حضرت عند محاكمتك. لا توجد أي قيود مفروضة عليك. أحد زبائني سافر إلى فنزويلا. إلى حدّ علمي، ما زال هناك. لم يعد».

كان تايغ رجلاً عصياً على الفهم. هل كان يقول لي لا تَعد؟ بدا أحياناً أخرق أو لا علاقة له بشيء، وغالباً ما اتّبع خطّة. كانت بعض خططه بعيدة المدى. في أحيان كثيرة، بدأ بخطّة، وإذا رأى أنّها لا توصل إلى أيّ مكان، تركها. كعادة الأذكياء، امتلك أفكاراً سخيفة





بشكل مدهش. على سبيل المثال، عندما قلت له إني درست الطب في فيينا (ستة أشهر)، قال:

«هذا جيد. لنفترض الآن أننا نقول ما يلي: إنك، بصفتك دارساً للطب، على ثقة بأنّه من خلال المعرفة الطبيّة التي تمتلكها يمكنك أن تجد علاجاً لنفسك، وأن العلاج الذاتيّ هو الهدف من وراء حيازتك للمخدرات».

فكّرت بأنّ ما قاله من كلام من الصعب تقبّله.

ـ «أن تكون متعلّماً أكثر ممّا ينبغي ليس فكرة جيدة. المحلفون لا يحبون الأشخاص الذين يدرسون في أوروبا».

ـ «حسناً، يمكنك بسهولة تخفيف ربطة العنق والتحدّث بلهجة جنوبيّة عريضة».

أمكنني أن أتخيّل نفسي وأنا أتحدّث مثل ريفيّ بسيط بلهجة جنوبية مزيّفة. لقد توقّفت عن محاولة أن أكون واحداً من هؤلاء قبل عشرين عاماً. قلت له إنّ هذا السلوك لا يتماشى مع خطّي على الإطلاق. لم يطرح هذه الفكرة ثانية.

مهنة المحامي الجنائيّ هي إحدى المهن التي يشتري فيها الزبون حظّ شخص آخر. عند معظم الناس، لا يمكن نقل الحظ. لكن المحامي الجنائيّ الجيّد يمكنه أن يبيع كل حظّه للزبون، وكلما باع حظاً أكثر، وجد المزيد ليقدّمه.

* * *

غادرت نيو أورلينز بعد عدة أيام، وتوجهت إلى وادي ريو غراندي. يصبّ نهر ريو غراندي في خليج المكسيك في براونزفيل. على بعد مائة





كيلومتر من النهر توجد بلدة ميشن. يمتد الوادي من براونزفيل إلى ميشن: قطعة أرض طولها مئة كيلومتر، وعرضها ثلاثون. يتمّ ريّ المنطقة من نهر ريو غراندي. قبل قنوات الري، لم ينم شيء سوى الينبوت والصبار. الآن أصبحت واحدة من أغنى المناطق الزراعية في الولايات المتحدة.

هناك طريق سريع بعرض ثلاثة مسارات، يمتد من براونزفيل إلى ميشن، وبلدات الوادي تمتد على طول الطريق. لا توجد مدن في الوادي، ولا قرى. هذه المنطقة هي إحدى الضواحي العظمى المكونة من منازل واهية. الوادي مسطّح مثل طاولة. لا شيء ينمو هناك سوى المحاصيل، الحمضيات والنخيل التي جلبوها من ولاية كاليفورنيا. تهبّ رياح حارة جافة ظهيرة كلّ يوم وتتوقف عند غروب الشمس. الوادي هو أرض الحمضيات. عناقيد العنب الوردية والحمراء تنمو هناك ولا تنمو في أي مكان آخر. أرض الحمضيات هي أرض الترويج لبيع العقارات، أرض المنازل الواهية، أرض الفنادق السياحيّة على الطريق العامّ وأرض كبار السن الّذين ينتظرون الموت. الوادي كله يبدو عابراً مثل مخيّم، أو كرنفال. قريباً سيموت المغفّلون وسينتقل الباعة المتجوّلون إلى مكان آخر.

خلال سنوات العشرينات، جلبت شركات العقارات قطارات محملة بزبائن محتمَلين إلى الوادي وسمحت لهم بقطف عناقيد العنب مباشرة عن الأشجار وتناولها. يقولون إن واحداً من هؤلاء المروجين الرائدين شيّد بحيرة اصطناعية كبيرة وباع قطع الأرض من حوله. «من البحيرة ستتفرّع منظومة ريّ لسقي بساتينكم». بمجرد أن باع قطعة الأرض الأخيرة، أغلق الماء واختفى هو وبحيرته مخلفاً الزبائن وراءه، يجلسون هناك في الصحراء.





على حدّ قول سمسار العقارات، تربية الحمضيات هي صفقة مثالية لكبار السن الذين يرغبون في التقاعد والتعاطي مع الحياة بسهولة. صاحب البستان لا يفعل شيئاً. ترعى جمعية تربية الحمضيات البساتين وتسوق الفاكهة، وتسلّم الحوالة للمالك. في الواقع، تربية الحمضيات محفوفة بالمخاطر بالنسبة إلى المستثمر الصغير. على مدى فترة من الزمن فإن متوسط العائد عال، خصوصاً في تربية العناقيد الوردية والحمراء. ولكن المشتغل الصغير لا يمكنه أن ينجو من السنوات التي يكون فيها انخفاض في الأسعار أو في محاصيل الفاكهة.

يخيّم هاجس الموت على الوادي. يجب أن تنجح قبل أن يحدث شيء ما، قبل أن تبيد الذبابة السوداء الحمضيات، قبل تقليص دعم أسعار القطن، قبل الفيضانات، الإعصار، الصقيع، وفترة الجفاف الطويلة عندما تنعدم مياه الريّ، قبل أن يطرد حرس الحدود عمّالك المكسيكيين المتسللين. خطر الكوارث دائماً هناك، ثابت ويدعو للقلق مثل رياح الظهيرة. كان الوادي مقفراً، وسيقفرُ من جديد في هذه الأثناء، حاول أن تفعل شيء من أجل ذاتك طالما هناك متسع من الوقت.

يجلس كبار السن في المكاتب العقارية ويقولون: «حسناً، هذا ليس شيئاً جديداً. رأيت كل هذا من قبل. وأذكر ذات مرة عام ١٩٢٨».

لكن عاملاً جديداً، وهو الأمر الذي لم يشهده أحد من قبل، يغيّر وجه الكارثة كما نعرفها مثل البدايات البطيئة لمرض ما، بحيث لا يمكن لأحد أن يحدّد متى بدأ المرض بالضبط.

الموت هو غياب الحياة. عندما تتراجع الحياة، يستبدلها الموت والعفن. مهما تكن طاقة الحياة التي نحتاجها جميعنا ـ إلّا أن الوادي





يفتقر إليها. تتعفن المواد الغذائية قبل أن تتمكن من إحضارها إلى المنزل. يفسد الحليب قبل أن تنهي الوجبة. الوادي هو المكان الذي تخترقه القوة الجديدة المضادة للحياة.

الموت يخيم على الوادي مثل الضباب الدخانيّ اللامرئي. المحتضرون ينجذبون إلى المكان بقوة مغناطيسية غريبة. الخلية الميتة تنجذب إلى الوادي:

جاء غاري ويست من مينيابوليس. ادخر عشرين ألف دولار من إدارة مزرعة ألبان وقت الحرب. بهذا المال اشترى منزلاً وبستاناً في الوادي. تواجد المكان في الجانب الآخر من ميشن، حيث يتوقف الري وتبدأ الصحراء. خمسة أفدنة من عناقيد العنب الحمراء ومنزل على الطراز الإسبانيّ الذي يعود إلى العام ١٩٢٠. هناك، سكن مع والدته وزوجته وطفليه.

في عينيه يمكنك رؤية نظرات الاستياء، والخوف، والحيرة التي تبدو على رجل يشعر في خلاياه بحركة مرض فتّاك. وقتها لم يكن مريضاً، لكن خلايا ويست نشدت الموت، وويست كان يعلم ذلك. يريد أن يبيع ويغادر الوادي.

كان يقول: «أشعر أني مسدود هنا. يجب أن أسافر بعيداً لأخرج من الوادي».

بدأ يتنقّل من مشروع إلى آخر. مزرعة في ميسيسيبي، تربية الخضار الشتوية في المكسيك. عاد إلى مينيسوتا واستثمر في شركة لغذاء البقر. فعل ذلك عن طريق دفعة استلمها من بيع ممتلكاته في الوادي. لكنه لم يكن قادراً على البقاء بعيداً عن الوادي. ركض مثل سمكة معقوفة، حتّى أثقلته خلاياه المحتضرة وأعاده الوادي. عاش أمراضاً مختلفة. استقرّ





التهاب الحلق في قلبه. رقد في مستشفى ماكالين وحاول أن يرى في نفسه رجل أعمال يتوق للنهوض والعودة إلى العمل. أصبحت مشاريعه مستحيلة أكثر فأكثر.

ـ «هذا الرجل مجنون» قال روي، وكيل العقارات. «لا يعرف ماذا يريد».

صار الوادي وحده الشيء الواقعيّ في نظر وسيت. لم يكن هناك أي مكان آخر يذهب إليه. كل الأماكن الأخرى كانت خيالاً. الاستماع إليه، يعطيك إحساساً غريباً بأن أمكنة مثل ميلووكي لم تكن موجودة. استجمع ويست قواه وخرج بحثاً عن صفقة لتربية أغنام في أركنسو بسعر خمسة عشر دولاراً للفدان. عاد إلى الوادي وشرع في بناء منزل بالدّين. اختلت كليتاه وتضخم جسده بسبب البول. فاحت رائحة البول في أنفاسه وجلده. «إنّه تسمم بوليّ»، صاح الطبيب ورائحة البول تملأ الغرفة. بدأ ويست يعاني من التشنجات ومات. ترك لزوجته شبكة من الأوراق ماليّة للمقايضة بين ميلووكي والوادي، لزمها عشر سنوات حتّى حلّتها قضائياً.

أسوأ السمات الأمريكية انصبّت في الوادي وتركّزت فيه. في المنطقة كلها لم يكن مطعم واحد جيّد. فقط الأشخاص الذين لا يتذوقون ما يأكلون، قادرون على تحمل الوضع الغذائي. أصحاب المطاعم في الوادي ليسوا طباخين ولا متذوقين للطعام. المطاعم يفتتحها شخص قرر أن «الناس دائماً يأكلون» لذلك فإنّ المطعم هو «صفقة جيدة». يضع واجهة زجاجية حتى يرى الناس ما في الداخل، ويختار لوازم مصنوعة من معدن الكروم. الطعام الذي سيقدّمه سيكون أمريكياً سيئاً. هكذا يجلس في مطعمه ويتأمل الزبائن بنظرة ارتباك واستياء. لم يرغب تماماً في أن يدير مطعماً. حتّى إنّه لا يحقق أرباحاً اليوم.





أشخاص عديدون كسبوا المال السهل والسريع أثناء الحرب وما تلاها من سنوات. كلّ عمل اعتُبر عملاً جيداً، تماماً كما أنّ كلّ سهم في البورصة هو سهم جيّد عندما تكون سوق البورصة في ازدهار. ظنّ الناس أنهم رجال أعمال أذكياء، لكنهم في الواقع ركبوا موجة الحظ. الآن يعاني الوادي من موجة هزائم متتابعة، ووحدها الشركات الكبيرة قادرة على ركوبها. بما أنه لا يوجد أي تدخّل بشريّ، فإنّ القوانين الاقتصادية في الوادي تعمل وفق المعادلات الجبرية. الأغنياء يزدادون غنى والبقية يفلسون. المستثمرون الكبار ليسوا أذكياء أو متهوّرين، أو من أصحاب المبادرة. ليسوا بحاجة لأن يفكروا أو يقولوا أيّ شيء. كلّ ما عليهم القيام به هو أن يجلسوا وسيتدفق المال إلى جيوبهم. إما أن تنجح بأن تكون مستثمراً كبيراً أو تتوقف وتقبل بأي وظيفة يقترحونها عليك. الطبقة الوسطى هي المتضرّر الأكبر، وواحد فقط من بين ألف سينجح. المستثمرون الكبار هم أصحاب الكازينو، وصغار المزارعين هم اللاعبون. إذا واصل المراهن اللعب، سيعلن إفلاسه، وعلى المزارع أن يواصل الرهان، وإلا خسر لصالح الحكومة. يمتلك المستثمرون الكبار كل البنوك في الوادي، وعندما يفلس أحد المزارعين، يستولي البنك على المزرعة. قريباً سيستحوذ المستثمرون الكبار على الوادي.

الوادي هو أشبه بلعبة نرد عادلة، حيث لا يمتلك اللاعبون حيوية التأثير على النرد ويكسبون أو يخسرون بقوة الصدفة البحتة. لن تسمع أحداً يقول: «كان لا بدّ أن يحدث الأمر بهذه الطريقة»، وإذا قال أحدهم ذلك، فقد تحدّث عن الموت. الحدث الذي كان «من المفروض أن يكون بهذه الطريقة» قد يكون جيداً أو سيئاً، ولكنه قد حدث، ولا يمكنك أن تأسف له أو تصحّحه. لأن كل ما يحدث في





الوادي، باستثناء الموت، يحدث بالصّدفة، فإنّ سكان الوادي لا يتوقفون عن النّبش في الماضي مثل مراهن بائس في سباقات الخيل العائد بالقطار من المضمار إلى المنزل:

ـ «كان يجب أن أبقي على الأربعمائة فدان تلك؛ كان يجب أن أوقع على عقد التنقيب عن النفط؛ كان يجب أن أزرع القطن بدلاً من البندورة».

أنين حاد يطلع من الوادي، تمتمة واسعة من اليأس والندم المبتذلين.

عندما وصلت إلى الوادي، عانيت من أثر ما بعد العلاج. فقدت الشهيّة والطاقة. كل ما أردت القيام به هو النوم، ونمت مدة تراوحت بين ١٢ ـ ١٤ ساعة في اليوم. أحياناً اشتريت أوقيتين من صبغة الأفيون، شربتها مع قرصَين من المهدئات، وشعرت بأني سويّ لعدة ساعات. عند شراء صبغة الأفيون يجب توقيع الاسم الكامل، وأنا لم أرغب في حرق الصيدليات. عندما تشتريها أكثر من اللازم، يبدأ الصيدلاني في المناورة، إما أن يعزف عن البيع، أو يرفع السعر.

دخلت في شراكة مع صديق يدعى إيفانس لشراء المعدات، واستأجرنا مزارعاً ليربي لنا القطن. امتلكنا ٦٠٠ دونم من القطن. عندما يكون المحصول جيداً، يمكن استخراج بالة من القطن من كلّ أربعة دونمات، وقد ضمن لنا سعر الدعم الحكومي مائة وخمسين دولاراً للبالة. بذلك وقفنا عند إجمالي ٢٢٠٠٠ دولار. من عمل معنا بشكل فعليّ هو المزارع. مرة كل بضعة أيام قُدنا، أنا وإيفانز السيارة وبحثنا عن القطن. استغرق الأمر زهاء ساعة لأن الحقول انتشرت في كافّة أنحاء إدنبرغ وحتى الساحل السفلي، الذي كان عند النهر تقريباً. لم يكن هناك سبب خاصّ يجعلنا ننظر إلى القطن لأننا لم نفهم شيئاً في مجال القطن.





تجولنا في السيارة فقط لتمرير الوقت حتى الخامسة مساء، موعد الشرب.

يومياً، في ساعات بعد الظّهر، اجتمع في منزل إيفانس خمسة أو ستة أشخاص ثابتون. عند الخامسة بالضبط، دقّ أحد الحاضرين على وعاء من الصفيح وصاح «حان وقت الشرب!»، وقفز الآخرون مثل المقاتلين عند سماع الصوت. لأسباب تتعلق بالتوفير، قمنا بتحضير الجن من الكحول المكسيكي بأنفسنا. كان طعم المارتيني الممزوج بالجن فظيعاً، وكان علينا أن نملأ الكوكتيل بقطع الثلج وإلا سخن قبل أن نشربه. لا أستطيع أن أشرب حتى المارتيني الجيد في الطقس الحار، لذلك حضرت لنفسي شراباً في كأس طويلة العنق مع السكر والليمون والصودا وبعض الكينين لتقريبه من الجن والتونيك. لم يكن أحد في الوادي قد سمع عن ماء الكينين.

كان كلّ ذلك الصيف طقساً مثالياً للقطن. حاراً وجافاً، يوماً بعد يوم. بدأنا الحصاد بعد الرابع من يوليو وبعنا كلّ القطن حتّى الأول من سبتمبر. ربحنا أكثر من المعدل بقليل؛ ارتفاع تكاليف التشغيل وأسعار المعيشة العالية بلعت معظم أرباحي ـ وقد تبين من حساباتي أن السّكن في الوادي يكلفني ٧٠٠ دولار شهرياً، بدون خادمة أو سيارة. قررت أن الوقت قد حان لمغادرة الوادي.

في مطلع أكتوبر، تلقيت رسالة من شركة الضمانات يبلغونني فيها عن قضيتي التي ستبدأ المحاكمة فيها في غضون أربعة أيام. دعوت تايغ وقال: «لا تول الأمر اهتماماً. سأطلب التأجيل». وبعد بضعة أيام وصلت رسالة من تايغ يقول فيها إنه تمكن من التأجيل لمدة ثلاثة أسابيع، ولكنه يشك إن كان بإمكانه التأجيل مرة أخرى.





اتصلت به هاتفياً وقلت له إني سأخرج في رحلة إلى المكسيك.

ـ قال: «حسناً. استمتع بوقتك قدر ما تستطيع في ثلاثة أسابيع، وعُد للمحاكمة».

سألته ما هي احتمالات التأجيل مرة أخرى.

ـ قال: «بصراحة، ليست جيدة. لا أستطيع أن أفعل شيئاً مع هذا القاضي. القرحة تتعبه».

قررت اتخاذ الخطوات اللازمة للمكوث في المكسيك حال وصولي إلى هناك.

* * *

لحظة وصولي إلى مدينة مكسيكو، بدأت أبحث عن الهيروين. على الأقل، كنت متيقّظاً. كما سبق وقلت، يمكنني أن أستشعر أحياء الهيروين. في ليلتي الأولى في المدينة، مشيت على طول شارع دولوريس ورأيت جماعة من المدمنين الصينيين يقفون أمام محلّ الفطائر تشوب سوي. من الصعب استيعاب الصينيين. سيتعاملون تجارياً فقط مع صينيين آخرين. لذلك عرفت أن محاولة الشراء من هؤلاء الأشخاص ستكون مضيعة للوقت.

مشيت يوماً في شارع سان خوان لتران ومررت عن كافتيريا أحيط مدخلها ببلاط ملوّن وغطيت أرضيتها بنفس البلاط. كانت الكافتيريا ذات طابع شرق أوسطيّ بشكل واضح. خرج منها شخص. كان من الصّنف الذي تراه فقط في أحياء الهيروين.

كالجيولوجي المنقب عن النفط الذي يسترشد بطبقات الصخور البارزة من الأرض، كذلك ثمة علامات معينة تشير إلى توفر الهيروين.





في أحيان كثيرة يمكن العثور على الهيروين في أماكن متاخمة لمناطق ملتبسة أو انتقالية: شارع ١٤ شرقاً بالقرب من الجادة الثالثة في نيويورك؛ بويدراس وسانت تشارلز في نيو أورلينز؛ سان خوان لتران في مدينة مكسيكو. محلات بيع أعضاء اصطناعية، وشعر مستعار، ومعدات طب الأسنان، شركات في الطابق العلوي لتصنيع العطور، ومراهم الشعر، والحلى المنزلية، والزيوت العطرية. نقاط التقاء بين المصالح التجارية المشكوك فيها وبين الفقر.

هناك شخص نموذجي يشاهَد أحياناً في هذه الأحياء وله صلة بالهيروين، على الرغم من أنه لا يتعاطى ولا يبيع. ولكن عندما تراه، تنتفض عصا الاستكشاف السحريّة. الهيروين قريب. قادم من الشرق الأوسط، وربما من مصر. له أنف مستقيم وكبير. شفتاه رقيقتان وأرجوانيتان تميلان للزرقة مثل لون حافة القضيب. بشرة وجهه مشدودة وملساء. هو في الأساس أشدّ بغضاً من أيّ فعل أو عمل حقير ممكن. تظهر عليه علامات مهنة أو عمل لم يعد موجوداً. لو اختفى الهيروين عن وجه الأرض، لظلّ المدمنون يتجمعون في أحياء الهيروين، يشعرون بالحاجة الغامضة والدائمة، وبشبح النوبة الباهت.

إذاً، يتجوّل هذا الرجل في الأماكن التي زاول فيها يوماً تجارته القديمة والمنسيّة. لكنه رابط الجأش. عيناه سوداوان فيهما الهدوء الغافل لحشرة. بدا كما لو أنه يتغذى على العسل والعصائر المشرقية التي يمصّها عبر ما يشبه الخرطوم.

ما هي تجارته المفقودة؟ لابدّ وأنّه ينتمي إلى طبقة الخدم وله صلة بالموتى، على الرغم من أنه لا يتعامل مع التحنيط. ربما اختزن شيئاً في





جسده، مادة تطيلُ العمر، ويحلبه أسياده باستمرار. إنّه مثل حشرة، متخصص في أداء مهام حقيرة عصيّة على الفهم.

* * *

بدت حانة «تيشمو» من الخارج حانة عاديّة، لكن لحظة دخولها يتّضح أنّك في حانة للمثليين. طلبت كأساً على المشرب ونظرت من حولي. كان هناك ثلاثة مكسيكيين يتخذون وضعيات أمام الصندوق الموسيقي. انزلق أحدهم إلى المكان الذي وقفت فيه، بحركات رقص دينيّ، وطلب سيجارة. كان هناك شيء قديم في حركاته، رشاقة بهيمية فاسدة، جميلة ومقززة في نفس الوقت. أمكنني أن أتخيله يتحرك في ضوء المواقد، وحركاته الغامضة تتلاشى في الظلام. اللواط ظاهرة قديمة قدم الجنس البشري. جلس أحد المثليين في المقصورة المجاورة للصندوق الموسيقيّ، متجمداً تماماً بصمت بهيميّ أخرق.

التفتّ لألقي نظرة فاحصة على الفتى الذي وقف بجانبي. لم يكن سيئاً. «بوكيه تريستيه؟ (لم الحزن؟)» لم يكن سؤال مناورة، لكنّي لم أذهب إلى هناك للحديث.

ابتسم الفتى وكشف عن لثة حمراء جداً وأسنان حادة متفرقة. هز كتفيه وقال شيئاً عنى من وراءه أنه ليس حزيناً، أو على الأقل ليس حزيناً بشكل خاصّ. نظرت إلى الغرفة.

«فامونوس أتورو لوغار (هيا نذهب إلى مكان آخر)»، قلت. أومأ الفتى. مشينا في الشارع ودخلنا مطعماً يعمل طيلة الليل. جلسنا في إحدى المقصورات. أنزل الفتى يده تحت الطاولة ووضعها على ساقي. شعرت بإثارة في بطني. ارتشفت قهوتي وانتظرت بفارغ الصبر أن ينتهي الفتى من البيرة وتدخين السيجارة.





عرف الفتى أحد الفنادق. دفعت خمسة بيزو عبر النافذة. فتح رجل عجوز باب إحدى الغرف وألقى منشفة خشنة على الكرسي. «ييفاس بيستولاس؟» (هل معك مسدس؟)، سأل الفتى. وقعت عينه على مسدسي. قلت نعم.

طويت سروالي ووضعته على الكرسي، ووضعت المسدس فوق سروالي. وضعت قميصي وسروالي الداخليّ فوق المسدس. جلست عارياً عند حافة السرير أشاهد الفتى يتعرى. طوى بذلته الزرقاء البالية بعناية. خلع قميصه ولفّه حول معطفه على ظهر الكرسي. كان جلده أملس ونحاسي اللون. خلع سرواله الداخلي واستدار مبتسماً إلي. ثم جاء وجلس على السرير بجانبي. بيد واحدة داعبت ظهره ببطء، وباليد الأخرى تابعت منحنى الصدر حتى البطن البنيّ والمسطح. ابتسم الفتى وتمدد على السرير.

ثم دخنّا سيجارة وتلامست أكتافنا من تحت الغطاء. قال الفتى إنه مضطر للمغادرة. ارتدينا ملابسنا. سألت نفسي إن كان يتوقع مني أن أدفع له. قررت ألا أدفع، ثم افترقنا عند زاوية الشارع وقد تصافحنا.

بعدها بمدة، قابلت في نفس الحانة فتى يدعى أنجيلو. رأيت أنجيلو بشكل متقطع على مدار عامين. عندما كنت مدمناً لم أره لعدة أشهر، لكني عندما أقلعت، قابلته على الدوام في أحد الشوارع. في مدينة مكسيكو توجد للأُمنيات سلطة حُلمية. إذا رغبت في لقاء شخص، ظهر.

في إحدى المرات بحثت عن شخص، فتعبت وجلست على مقعد حجري في متنزه عمومي. شعرت بالحجر الأملس عبر سروالي، وكان الوجع في خاصرتي مثل وجع الأسنان، وجع خفيف ومختلف عن كافة الأوجاع الأخرى. جلست أتأمل المتنزه، وفجأة شعرت بالسكينة





والسعادة ورأيت نفسي أمراسُ علاقة حلميّة مع المدينة، وعرفت أنّي سأضاجع أحدهم الليلة، وفعلت.

كانت لأنجيلو ملامح شرقيّة، وهيئة يابانيّة، باستثناء جلده النحاسيّ. لم يكن مثلياً، وأعطيته المال؛ أعطيته نفس المبلغ على الدوام، عشرين بيزو. أحياناً لم تتوفر لديّ أموال كثيرة، وكان يقول: «ني إمبورتا (لا يهمّ)». أصرّ على كنس الشقة كلّما قضى فيها ليلة.

من اللحظة التي تواصلت فيها مع أنجيلو، لم أعد إلى حانة «تشيمو». الحال في المكسيك كالحال في أمريكا، حانات المثليين سببت لي الاكتئاب.

معنى كلمة «مَنيانا» هو «انتظر حتى تصبح العلامات صحيحة». عندما تكون على عجلة من أمرك في شراء الهيروين وتتجول وتتواصل مع الغرباء، سيضربونك ويسرقون أموالك، وعلى الأرجح ستتورط مع الشرطة. لكن إذا انتظرت، سيأتيك الهيروين إن أردته.

بعد أن قضيت عدة أشهر في مدينة مكسيكو، ذهبت يوماً إلى المحامي الذي عمل لصالحي من أجل الحصول على أوراق العمل والإقامة. أمام المكتب انتظر رجل مهمل في منتصف العمر.

«لم يصل بعد» قال الرجل. نظرت إليه. تأكّدت أنّه مدمن قديم. وعرفت أنّه تأكّد منّي أيضاً. قد يكون المتعاطي مقلعاً عن تعاطي الهيروين منذ عشر سنوات، لكن رغم ذلك يمكنك أن تحوّله إلى مدمن.

وقفنا هناك وتحدثنا إلى أن وصل المحامي. كان المدمن قد حضر إلى هناك ليبيع ميداليات دينية. طلب منه المحامي أن يجلب إلى المكتب عشر ميداليات.





بعد المقابلة مع المحامي دعوت المدمن إلى وجبة عشاء وتوجهنا إلى مطعم في سان خوان لتران.

سألني المدمن عن حكايتي، وأخبرته. قلب طية صدر معطفه وأراني نتوء الإبرة العالقة في الطرف الخلفي.

ـ قال: «أتعاطى منذ ثمانية وعشرين عاماً. هل تريد أن نشتري؟».

*** 

هناك تاجر واحد فقط في مدينة مكسيكو: لوبيتا. تعمل لوبيتا في هذه التجارة منذ عشرين عاماً. بدأت لوبيتا بغرام واحد من الهيروين ثمّ بنت نفسها إلى أن احتكرت الهيروين في مدينة مكسيكو. كانت تزن ١٣٠ كيلوغراما، ثم بدأت تتعاطى الهيروين لتنقص من وزنها، لكن وجهها وحده صار نحيفاً ولم يطرأ تحسن في النهاية. كل شهر أو نحو ذلك، استأجرت حبيباً جديداً، أعطته القمصان والبدلات وساعات اليد، وإذا اكتفت تركته.

استثمرت لوبيتا الأموال في المكان السليم حتى تتمكن من العمل بشكل مفتوح تماماً، وكأنها تدير محل بقالة. الواشون لم يقلقوها، لأنه لم يكن هناك شرطيّ واحد في كلّ المنطقة لم يعرف أن لوبيتا تبيع الهيروين. احتفظت بالإبر داخل زجاجات الكحول حتى يحقن المدمنون أنفسهم عندها ويخرجون «نظيفين». في كل مرة أراد أحد رجال الشرطة المال لشراء البيرة، توجه إلى لوبيتا وانتظر، ربما خرج أحدهم ومعه المادّة. لقاء عشرة بيزو (١,٢٥ دولار) أخلى الشرطي سبيله. لقاء عشرين بيزو، أعاد إليه المادة. بين الحين والآخر، يحدث أن يبدأ مواطن طائش ببيع جرعات كبيرة من الهيروين بأقل سعر، لكنه لا يستمر في التجارة





طويلاً. امتلكَت لوبيتا عرضاً ثابتاً: عشر جرعات مجانية لكل من يبلغها عن تاجر مخدرات آخر في منطقتها. ثم تتصل لوبيتا بأحد أصدقائها في قسم مكافحة المخدرات ويقومون باعتقال التاجر.

تتعامل لوبيتا مع المادة المسروقة أيضاً. إذا أحضر لها أحدهم مادّة جيدة، استخدمت مصادرها لتعرف من هو صاحب المادة. يبيعها السارقون بسعر مخفّض، وإلا وشت عنهم. عرفت لوبيتا كلّ ما يحدث في العالم السفليّ لمدينة مكسيكو. جلست ووزعت جرعات الهيروين مثل إلهة أزتيكيّة.

باعت لوبيتا المادة ملفوفة بالورق. من المفترض أنها هيروين. في الواقع، كانت عبارة عن بانتوبون مخفّف ببودرة الحليب، وهراء آخر بدا كالرمل ولم يذب حتى بعد خلطه بالماء وتسخينه بالملعقة.

بدأت بشراء مادّة لوبيتا الملفوفة في أوراق بوساطة أيك، المدمن القديم الذي قابلته عند المحامي. في ذلك الوقت لم أتعاط الهيروين منذ ثلاثة أشهر. استغرقني ثلاثة أيام بالضبط لأعود إلى الإدمان من جديد.

قد يكون المدمن معافى من الهيروين مدة عشر سنوات، لكن يمكنه أن يصبح مدمناً في أقل من أسبوع. بينما سيضطرّ الشخص الذي لم يتعاط في حياته إلى حقن إبرتين يومياً لمدّة شهرين حتّى يطوّر عادة الإدمان. حقنت نفسي مرة في اليوم لمدة أربعة أشهر حتى بدأت أشعر بأعراض النوبة. يمكن تحضير قائمة بأعراض نوبة الهيروين، لكن الإحساس بها لا تشبه أيّ شيء آخر ولا يمكن توصيفها. لم أجرّب نوبة الهيروين هذه إلا في الإدمان الثاني.

لماذا يقع مدمن سابق في الإدمان أسرع من مدمن حديث - حتى لو





لم يتعاط المادة لسنوات؟ أرفض النظرية القائلة بأن الهيروين يختبئ في الجسم طيلة كل ذلك الوقت ـ العمود الفقري هو المكان المفترض أن تكون فيه الثقوب ـ وأختلف مع جميع الادعاءات السيكولوجيّة. أعتقد أن تعاطي الهيروين يُحدثُ تغييراً في مبنى الخلايا. إذا أدمنت مرة، فأنت مدمن على الدوام. يمكنك أن تتوقّف عن استخدام المادة، لكن من يتعاطى مرّة يظلّ مدمناً.

عندما رأت زوجتي أنّي بدأت أقع في الإدمان مجدداً، فعلت شيئاً لم تفعله من قبل. حضّرت لي حقنة، بعد أن ألتقيتُ بأيك بيومين. أمسكت زوجتي الملعقة ورمت المادة على الأرض. صفعتها مرتين على وجهها وألقت بنفسها على السرير وبكت، ثم استدارت وقالت لي: «ألا تريد أن تفعل أيّ شيء على الإطلاق؟ أنت تعلم كم تصبح ملولاً عندما تعود إلى الإدمان. وكأن كل الأضواء انطفأت. حسناً، افعل ما تريد. على أيّة حال، أعتقد أن لديك بعضاً من المادة المخبأة في مكان ما».

بالفعل، توفّرت لديّ مواد مخبأة.

تكلّف مادة لوبيتا خمسة عشر بيزو للجرعة ـ حوالي دولارين. الجرعة الواحدة في الولايات المتحدة والتي تكلف دولارين، أقوى بضعفين. إذا كنت مدمناً أساساً، تلزمك وجبتان لتتوازن، وأعني فقط لتتوازن. لكَي تنتشي تماماً، تحتاج إلى أربع جرعات. ظننت أنّ هذا سعر خياليّ إذا أخذنا بعين الاعتبار أن كل شيء في المكسيك رخيص، وتوقّعت صفقات رابحة في الهيروين. وها أنا أجد نفسي أدفع أكثر ممّا أدفعه في الولايات المتحدة. سعر باهظ لقاء هيروين أقل جودة.

ـ قال أيك لي: «عليها أن تطلب أسعاراً باهظة لأنها تدفع للشرطة».





ـ ثم سألت أيك: «ماذا عن الروشتات؟».

قال لي إن الأطباء يمكنهم أن يكتبوا الروشتات فقط للمورفين السائل. ويسمح لهم على أكثر تقدير أن يسجّلو ١٥ مليغراماً في الروشتة الواحدة، أو حبتين ونصف حبّة. أجريت حساباً بحيث يكون السعر أرخص بكثير من لوبيتا، ثم بدأنا نفتش عن أطباء. وجدنا عدة منهم وافقوا على كتابة روشتات طبيّة لقاء خمسة بيزو للروشتة، ووافقت خمس صيدليّات على صرفها.

تكفيك كمية الروشتة الواحدة ليوم واحد إذا حافظت على توازن في التعاطي. المشكلة هي أنه من السّهل الحصول على روشتة أكثر من صرفها، وإلى أن تجد صيدلية تقبل الروشتات، فعلى الأغلب سيسرق الصيدلاني الهيروين وسيعطيك ماء مرشّحاً. أو أنه لا يمتلك المورفين فيضع ما يجده على الرف في الزجاجة. حدث لي أن سلّمت روشتة طبيّة وتلقّيت زجاجة مليئة بمسحوق لا يذوب. لو حقنت هذا الخراء لقتلت نفسي.

الأطباء المكسيكيون ليسوا كالأطبّاء الأمريكيين. هم لا يتظاهرون بالمهنيّة. الطبيب الذي يوافق على كتابة روشتة طبية سيفعل ذلك دون أن يسمع الحكاية. في مدينة مكسيكو العديد من الأطباء، يكسبون رزقهم بصعوبة. أعرف أطباء يتضورون جوعاً حتى الموت إذا لم يكتبوا روشتات المورفين. لا يوجد لديهم مريض واحد، إلا إذا اعتبرنا المدمنين مرضى.

موّلت إدمان أيك إلى جانب إدماني، وهذا كلّف أموالاً طائلة.

سألت أيك ما رأيه لو باع في مدينة مكسيكو. قال إن هذا مستحيل.

ـ «لن تصمد أسبوعاً. بالتأكيد، يمكنك أن تكسب العديد من الزبائن





الذين سيدفعون لك خمسة عشر بيزو لقاء جرعة مورفين جيدة، من النوع الذي نحصل عليه في الروشتات الطبية. ولكن عند أول مرة التي يفيقون فيها وجيوبهم خالية من المال، سيهرعون إلى لوبيتا ويشون عنك لقاء بضع جرعات. وإذا اعتقلتهم الشرطة، سيفتحون أفواههم على الفور. بعضهم لا يحتاج لأن تطلب منه ذلك. سيقولون على الفور: «إذا وافقتم على إطلاق سراحي سأبلغكم عن شخص يبيع الهيروين». سترسله الشرطة إليك ومعه المال لشراء المادة بأوراق نقديّة معلّمة. هذا كل شيء، وتتلقى الضربة. السّجن لمدّة ثماني سنوات بتهمة بيع الهيروين، ولا كفالة.

«يأتون إلي ويقول الواحد منهم: "أيك، أعلم أنك تحصل على المادة بالروشتات. خذ خمسين بيزو وأحضر لي روشتة طبية". في بعض الأحيان يكون معهم ساعات يد جيدة أو بذلات جميلة. أقول لهم إن الروشتات نفدت من عندي. بالتأكيد، أمكنني أن أربح مائتي بيزو يومياً، لكنني لم أكن سأصمد أسبوعاً واحداً».

- «لكن ألا يمكن أن تجد خمسة أو ستة زبائن جيدين؟».

- «أعرف كلّ المدمنين في مدينة مكسيكو. ولا أثق في أيّ منهم».

* * *

في البداية، صرفنا الروشتات الطبيّة بدون عناء. لكن بعد مضي أسابيع قليلة بدأت الروشتات تتراكم في نفس الصيدليات، وبدأوا يرفضون صرفها. بدا الأمر وكأننا سنضطر للعودة إلى لوبيتا. وجدنا أنفسنا مرة أو مرتين بلا هيروين، واضطررنا للشراء من لوبيتا. المورفين الجيد الذي اشتريناه من الصيدليات زاد من إدماننا، وصار علينا الآن أن





نشتري جرعتين من لوبيتا بسعر ١٥ بيزو للجرعة حتّى نتوازن. الآن، ثلاثون بيزو للجرعة كانت مبلغاً أكبر من طاقتي. كان عليَّ أن أتوقف، أن أختصر بحيث أتدبر نفسي بجرعتين من مادة لوبيتا في اليوم، أو أجد مصدر إمداد آخر.

اقترح أحد الأطباء الذين كتبوا الروشتات الطبية على أيك أن يقدم طلباً تصادق عليه الحكومة. أوضح لي أيك أن الحكومة المكسيكية أصدرت تراخيص للمدمنين سمحت لهم بامتلاك كمية محددة من المورفين بأسعار الجملة. وافق الطبيب على تقديم الطلب لأيك مقابل مائة بيزو. قلت: «هيا، قدم الطلب»، وناولته المال. لم أتوقع أن تنجح الصفقة، لكن هذا ما حدث. بعد مرور عشرة أيام، كان معه ترخيص حكوميّ لشراء خمسة عشر غراماً من المورفين شهرياً. استوجب الترخيص توقيع الطبيب الخاص والطبيب الرئيسي في وزارة الصحة. بعدها استطاع أن يقدّمه للصيدلية ويصرفه.

بلغ السعر نحو دولارين لكلّ غرام. أتذكر المرة الأولى التي قدم فيها الترخيص للصيدلية. علبة كاملة من المورفين. يشبه الأمر حلم المدمن. لم أر الكثير من المورفين من قبل دفعةً واحدة. دفعت. تقاسمنا المادة. سبعة غرامات في الشهر أجازت لي تقريباً ثلاث كبسولات يومياً، وهو أكثر مما توفّر لديّ في الولايات المتحدة. لذلك تم تزويدي بكمية كبيرة من الهيروين بسعر ثلاثين دولاراً شهرياً مقارنة بما يقارب ثلاثمائة دولار شهرياً في الولايات المتحدة.

خلال هذا الوقت، لم أكن قد تعرفت على مدمنين آخرين في مدينة مكسيكو. يكسب معظمهم أموال الهيروين عن طريق السرقة. هم دائماً





مطلوبون. وجميعهم واشون. لا يمكن الوثوق في أي منهم أمام جرعة واحدة من الهيروين. لا خير يأتي من معرفة هؤلاء.

لم يمارس أيك السرقة. اعتاش من بيع الأساور والميداليات التي بدت وكأنها مصنوعة من الفضة. كان عليه أن يستبق زبائنه لأن لون الفضة الزائف اسودّ في غضون ساعات. مرة أو مرتين، ألقي القبض عليه ووجهت إليه تهمة النصب والاحتيال، لكني أخرجته بكفالة دائماً. طلبت منه أن يجد عملاً آخر يكون شرعياً تماماً، فبدأ يبيع الصلبان.

كان أيك سارق محلات في الولايات المتحدة وزعم أنه سرق مئة دولار يومياً في شيكاغو بواسطة حقيبة لها قاعدتان أقحم فيها البدلات. كل الأموال صُرفت على الكوكايين والمورفين.

لكن أيك لم يسرق في المكسيك. قال إنه حتى أكثر اللصوص مهارة يقضون معظم وقتهم في السجن. في المكسيك، يمكن إرسال اللصوص المعروفين إلى المستعمرة الجزائية **تريس مارياس** دون محاكمة. هناك لا يوجد لصوص من الطبقة المتوسطة، ذوو ياقات بيضاء يعيشون في رفاه، كما هو الحال في الولايات المتحدة. هناك متعاونون رفيعو المستوى لهم علاقات سياسية، وهناك المتشردون الذين يقضون نصف حياتهم في السجن. عادة، يكون المتعاونون رفيعو المستوى من قادة الشرطة أو مسؤولين آخرين رفيعي المستوى. هذا هو الحال في المكسيك، ولم يكن لأيك وكلاء يتعاون معهم.

التقيت بأحد المدمنين من وقت لآخر ـ كان هندياً داكن البشرة، لقّبه أيك بـ «الوغد الأسود». عمل الوغد في مهنة بيع الصلبان. كان، في الواقع، متديناً وحج إلى تشلما سنوياً، وقطع ربع الميل الأخير على





ركبتيه فوق الصخور مع شخصين أمسكا به. بعد ذلك، استقرت حاله لمدة عام.

يبدو أن سيدتنا المقدسة من تشلما شفيعة المدمنين واللصوص الوضيعين، لأن كلّ زبائن لوبيتا حجّوا مرة واحدة في السنة. استأجر الوغد الأسود مقصورة في الكنيسة وباع جرعات الهيروين المخففة بالسكر والحليب.

اعتدت أن أرى الوغد الأسود من وقت لآخر، سمعنا الكثير عنه من أيك. كره أيك الوغد الأسود مثل مدمن يكره مدمناً آخر. أحرق الوغد الأسود الصيدلية. ذهب إلى هناك وقال إني أرسلته. الآن رفض الصيدلانيّ صرف الروشتات الطبية.

وهكذا انجرفت من شهر لآخر. نفد الهيروين قبل نهاية الشهر، وكان علينا أن نتحصل على بعض الروشتات الطبية. كلما نفد الهيروين شعرت بعدم الأمان، وعندما توفرت لديّ هذه الغرامات السبعة المخبأة في مكان ما، شعرت بالراحة والأمان.

في إحدى المرّات، اعتُقل أيك خمسة عشر يوماً في سجن «كارمن» المدنيّ، بتهمة التشرد. كنت خالي الوفاض، ولم أتمكن من دفع الغرامة. مرت ثلاثة أيام إلى أن زرته. تقلّص جسده. نتأت عظام وجهه. لمعت عيناه البنيتان بالألم. وضعتُ في فمي قطعة أفيون مغطاة بالسيلوفان. بصقتها على نصف برتقالة وسلمتها لأيك. في عشرين دقيقة، كان مسطولاً.

نظرت من حولي، ولاحظت كيف برز المدمنون كمجموعة لها خصوصيّة، مثل المثليين الذين برزوا بهيئات وصرخوا في ركن ما. انتظم المدمنون معاً، وتحدثوا وتبادلوا المجاملات.





يعتمر كل المدمنين القبعات، إذا كانت لديهم قبعات. جميعهم يبدون متشابهين، كما لو ارتدوا زياً موحداً بطريقة غريبة لا يمكن تصنيفها ضمن خانة. ترك الهيروين عليهم جميعاً أثراً لا يمكن محوه.

قال لي أيك إن السجناء غالباً ما سرقوا سراويل الوافدين الجدد. «يوجد هنا أشخاص مقرفون». رأيت العديد من الرجال يتجولون بملابسهم الداخلية فقط. أمسك القومندان الزوجات والأقارب الذين أحضروا الهيروين إلى السجناء، وابتزّهم بما يملكونه.

قبض على امرأة أحضرت جرعة هيروين لزوجها، ولكن كان معها خمسة بيزو فقط. فأخذ فستانها وباعه بخمسة عشر بيزو، وعادت إلى المنزل ملفوفة بملاءة رديئة وقديمة.

اكتظّ المكان بالواشين. خشي أيك من الاحتفاظ حتى بجزء من الأفيون الذي أحضرته له. خاف أن يأخذ السجناء الآخرون المادة أو يسلّموه إلى القومندان.

* * *

وقعتُ رهينة عادة المكوث في المنزل مع ثلاث أو أربع حقن يومياً. لكَي أفعلَ شيئاً، التحقت بكلية «مكسيكو سيتي». بدا لي الطلبة بائسي المظهر، لكن من جهة أخرى، لم أتفحصهم بعمق.

عندما تنظر إلى الوراء إلى عام الهيروين، لا تشعر بمرور الوقت. وحدها فترات النوبات تطفو على السّطح. تتذكر حقن الإدمان الأولى، وتلك التي أصابتك فيها نوبات شديدة.

(حتى في المكسيك هناك أيام يفسد فيها كلّ شيء. إما أن تقفل





الصيدلية، أو أن الصيدلاني في إجازة، أو أن الطبيب متواجد خارج المدينة في مهرجان ما، ولا يمكنك أن تحصل على المادة).

بصرف النظر عن الهيروين نفسه، ما تعيشه أثناء الإدمان غير واضح، يكاد يكون ذا بعدين. يمكنك أن تتذكر ما حدث في حال أن تورّطت في مشكلة، ولكن لا توجد ذكريات تعود تلقائياً من فترة الإدمان باستثناء فترات النوبات.

نهاية الشهر. نفد الهيروين وأنا أعاني من نوبة. انتظرت وصول أيك مع روشتة المورفين. يقضي المدمن نصف عمره ينتظر. كان في المنزل قطّ نربّيه، كان رمادياً وقبيح الهيئة. رفعته ووضعته على ركبتي وداعبته. عندما حاول أن ينزل، أحكمت قبضتي عليه. بدأ القط يموء ويبحث عن وسيلة للهروب.

أخفضت رأسي ولمست بأنفي أنفه البارد، فخدش وجهي. كان خدشاً جزئياً، ولم ينزل. لكن كان هذا كلّ ما احتجته. أمسكت القط بذراع مستقيمة مبعداً إياه عنّي، وصفعته مراراً على وجهه. بدأ يصرخ، حاول أن يخدشني وبدأ يبول على سروالي. واصلت صفعه ونزفت يداي من الخدوش. تلوّى الحيوان وفلت راكضاً نحو الخزانة، حيث سمعته يئنّ وينشج في ذعر.

«سأقضي على الوغد الآن» قلت، وأمسكت بعصا ملونة وثقيلة. سال العرق على وجهي. ارتجفت وأنا في حالة اهتياج. لعقت شفتي وبدأت أسير نحو الخزانة، وأنا في حالة تأهب لمنع القط من الهروب.

هنا تدخلت زوجتي، وأنزلت العصا، خرج القط من خزانة وركض أسفل الدرج.





نظرت إليّ زوجتي، مبتسمة:

ـ «ألا تخجل من نفسك يا بيل؟ أحياناً لا أدري. أحياناً ببساطة لا أدري»، قالت وهي تهزّ رأسها.

* * *

أحضر لي أيك الكوكايين كلما استطاع إليه سبيلاً. من الصعب أن تجد الكوكايين في المكسيك. قبل ذلك لم أتعاط الكوكايين الجيّد. الكوكايين سطلته صافية. يرفعك إلى أعلى، رفعة ميكانيكية تبدأ بالانسلاخ عنك لحظة إحساسك بها. لا أعرف شيئاً يرفعك أكثر من الكوكايين، لكنها تستمر عشر دقائق أو نحو ذلك. ثم تعود وترغب بحقنة أخرى. عندما تحقن الكوكايين، فإنك تحقن المزيد من المورفين حتى تتوازن وتخفف حدة الأمر. بدون المورفين، يصيبك الكوكايين بالعصبية المفرطة، والمورفين هو ترياق للجرعة الزائدة. الجسد لا يعتاد الكوكايين، والمسافة بين الجرعة العادية والجرعة القاتلة ليست كبيرة. حدث لي مرات أن حقنت أكثر من اللازم واسودّ كل شيء وبدأ قلبي يتقلّب. لحسن الحظ توفّر المورفين عندي على الدوام، وحقنة مورفين واحدة وازنتني.

عندما تكون مدمناً، يكون الهيروين ضرورة بيولوجية، فماً غير مرئي. بعد حقنة الهيروين تشعر بالاكتفاء، تماماً كتناولك وجبة كبيرة. لكن عندما تتعاطى الكوكايين، سترغب في حقنة إضافية بعد أن يزول تأثير المادة. إذا توفر لديك الكوكايين في المنزل، لن تذهب لمشاهدة فيلم أو لن تخرج أساساً حتى نفاد الكوكايين. حقنة واحدة تخلق رغبة





ملحّة في حقنة أخرى تحافظ على السّطل. لكن بمجرّد خروج الكوكايين من نظامك، تنساه. لا يوجد إدمان على الكوكايين.

* * *

يُحدث الكوكايين دوائر قصر قصيرة في الجنس. الدافع الاجتماعي اللا جنسي، ينبع من نفس المكان الذي يثير الجنس، لذلك عندما أكون مدمناً على الكوكايين أو المورفين لا أكون اجتماعياً. إذا كان هناك من يرغب في الحديث، لا مشكلة. ولكن ينعدم عندي دافع التعارف. عندما أتعافى من الهيروين، غالباً ما أمر بفترة مؤانسة غير منضبطة وأتحدث إلى كل من يصغي.

الهيروين يأخذ كل شيء ولا يعطي شيئاً سوى التأمين ضد نوبة الهيروين. من وقت لآخر فكّرت في الصفقة التي عقدتها مع نفسي، وقررت أن أتعالج. عندما تتوفر لديك كميات من الهيروين، يبدو العلاج أمراً سهلاً. تقول: «الحُقن لم تعد تسطلني. من الأفضل أن أتوقف». لكنك عندما تتوقف وتصاب بنوبة، تبدو الصورة مغايرة.

خلال السنة أو نحو ذلك، عندما كنت مدمناً في المكسيك، حاولت أن أقلع خمس مرات. حاولت الحدّ من كمية الحقن، حاولت العلاج الصينيّ، وكان تأثيره بطيئاً بالكاد أمكن ملاحظته.

بعد فشل علاج الفياسكو الصيني، قمتُ بتحضير بعض الجرعات وسلّمتها إلى زوجتي كي تخبئها وتناولني منها وفق جدول زمني. رافقني أيك لتحضير الجرعات، لكنه كان مشتتاً بعض الشيء، وكان جدول أعماله مكتظاً في البداية ومفاجئاً في النهاية، بلا أي تدرج. لذلك أعددت جدولي بنفسي. تتبعت الجدول لفترة، لكني لم أمتلك دافعاً





حقيقياً. حصلت من أيك على المزيد من المادة وكانت لي أعذار لحُقن غير واردة في الحسبان.

كنتُ أعرف أني لا أريد أن أواصل تعاطي الهيروين. لو استطعتُ اتّخاذ قرار واحد، لقررت الكفّ عن تعاطي الهيروين مرّة وللأبد. لكنّي عندما وصلت إلى مرحلة الإقلاع، لم تكن بي طاقة نفسيّة. في كلّ مرة رأيت نفسي أخالف الجدول الذي حدّدته لنفسي، وكأنّي لم أملك سيطرة على أفعالي، خالطني شعور فظيع بالعجز.

* * *

في صباح أحد أيّام نيسان، استيقظت وأنا أعاني من نوبة بعض الشيء. رقدت في السرير وتأملت ظلال السقف المصنوع من الجص الأبيض. تذكرت فترة طويلة مضت استلقيت فيها على السرير بجانب والدتي، وراقبت أضواء قادمة من الشارع قطَعَت السقف وتحركت أسفل الجدران. شعرت بحنين حادّ إلى صفارات القطارات، إلى موسيقى البيانو في أحد شوارع المدينة، وإلى الأوراق الملتهبة.

عندما تكون النوبة معتدلة، أعادتني دائماً إلى سحر الطفولة. قلت في قرارة نفسي: «نجح الأمر دائماً». تماماً مثل الحقنة. ترى هل يصل جميع الحشاشون إلى هذه الأشياء الرائعة».

ذهبت إلى الحمام لتعاطي حقنة. مر وقت طويل حتى وجدت وريداً. انسدت الإبرة مرتين. سال الدم أسفل ذراعي. انتشر الهيروين في جسدي، حقنة الموت. تلاشى الحلم. نظرت إلى الدم الذي سال من الكوع إلى الرسغ. شعرت بالشفقة المفاجئة على الأوردة والأنسجة المنتهكة. مسحت الدم من ذراعي برقة.





«سأتوقف» قلت بصوت عال.

حضّرتُ محلولاً من الأفيون وقلت لأيك ألا يأتي لعدّة أيام.

ـ قال: «آمل أن تنجح يا فتى. آمل أن تقلع عن ذلك. ليتني أسقط وأشلّ لو كنت لا أعني ما أقول».

في ثمانٍ وأربعين ساعة نفد تراكم المورفين من جسدي. بالكاد أثّر المحلول على النوبة. تجرعته كلّه مع قرصين من المسكّنات ونمت عدة ساعات. عندما استيقظت، غرقت ملابسي بالعرق. كانت عيني تدمعان وتحرقان. شعرت بحكة وتهيّج في كافة أنحاء جسمي. تلوّيتُ على السرير، قوّست ظهري ومددت ذراعي وساقي. رفعت ركبتي إلى أعلى فيما يداي مشبوكتان بين الفخذين. كان ضغط يديّ كافياً لإطلاق الزناد الحساس لسطلة النوبة.

قمت وبدّلت ملابسي الداخلية.

لم يتبق في الزجاجة سوى القليل من الأفيون. تجرعته، خرجت واشتريت أربعة أنابيب من كبسولات الكودئين. تناولت الكودئين مع الشاي الساخن وشعرت بتحسن.

ـ قال لي أيك: «أنت تسير بوتيرة سريعة. اسمح لي أن أحضر لك مزيجاً».

أمكنني سماعه وهو يدندن في المطبخ ويحضّر المزيج:

ـ «بعض من القرفة إذا بدأ يتقيأ... القليل من المريميّة للتغوط... بعض من القرنفل لتنظيف الدم..».

لم أتذوّق شيئاً أفظع من هذا في حياتي، ولكن المزيج وازن النوبة





عند نقطة محتملة، لذلك شعرت بالسطل قليلاً. لم أكن مسطولاً من المورفين. كنت مسطولاً من تمارين الانسحاب من الإدمان. الهيروين هو تلقيح الموت الذي يبقي الجسم في حالة طوارئ. عندما ينقطع الهيروين، تستمر ردّات فعل حالة الطوارئ. تصبح الأحاسيس حادّة، يعي المدمن للعمليات الأحشائيّة إلى درجة غير مريحة، لا يمتلك سيطرة على التمعّج والإفرازات. بغض النظر عن عمره الحقيقيّ، يتعرّض المدمن المنسحب لتهيّجات عاطفيّة لطفل أو لمراهق.

في اليوم الثالث تقريباً من تناولي المزيج الذي أعدّه أيك، بدأت أشرب. عندما كنت مدمناً أو عانيت من نوبة إدمان، لم أكن قادراً على الشّرب. ولكن الأفيون يختلف عن حقن الهيروين. يمكن خلط الأفيون مع الكحول.

في البداية شربتُ في الخامسة بعد الظهر. بعد أسبوع، بدأت أشرب في الثامنة صباحاً، بقيت مخموراً طيلة النهار والليل، واستيقظت وأنا مخمور صباح اليوم التالي.

كنت أنهض كل صباح، أضع كبسولات البنزيدرين، السانيسين، وقطعة أفيون مع القهوة السوداء وكأساً من التكيلا. بعد ذلك أتمدد على السرير وأغلق عينيّ محاولاً تذكر الليلة السابقة، ونهارها. في أحيان كثيرة، لم أتذكر شيئاً من فترة بعد الظهر وما تلاها. تستيقظ أحياناً من الحلم وتقول في نفسك، «الحمد لله، لم أفعل ذلك حقاً!» عندما تستعيد في ذهنك فترة مظلمة تقول: «يا إلهي، هل فعلاً فعلت ذلك؟». الخط الفاصل بين القول والفعل مشوش. هل قلت ذلك أم أنّي فكرت فيه فقط؟

بعد مضي عشرة أيام على العلاج تدهورت بشكل مريع. تبقّعت ملابسي وتيبّست من المشروبات التي سكبتها على نفسي. لم أستحم.





انخفض وزني، ارتعشت يداي، وكنت دائماً أريق الأشياء، أسقط الكراسي، وأسقط. ولكن بدا أن بي طاقة لا حدود لها وقدرة على استيعاب الكحول لم تكن لدي من قبل. عاطفياً، فضت من كل مكان. كنت اجتماعياً بلا حساب، وتحدثت إلى أي شخص استطعت فقط أن أمسك به. أجبرت الغرباء المثاليين على الإصغاء إلى أسرار حميمة لدرجة النفور. عدة مرات، كانت لي مقترحات جنسية جريئة لأشخاص لم يُلمحوا بالموضوع.

حضر أيك كل بضعة أيام.

ـ «أنا سعيد لرؤيتك تتعافى يا بيل. ليتني أسقط وأشلّ لو كنت لا أعني ما أقول».

نظر أيك بجدية إلى تعاطيّ الكحول.

ـ «أنت تشرب يا بيل. أنت تشرب وتجن. تبدو فظيعاً. وجهك يبدو فظيعاً. الأفضل أن تعود إلى الإدمان على أن تشرب».

* * *

قضيت وقتي في خمّارة رخيصة في شارع دولوريس في مدينة مكسيكو. واصلت الشرب نحو أسبوعين. جلست في مقصورة برفقة ثلاثة مكسيكيين، وشربنا تكيلا. المكسيكيون كانوا مهندمين. أحدهم تحدث الإنجليزية. مكسيكي قوي البنية، في منتصف العمر، وله وجه حزين وحلو، غنّى وعزف على الغيتارة. جلس على الكرسي في طرف المقصورة. كنت سعيداً لأن الأغاني لم تتح مجالا للحديث.

دخل خمسة رجال شرطة. ظننت أنهم سيفتشونني، ففككت





المسدس والجراب من حزامي ورميتهما تحت الطاولة مع قطعة أفيون خبأتها في علبة السجائر. طلب رجال الشرطة البيرة على عجل وغادروا.

عندما مددت يدي تحت الطاولة، كان المسدس قد اختفى والجراب في مكانه.

جلست في حانة أخرى مع المكسيكي الذي أجاد الإنجليزية. اختفى المغني والمكسيكيان الآخران. تلون المكان بضوء أصفر باهت. فوق طاولة المشرب المصنوعة من الخشب الماهوغاني عُلّقَ رأس ثور قديم. زينت الجدرانَ صورُ مصارعي ثيران، حمل بعضها توقيعاً. حُفرت كلمة «صالون» على الزجاج الأبيض للباب المتحرّك. وجدت نفسي أقرأ كلمة «صالون» مراراً. شعرتُ بأنّي سأنخرط في محادثة.

من تعابير وجه الرجل الذي كان أمامي، استنتجتُ أني قلتُ شيئاً، لكني لم أتذكر ما قلت، أو ما كنت على وشك أو أن أقوله، أو ماذا كان موضوع الحديث. ظننت أننا نتحدث عن المسدس. «يبدو أني أحاول أن أستعيده». انتبهت إلى أن الرجل يمسك بيده قطعة أفيون ويلهو بها.

ـ «إذاً، تعتقد أني أبدو كالمدمنين؟».

نظرت إليه. كان رجلاً نحيل الوجه وعظام وجنتيه عالية. كانت عيناه رماديتين تميلان إلى اللون البني تجدهما غالباً عند الأوروبيين من أصل هندي. ارتدى بذلة رمادية فاتحة اللون وربطة عنق. كان فمه ضامراً، وأطرافه ملتوية إلى الأسفل. فم مدمن بكل تأكيد. هناك أشخاص يبدون كالمدمنين، لكنهم ليسوا كذلك، تماماً كما يوجد أشخاص يبدون كالمثليين وهم ليسوا كذلك. هذا الصنف يسبب مشاكل.

ـ قال: «سأستدعي الشرطة»، وتوجه نحو الهاتف الذي كان موصولاً إلى عمود داعم.





سحبت الهاتف من يده ودفعته نحو طاولة المشرب بقوة وارتد. ابتسم الرجل إليّ. كانت كافّة أسنانه بنية. أدار ظهره ونادى على الساقي وأظهر له قطعة الأفيون. خرجت وركبت سيارة أجرة.

أذكر أني عدت إلى شقتي لآخذ سلاحاً آخر ـ مسدساً من العيار الثقيل. كنت في حالة من الغضب العارم الهستيريّ، على الرغم من أني لا أستطيع، وأنا أتذكر ذلك، أن أفهم السبب.

نزلت من سيارة أجرة ومشيت في الشارع ودخلت الحانة. اتكأ الرجل على طاولة المشرب، كان معطفه الرمادي مشدوداً على ظهره وكتفيه النحيلين. التفت إلي وخلا وجهه من أيّ تعبير.

ـ قلت له: «أخرج وامش أمامي».

ـ «لماذا يا بيل؟» سأل.

ـ «هيا، تحرك».

سحبت مسدسي الثقيل من حزام سروالي، صليتُه، وصوّبت فوهته نحو بطن الرجل. بيدي اليسرى، مسكت طية معطفه ودفعته نحو طاولة المشرب. لم يخطر في بالي للحظة أن الرجل نطق اسمي الشخصي الصحيح وبدا أن الساقي قد عرفه أيضاً.

كان الرجل مسترخياً تماماً، وجهه خالياً من أي تعبير وفيه خوف متوازن. رأيت شخصاً يقترب من خلفي من الجانب الأيمن، أدرت رأسي جزئياً. اقترب الساقي منّا برفقة شرطيّ. التفت حولي، منزعجاً من الانقطاع، وضعت المسدس في بطن الشرطيّ.

ـ «من طلب منك أن تتدخل أساساً؟» سألته باللغة الإنجليزية.





لم أتحدث إلى شرطيّ ثلاثي الأبعاد صلب الجسم. تحدّثت إلى شرطيّ يزورني في أحلامي ـ مزعج، غريب، قاتم، يقتحم وأنا على وشك أن أتعاطي حقنة أو أضاجع فتى.

مسك الساقي ذراعي، لواها وأبعدها عن بطن الشرطيّ. أخرج الشرطيّ ببلادة مسدّس عيار ٠,٤٥، وألصقه بقوّة بجسدي. أمكنني أن أشعر ببرودة فوهة المسدّس عبر قميصي القطني الرقيق. برز بطن الشرطيّ. لم يدخله ولم ينحن إلى الأمام. أرخيت يدي عن المسدس، وشعرت بأنه يترك يدي. رفعت يديّ قليلاً، ولوّحت بالكفّين عالياً إشارة إلى الاستسلام.

ـ قلت: «حسناً، حسناً»، وأردفت «*bueno*».

أعاد الشرطيّ المسدس إلى مكانه. اتكأ الساقي على طاولة المشرب وتفحص المسدس. الرجل ذو البذلة الرمادية وقف دون أي تعبير على الإطلاق.

ـ «*Esta cargado*» («إنّه ملقّم»)، قال الساقي، دون أن يشيح نظره عن المسدس.

نويتُ أن أقول: «بطبيعة الحال، ما جدوى المسدس الفارغ؟» ولكن لم أقل أي شيء. كان المشهد غير واقعي وسطحياً وعبثياً، وكأني اضطررت إلى ولوج حلم شخص آخر، فالسكران يهيم على المسرح.

ولم أكن واقعياً تجاه الآخرين، غريباً من بلاد غريبة. نظر إلي الساقي في فضول. هز كتفيه بحركة بسيطة نمت عن اشمئزاز محيّر ووضع المسدس في حزامه. لم تكن هناك كراهية في الغرفة. ربما لو كنت قريباً منهم لكرهوني.

مسك الشرطيّ ذراعي وقال:





ـ «*"Vamanos gringo"*» («تعال أيّها الغريب»). خرجت معه. شعرت بالضّعف وبالكاد سيطرت على قدميّ. تعثّرت فجأة، ومسكني الشرطيّ. حاولت أن أبيّن أنه، رغم أني بلا أموال، يُمكنني أن أقترض من الأصدقاء .كان دماغي مشوشاً. خلطت بين الإسبانية والإنكليزية واختبأت كلمة «اقتراض» في إحدى خزائن التوثيق في ذهني، الذي انقطع عني بحكم الحواجز الميكانيكية التي شوّشتها الكحول. هزّ الشرطي رأسه. بذلتُ مجهوداً في تحسين هذه الفكرة. فجأة توقف الشرطيّ عن السير.

ـ «Andale gringo» («أسرع أيّها الغريب»)، قال وهو يدفعني قليلاً من كتفي. وقف الشرطي هناك لمدة دقيقة، ونظر إلي وأنا أواصل سيري في الشارع. لوحت له. لم يرد. استدار وعاد من نفس الطريق.

تبقّت معي بيزو. دخلت حانة وطلبت بيرة. لم تكن هناك بيرة من البرميل، وزجاجة البيرة سعرها بيزو. تواجدت هناك مجموعة من الشباب المكسيكيين عند طرف طاولة المشرب وبدأت أتحدث إليهم. أظهر لي أحدهم بطاقة الخدمة السرية. قررت أنها على الأغلب مزيفة. هناك شرطي مزيف في كل حانة مكسيكية. وجدت نفسي أشرب تكيلا. وآخر شيء تذكرته هو طعم الليمون الحاد الذي مصصته مع كأس التكيلا.

استيقظت صباح اليوم التالي في غرفة غريبة. نظرت من حولي.

ملهى وضيع. خمسة بيزو. خزانة، كرسي، طاولة. من خلال الستائر المغلقة استطعت أن أرى الناس يمرون في الخارج. طابق أرضي. بعض ملابسي تكومت على الكرسي. معطفي وقميصي وُضعا على الطاولة.

رفعت ساقي عن السرير، وجلست هناك أحاول أن أتذكر ما حدث





بعد آخر كأس تكيلا. لا شيء. نهضتُ من السرير وسجّلت قائمة بأغراضي.

ـ «قلم السائل اختفى. على أيّة حال، كان يسرّب... كلّ أقلامي كانت تسرّب... اختفت المطواة.. وهي أيضاً لم تكن شيئاً ذا قيمة.. «بدأت أرتدي ملابسي. ارتجفت». أحتاج إلى بعض البيرات على وجه السرعة... ربما نجحت بأن أجد رولينس في المنزل».

كانت المسافة طويلة. كان رولينس أمام شقته، يتجول مع كلبه. كان رجلاً في مثل سنّي متيناً، ذا ملامح قوية ووسيمة، شعره أسود اختلط ببعض الشيب. ارتدى قميصا رياضياً باهظاً، معطف صوف باهظاً، وسروالاً من قماش، ومعطفاً جلدياً سويدياً. تعارفنا قبل ثلاثين عاماً.

استمع رولنس إلي وأنا أروي أحداث ليلة الأمس.

ـ قال: «سيفجرون رأسك بسبب هذا المسدس. لماذا تحمله؟ حتى إنّك لم تعرف على أي شيء أطلقت النار. اصطدمتَ مرتين بالأشجار في شارع إينسورجينتيس. سرت أمام سيارة مسافرة. عندما جذبتك إلى الخلف هددتني. تركتك هناك وكان من المفروض أن تعود إلى منزلك، ولا أدري كيف وصلت. لقد سئم الجميع من تصرفاتك في الآونة الأخيرة. إذا كان هناك شيء لا أريد أن أتواجد بقربه، وأعتقد أنه ما من شخص يريد ذلك، هو رجل سكران يحمل مسدساً».

ـ «أنت على حق، بالطبع»، قلت.

ـ «حسناً، أريد أن أساعدك بأيّ طريقة ممكنة. ولكن عليك أولاً أن تتوقف عن الشرب وتحسّن صحتك. تبدو فظيعاً. الأفضل لك أن تفكّر





في طريقة تكسب فيها المال. وما دمنا نتحدّث عن المال، أظنك مفلساً، كالعادة». أخرج رولينس محفظته.

ـ «خذ خمسين بيزو. هذا أكثر ما يمكنني أن أقدّمه لك».

سكرتُ بالمال. زهاء الساعة التاسعة في تلك الليلة، نفد المال وعدت إلى شقتي. استلقيت وحاولت أن أنام. عندما أغمضت عيني رأيت وجهاً شرقياً، أكل المرض منه الأنف والشفتين. انتشر المرض، وأذاب الوجه إلى كتلة أميبية عامت فيها العينان، عينا حيوانٍ قشريّ ثقيلتان. ببطء، تشكل وجه جديد من حول العينين. سلسلة من الوجوه، هيروغليفية، مشوهة وتؤدي إلى المكان النهائي حيث تنتهي طريق البشرية، حيث لم يعد بإمكان الشكل البشري أن يحتوي رعب الحيوان القشري الذي نما داخله.

شاهدت بفضول. «أعاني من الكوابيس»، فكّرت بشكل عمليّ.

استيقظت وبي إحساس فجائيّ بالخوف. رقدت في السرير، نبض قلبي بسرعة، وحاولت أن أعرف ما الذي أخافني. ظننت أني سمعت ضجيجاً خفيفاً في الطابق السفلي. «هناك شخص في الشقة» قلت بصوت عال، وعلى الفور عرفت أن هناك أحداً.

تناولت بندقيتي الكاربين ٣٠ ـ ٣٠ من الخزانة. ارتعشت يداي، وبالكاد نجحت في تلقيم البندقية. أوقعت عدة رصاصات على الأرض قبل حشو رصاصتين في حجرة الإطلاق. ظلّت ساقيّ تنثنيان. نزلت وأشعلت جميع الأضواء.

لا أحد. لا شيء.

داهمتني نوبة من الرعشات، وفوق ذلك عانيت من نوبة هيروين!





«متى حقنت نفسي آخر مرة؟» تساءلت. لم أستطع أن أتذكر. قلبت الشقة بحثاً عن الهيروين. قبل ذلك بقليل، كنت قد خبأت قطعة أفيون في إحدى زوايا الغرفة. انزلق الأفيون تحت ألواح الأرضية، بحيث صار صعب المنال. قمت بعدة محاولات فاشلة لاستعادتها.

«سأنجح هذه المرة» قلت بتجهّم. بيدين مرتجفتين أدخلت شماعة ملابس، وشرعت في صيد الأفيون. سال العرق أسفل أنفي. قشرت جلد يدي بالحواف الخشبية الخشنة لثقب الأرضية. «إن لم أنجح في إخراجها بهذه الطريقة، سأخرجها بطريقة أخرى» قلت بتجهّم، وبدأت أبحث عن المنشار.

لم أتمكن من العثور عليه. ركضت من غرفة واحدة إلى أخرى، أفرغت ما في الأدراج على الأرض وأنا في حالة هيجان مطّرد. حاولت أن أقتلع ألواح الأرضية باليدين وأنا أتنفّس بغضب. أخيراً اكتفيت وتمددت على الأرض وأنا ألهث وأنشج.

تذكرت أن هناك بعض الكبسولات من الديونين في خزانة الأدوية. نهضت لأتأكد. بقيت كبسولة واحدة فقط. عندما سخنتها في الملعقة، كان لونها حليبياً وخشيت أن أحقنها مباشرة في الوريد. رعشة مفاجئة لا إرادية في يدي سَحَبَت الإبرة من ذراعي ورشقتها على كامل جلدي. جلست هناك أنظر إلى ذراعي.

أخيراً، نمت قليلاً واستيقظت صباح اليوم التالي وبي اكتئاب فظيع من أثر الكحول. نوبة الانسحاب، التي أرجأها الكودئين والأفيون، وأسابيع من الشرب المتواصل، عادت بقوة. «يجب أن أحصل على بعض الكودئين» قلت في قرارة نفسي.

فتشت في ملابسي. لا شيء، لا سجائر، ولا عملة سنتافو. قصدتُ





غرفة المعيشة واتّجهت صوب الأريكة، حيث ظَهر الأريكة موصولٌ بالمقعد. وضعت يدي على طولها.

مشط، وقطعة من الطباشير، قلم رصاص مكسور، قطعة نقدية من فئة عشرة سنتافو، ومن فئة خمسة. شعرت بصدمة مقززة من الألم وسحبت يدي. نزفت من أثر جرح عميق في إصبعي. واضح أنها شفرة حلاقة. مزقت قطعة من منشفة ولففتها حول إصبعي. تشرّب الدم وسال على الأرض. أخرجت زوجتي في محاولة لاقتراض بعض المال.

ـ قالت: «لقد أحرقنا الجسور مع الجميع. لكن سأحاول».

عدت إلى السرير. لم أستطع أن أنام. لم أستطع أن أقرأ. استلقيت هناك ونظرت إلى السقف في لا مبالاة.

بسرعة غامضة قطعت علبة ثقاب باب الحمام. جلست وقلبي ينبض. «أيك تاجر المخدرات!» في أحيان كثيرة تسلل أيك إلى المنزل وظهر مثل شبح، ألقى بشيء ما أو دق على الجدران. ظهر أيك عند المدخل.

ـ «كيف تسير أمورك؟» سأل.

ـ «لست بأفضل حال. أعاني من رعشات. أحتاج إلى حقنة».

أومأ أيك. وبدأ:

ـ «نعم، المورفين هو أفضل شيء ضد الرعشات. أذكر أني كنت مرة في منيابوليس..».

ـ «دعنا من منيابوليس. هل معك شيء؟».

ـ «معي. لكن ليس هنا. أحتاج عشرين دقيقة لأجلبه».

جلس أيك وتصفح مجلة. رفع بصره.





ـ «لماذا؟ هل تريد؟».

ـ «نعم».

ـ «سأجلبه فوراً». غاب أيك لمدة ساعتين.

ـ «كان عليّ أن أنتظر الرجل ليعود من الغداء كي يفتح خزينة الفندق. أحتفظ بالمادة في الخزينة حتى لا يأخذها أحد. قلت لهم في الفندق إنها مسحوق ذهبي أستخدمه ل..».

ـ «لكنك جلبته؟».

«نعم، جلبته. أين عدّتك؟».

«في الحمام».

عاد أيك من الحمام مع العدة، وبدأ بتحضير الحقنة. واصل الكلام.

ـ «أنت تشرب وهذا يصيبك بالجنون. أكره أن أراك تقلع عن التعاطي وتبدأ بما هو أسوأ. أعرف العديد ممن أقلعوا عن الهيروين. وهناك العديد منهم لا يتدبرون مع لوبيتا. خمسة عشر بيزو للجرعة وتحتاج إلى ثلاث جرعات لتتوازن. يشرعون في الشرب فوراً ولا يحتملون أكثر من عامين أو ثلاثة».

ـ «هيا نحقن» قلت.

ـ «حسناً. دقيقة. الإبرة مغلقة».

بدأ أيك يتحسس حواف معطفه باحثاً عن شعرة خيل لتنظيف الإبرة. تابع الحديث:

ـ «أذكر أننا أبحرنا مرّة إلى ماري أيلاند. كنا على متن القارب،





وسكر الكولونيل وسقط في الماء وكاد يغرق مع مسدسيه. عانينا الأمرّين إلى أن انتشلناه». نفخ أيك في الحقنة.

ـ «مفتوحة الآن. أقابل شخصاً تعاملَ يوماً مع لوبيتا».

نادوه بـ «سمبريرو» لأنه خطف القبعات من الناس. كان يدنو من القطار وهو على وشك أن يتحرّك. يمدّ يده ويخطف القبعة ويختفي. «عليك أن تراه الآن. ساقاه منتفختان ومقرّحتان وقذرتان، يا إلهي! والناس يسيرون من حوله هكذا». وقف أيك حاملاً قطارة في يد وحقنة في اليد الأخرى.

ـ قلت له: «ماذا عن الحقنة؟».

ـ «حسناً. كم تريد؟ خمسة مليغرامات؟ الأفضل أن أجعلها خمسة».

مر وقت طويل حتى سرى مفعول الحقنة. نفدت ببطء في البداية، ثم تصاعدت قوتها. تمددت على السرير وكأني في حمام دافئ.

* * *

واصلت الشرب. بعد عدة أيام، فقدت وعيي في حانة «شيب أهوي» بعد أن شربت تكيلا لمدة ثماني ساعات متواصلة. حملني بعض الأصدقاء إلى المنزل. صباح اليوم التالي عانيت من أسوأ صداع خُمار في حياتي. بدأت أتقيأ على فترات لعشر دقائق حتى خرجت مني الصفراء بلون أخضر.

ثم ظهر أيك.

ـ «عليك الإقلاع عن الشرب يا بيل. أنت تصاب بالجنون».

لم أكن مريضاً إلى هذا الحد في حياتي. الغثيان مزق جسدي مثل





التشنج. مسكني أيك وأنا أتقيأ الصفراء في المرحاض. وضع ذراعي على كتفه وعانقني وساعدني على العودة إلى السرير. زهاء الخامسة بعد الظهر، توقفت عن التقيؤ وتمكنت من إبقاء زجاجة من عصير العنب وكوب من الحليب في معدتي.

ـ قلت: «الرائحة هنا نتنة مثل رائحة البول. لا بدّ وأنّ إحدى القطط بالت تحت السرير».

بدأ أيك يتشمم الرائحة من حول السرير.

ـ «لا، لا شيء هناك». وشمّ قليلاً بالقرب من رأس السرير، حيث استلقيتُ مسنوداً إلى الوسائد. «بيل، الرائحة تنبعث منك أنت!».

ـ «هاه؟» بدأت أشم يدي في خوف متصاعد، كمن اكتشف أنه مريض بالجذام. قلت: «يا إلهي!»، وشق برد الخوف معدتي.

ـ «أنا مصاب بتسمّم يوريميّ! أيك، أخرج وأحضر لي طبيباً».

ـ «حسناً يا بيل، سأحضر لك الطبيب حالاً».

«لا تعد إلي بأحد هؤلاء المتشردين الذي يكتبون الروشتات من أجلك!».

ـ «حسناً يا بيل».

رقدت في السرير محاولاً السّيطرة على الخوف. لم أعرف الكثير حول التسمم اليوريمي. هناك امرأة عرفتها في تكساس توفيت منه بعد أن شربت زجاجة بيرة مرة كلّ ساعة، ليلاً ونهاراً، لمدة أسبوعين. أخبرني رولينس بذلك. «انتفخت واسودّت وبدأت تعاني من التشنجات وماتت. فاحت من منزلها رائحة بول!».





حاولت أن أهدأ وأركّز في أمعائي لمعرفة الموضوع. لم أشعر بالموت أو بأي إشارة تدل على مرض خطير. شعرت بأني متعب، ومحطم، وواهن. رقدت هناك بعينين مغمضتين في غرفة مظلمة.

عاد أيك برفقة الطبيب وأشعل الضوء. كان طبيبا صينياً، ممن يكتبون الروشتات الطبية من أجل أيك. قال إني لا أعاني من اليوريميا لأني قادر على التبول ولا أعاني من صداع.

ـ سألت: «لم رائحتي نتنة بهذا الشكل؟».

تجاهل الطبيب.

ـ قال أيك: «يقول إنه ليس أمراً خطيراً. ويقول إنه يجب عليك أن تتوقف عن الشرب. ويقول إنّه من الأفضل لك أن تعود إلى ذلك الشيء على أن تواصلَ الشرب».

أومأ الطبيب. أمكنني أن أسمع أيك في الردهة وهو يلحّ على الطبيب بأن يكتب له روشتة للمورفين.

ـ «أيك، أعتقد أن الطبيب لا يعرف شيئاً. أريد منك أن تفعل ما يلي. اذهب إلى صديقي رولنز ـ سوف أسجّل لك عنوانه، وأطلب منه أن يرسل إليّ طبيباً جيداً. من المؤكد أنه يعرف طبيباً، لأن زوجته كانت مريضة».

ـ قال أيك: «حسناً، وهو كذلك. لكن أعتقد أنك تبذر أموالك. هذا الطبيب جيد بما يكفي».

ـ «نعم، يجيد الكتابة».

ضحك أيك وهز كتفيه.

ـ «حسناً».





عاد بعد ساعة واحدة برفقة رولنس وطبيب آخر. عندما دخلوا الشقة، تنشق الطبيب وابتسم، ثم التفت نحو رولنس وأومأ برأسه. كان ذا وجه شرقيّ مستدير. فحصني بسرعة وسأل إن كان بإمكاني أن أتبول. ثم التفت نحو أيك، وسأل إذا عانيتُ من نوبات غضب.

ـ قال أيك: «إنه يسأل إن كان يصيبك الجنون أحياناً. قلت له، لا، وإنك فقط تلهو مع القط أحياناً».

تحدث رولينس الإسبانية بشكل متقطع، وبحثَ عن كلّ كلمة.

*«Esto senor huele muy malo and quiere saber por qué.»*

(«هذا الرجل رائحته سيّئة للغاية ويريد أن يعرف السبب»).

أوضح الطبيب أنها بداية تسمم يوريمي، ولكن الخطر زال. عليَّ التوقف عن شرب لمدة شهر. رفع الطبيب عن الأرض زجاجة تكيلا فارغة. «زجاجة واحدة أخرى كهذه كانت ستقتلك». أدخل عدته في حقيبته. كتب روشتة طبية لتحضير مادة مقاومة للأحماض لأتناولها مرة كل عدة ساعات، صافحني وصافح أيك ورحل.

في اليوم التالي شعرت بجوع شديد وأكلت كل ما رأيته أمامي. بقيت في السرير ثلاثة أيام. توقف النظام الأيضي للكحول عن العمل. عندما بدأت أشرب مرة أخرى، شربت بشكل معقول، وليس قبل ساعات الظهر المتأخرة. لم أعد إلى تعاطي الهيروين.

* * *

في ذلك الوقت اعتاد المتخصصون في المكاتب الحكوميّة ارتياد «لولا» نهاراً و«شيب أهوي» ليلاً. لم تكن «لولا» حانة تماماً. كانت مكاناً صغيراً للبيرة والمشروبات الخفيفة. عند دخولك المكان، تجد عن يسار





الباب صندوقاً مليئاً بزجاجات البيرة والمشروبات والثلج. مشرب بكراسي بلا ظهر مصنوعة من الأنابيب المعدنية، مغطاة بجلد لامع أصفر، مصفوفة على طول الحائط حتى الصندوق الموسيقيّ. على طول الجدار المتواجد أمام المشرب كانت هناك طاولات. الكراسي فقدت منذ مدة الأغطية المطاطيّة للقدمين وأطلقت صوتاً فظيعاً كلّما حركتها الخادمة لتكنس. من الخلف كان هناك مطبخ، وطباخ بملابس وسخة يقلي كلّ شيء بزيت فاسد. في «لولا» لم يكن هناك ماض ولا مستقبل. كان المكان عبارة عن غرفة انتظار.

جلست في «لولا» وقرأت صحيفة. بعد حين، تركت الصحيفة ونظرت من حولي. على الطاولة المجاورة تحدّث شخص عن عمليّة جراحيّة في المخّ. «يقصّون الأعصاب». على طاولة أخرى حاول شابان معاكسة فتاتين مكسيكيّتين.

*"Mi amigo es muy, muy..." (صديقي جداً، جداً...)* بَحَثَ عن كلمة. *قهقهت الفتاتان.* كان الكلام سطحياً كابوسياً، مكعّباتٌ ناطقة انسكبت داخل الكراسي المصنوعة من الأنابيب المعدنيّة، كتلٌ بشريّة تحلّلت في فراغ كَونيّ - أحداث عشوائيّة في كَونٍ يحتضر حيثُ كلّ شيء هو بالضبط كما يبدو، ولا علاقة واردة سوى التجاور.

لم أقرب الهيروين منذ شهرين. عندما تقلع عن الهيروين، يبدو كلّ شيء مسطّحاً، ولكنّك تتذكّر جدولَ الحقن، رعبَ الهيروين الدائم، وحياتَك المصبوبة في ذراعك ثلاث مرات يومياً.

التقطت القسم الهزلي من الصحيفة عن طاولة قريبة. كان هناك منذ يومين. أعدته. لا شيء يمكنني أن أفعله. لا مكان أذهب إليه. كانت





زوجتي في أكابولكو مع الأولاد. بدأت أعود أدراجي إلى الشقة، ورصدت أيك عند زاوية الشارع.

بعض الناس يمكنك أن ترصدهم على مدى بصرك. آخرون لا يمكنك التأكد من هوياتهم حتى يكونوا قريبين ما يكفي كي تلمسهم. المدمنون في الغالب أصحاب تركيز حاد. في وقت ما ارتفع ضغط دمي فرحاً عند رؤية أيك. عندما تتعاطى الهيروين، يكون التاجر مثل المعشوق للعاشق. تنتظر خطوته الاستثنائية في الرواق، دقته الاستثنائية، تتفحص الوجوه المقتربة في شارع المدينة. يمكنك أن تهذي بكل تفصيلة في مظهره كما لو كان يقف في المدخل، ويروي نكتة التاجر القديم ذاتها: «آسف لتخييب ظنّك، ولكن لم أتمكّن من تحصيل شيء». يتأمّل مسرحيّة الأمل والقلق على الوجه الآخر، يستمتع بإحساس قوّ الخير، القدرة على المنح أو المنع. بات فعل ذلك على الدوام في نيو أورلينز. وبيل غينز فعلها في نيويورك. أقسم أيك أنه لم يمتلك شيئاً، ثم أدخل اللفافة في جيبي وقال: «انظر، دائماً معك شيء».

لكني الآن بعيد عن الهيروين. مع ذلك، فإن حقنة من المورفين ستكون شيئاً لطيفاً في وقت لاحق قبل النوم، أو الأفضل، الكرة السريعة، نصف كبسولة من الكوكايين، ونصف كبسولة من المورفين. فاجئتُ أيك عند باب الشقة. وضعت ذراعي على كتفه والتفت بدوره. عندما عرفني، ابتسم ابتسامة مدمن بوجه امرأة عجوز بلا أسنان.

ـ قال: «مرحباً».

ـ قلت: «لم أرك منذ دهر. أين كنت؟».

ـ ضحك وقال: «كنت في السجن. على أيّة حال، لم أرغب في المجيء لأني عرفت أنّك تعافيت. تعافيت تماماً؟».





ـ «نعم، تعافيت».

ـ «إذاً، ألا ترغب في حقنة؟» ابتسم أيك.

«حسناً..» شعرت بشيء من الإثارة القديمة مثل اجتماعك بشخص ما كنت تضاجعه، وفجأة تعود الإثارة وكلاكما تعرفان أنكما ستتضاجعان من جديد.

حرك أيك يده مبدياً استهجاناً.

ـ «معي هنا حوالي عشرة مليغرامات. بالنسبة إليّ، هي لا تكفي. ومعي أيضاً بعض الكوكايين».

ـ «هيا ادخل» قلت.

فتحت الباب. كانت الشقة مظلمة وعفنة. ملابس، كتب وصحف، كؤوس وأواني قذرة على الكراسي والطاولات والأرض القذرة. أزحت كومة من المجلات عن أريكة مهلهلة.

ـ قلت: «اجلس. معك المادة هنا؟».

ـ «نعم، مخبأة».

وفتح سحّاب سرواله وسحب حزمة من الأوراق المستطيلة ـ الملفوفة كما يفعل المدمن، حيث طرف مجدول بطرف آخر. داخل الحزمة كانت هناك حزمتان أصغر حجماً، مطويتان بالمثل. وضعهما على الطاولة. نظر إليّ بعينين بنيّتين تلمعان. فمه، الذي كان بلا أسنان ومحكم الإغلاق، بدا وكأنّه مخاط.

قصدت الحمام لأحضر عدّتي. إبرة، قطّارة، وقطعة من القطن. سحبت ملعقة من كومة العدة الملوثة في مغسلة المطبخ. مزّق أيك





شريطاً طويلاً من الورق ورطّبه بفمه ولفّه حول القطارة. ألبس قاعدة الإبرة على قبة الورق الرطب. فتح ورقة، وحرص على ألا تقلب حركةُ الورق الشّمعيّ المواد.

ـ قال: «هذا هو الكوكايين. احذر. هذه مادّة قويّة».

أفرغت ورقة المورفين في ملعقة، مضيفا قليلاً من الماء. قدّرت ما يقارب نصف حبّة. أقرب إلى أربعة مليغرمات منه إلى عشرة. أمسكت بعود ثقاب تحت الملعقة إلى أن ذاب المورفين. الكوكايين لا يُسخّن. أضفت القليل من الكوكايين بطرف شفرة سكين وذاب الكوكايين على الفور، مثل الثلج في الماء. لففتُ ربطة عنق رثّة حول ذراعي. تسارعت أنفاسي من الانفعال، وارتعشت يداي.

ـ «احقنّي يا أيك، حسناً؟».

أقحم أيك إصبعاً رقيقة على طول الوريد، ومسك القطّارة محافظاً على توازنها بين الإبهام والأصابع. كان أيك ماهراً. بالكاد شعرت بدخول الإبرة في الوريد. تدفق الدم الأحمر في القطارة.

ـ قال: «حسناً، دعه يتدفّق».

أرخيتُ الربطة، وتدفّقت القطارة في وريدي. وصل الكوكايين إلى رأسي، شعرت بدوار وتوتر لذيذَين، بينما انتشر المورفين في جسدي على شكل أمواج خفيفة.

ـ «هل كان جيداً؟» سأل أيك، وهو يبتسم.

ـ «إذا خلق الله شيئاً أفضل، فقد احتفظ به لنفسه»، قلت.

نظّف أيك الإبرة، وقد ضخّ الماء فيها.





ـ قال بإهمال: «حسناً، عندما يأتي يوم إحياء الموتى نحن أيضاً سنكون هناك، أليس كذلك؟».

جلست على الأريكة وأشعلت سيجارة. قصد أيك المطبخ لإعداد كأس من الشاي. بدأ بفصل آخر من ملحمة **الوغد الأسود** اللانهائية. «الوغد الأسود يعطي المال الآن لثلاثة أشخاص. ثلاثتهم نشالون ويبلون بلاء حسناً في السوق. يدفعون لرجال الشرطة. يعطيهم حوالي أربعة مليغرامات في الحقنة لقاء خمسة عشر بيزو. الآن، وأموره تسير على ما يرام، لا يريد أن يتحدّث معي، الوغد القذر. لن يصمدَ شهراً واحداً. انتظر وسترى. في اللحظة التي يتم القبض فيها على أحد هؤلاء الرجال سيشي عنه **بسهولة!**».

قصد أيك باب المطبخ ودقّ بأصابعه. «لن يصمدَ شهراً وحداً». فمه الذي خلا من الأسنان، التوى بالكراهيّة.

* * *

عندما خرقت شروط الكفالة وغادرت الولايات المتحدة، بدأ هياج الهيروين يظهر بشكل جديد وخاصّ. الأعراض الأولية للهستيريا العالمية كانت واضحة. في لويزيانا صودق على قانون يجعل من مدمن المخدرات مجرماً. بما أن القانون لا يشير إلى مكان أو زمن محددين، ومصطلح «مدمن» ليس محدداً بشكل واضح، فإنّ دليل الجريمة ليس ضرورياً أو حتى ذا صلة بموجب قانون مصاغ بهذا الشّكل. لا يوجد دليل، وبالتالي، لا توجد محاكمة. هذا هو تشريع الدولة البوليسية التي توقع عقاباً على حالة وجودية. ولايات أخرى داخل الولايات المتحدة تحاكي لويزيانا. كانت فرصتي في الإفلات من الإدانة تتضاءل يومياً مع





تزايد الشعور بمعاداة الهيروين وتحوّله إلى هاجس جنونيّ، مثل معاداة السامية في عهد النازيين. فقررت أن أخرق شروط الكفالة وأعيش بشكل دائم خارج الولايات المتحدة.

من مكاني الآمن في المكسيك، شاهدت حملة مكافحة الهيروين. قرأت عن مدمني المخدرات من الأولاد والشيوخ يطالبون بعقوبة الإعدام لتجار المخدرات. لم يستقم لي ذلك. من يريد ولداً زبوناً لديه؟ دائماً ينقصهم المال، ودائماً يعترفون بكلّ شيء في التحقيق. يكتشف الآباء والأمهات أن ابنهم مدمن ويتوجهون إلى الشرطة. تصوّرت إما أن تجار المخدرات في الولايات المتحدة صاروا سذّجاً، أو أن حكاية الأولاد المدمنين ما هي إلا روتين دعاية لإثارة المشاعر المناهضة للهيروين بغية تمرير بعض القوانين الجديدة.

دخل البوهيميّون اللاجئون جنوب المكسيك. «عقوبة السجن لمدة ستة أشهر بتهمة ظهور علامات حقن، بموجب قانون الإدمان في ولاية كاليفورنيا». «عقوبة السجن لمدّة ثمانية أعوام بتهمة استخدام قطّارة، في واشنطن». «عقوبة السجن من عامين إلى عشرة بتهمة المتاجرة بالمخدرات في نيويورك». اجتمعت مجموعة من الشبان البوهيميين في منزلي يومياً لتدخين الحشيش.

كان بينهم كاش، وهو موسيقي يعزف على البوق. كان هناك بيت، أشقر متين البنية استطاع أن يكون عارض أزياء لإعلان «أمريكان بوي». وجوني وايت، الذي كانت له زوجة وثلاثة أطفال وبدا مثل أي شابّ أمريكيّ عادي. وكان مارتين، فتى وسيم غامق البشرة من أصل إيطالي. لم يكن هناك زعران، فقد شكّل البوهيميّون حركةً سريّة.





تعلّمت معجمهم الجديد: مفردات جديدة للحشيش، للسّطل، ومفردة «cool»، وهي مفردة متعددة الغايات تشير إلى كل ما يناسبك أو كلّ وضع ليس مخلاً من الناحية لقانونيّة. وعلى عكس ذلك، فإنّ كلّ ما لا يعجبك هو «uncool». من خلال الإصغاء إلى هؤلاء الأشخاص، كوّنت صورة عن الوضع في الولايات المتحدة، فوضى تامة، لا يمكنك أن تعرف شيئاً عن شيء. أخبرني مدمنون قدماء أنّه: «إذا رأيت شخصاً يحقن نفسه، اعرف أنّه ليس وكيلاً فدرالياً».

لم يعد هذا صحيحاً. أخبرني مارتين: «هبط علينا شخص، وقال إنّه يعاني من نوبة. كان يعرف أسماء بعض أصدقاء لنا من سان فرانسيسكو. هكذا قام شخصان بإثارة رغبته في الهيروين وتعاطى معهم لأكثر من أسبوع. ثم ضبطهم. لم أكن معهم عندما وقع الأمر لأني لم أحب هذا الصنف من البشر، ولأني لم أتعاط الهيروين حينها. اكتشف محامي الشخصين المعتقلين أن الرجل كان وكيل مخدرات فدرالياً. وكيلاً، وليس واشياً. حتى إنّه تبين من اسمه».

حدّثني كاش عن حالة يتشارك فيها إثنان في الحقن، وفجأة يُخرج أحدهما بطاقته.

ـ قال كاش: «ما الذي يمكنك فعله؟ أعني هؤلاء الأشخاص يتعاطون بنفسهم. هم مثلي ومثلك بفارق صغير ـ أنهم يعملون لصالح العمّ سام».

الآن وقد أخذت مكاتب مكافحة المخدرات على عاتقها حبس كلّ مدمن في الولايات المتحدة، فإنها بحاجة إلى المزيد من الوكلاء للقيام بالعمل. ليس المزيد من الوكلاء فقط، وإنّما وكلاء من نوع مختلف.





كما حدث في الفترة التي وقع فيها حظر الكحول، عندما أغرق المتشردون والسفاحون دائرة ضرائب الإيرادات الدّاخليّة، ينضم الوكلاء ـ المدمنون الآن إلى هذه الأقسام لقاء الهيروين المجاني والحصانة. من الصعب تزييف الإدمان. المدمنون يميزون المدمنين الآخرين. ينجح الوكلاء المدمنون في إخفاء إدمانهم، أو ربما يصفحون عنهم لأنهم يحققون نتائج. الوكيل الملزم بالاتصال بتاجر أو باختبار نوبة، سيقدم على عمله بحماسة.

كاش، عازف البوق، الذي سجن لمدة ستة أشهر بعد أن أدين بتهمة التعاطي، كان شاباً طويل القامة، نحيفاً، له سكسوكة خشنة ونظارات داكنة. ارتدى حذاء له باطن جلدي مجعد سميك، وقمصاناً باهظة من شعر الجمال، ومعطفاً جلدياً يُربَط بحزام من الأمام. ارتدى ملابس بقيمة مائة دولار. امتلكت زوجته الأموال، وكاش صرفها. عندما التقيت به، كانت الأموال قد نفدت.

ـ قال لي كاش: «النساء يأتين إليّ. لا تعنيني النساء. الشيء الوحيد الذي يثيرني حقاً هو العزف على البوق».

استجدى كاش الهيروين بطريقة ذكيّة. كان من الصّعب أن ترفض طلبه. أقرضني مبالغ صغيرة من المال لم تكف لتغطية ثمن الهيروين الذي تعاطاه، ثم قال أنه أعطاني كلّ أمواله، ولم يعد معه ثمن حبوب الكودئين. قال لي إنّه توقف عن تعاطي الهيروين. وعندما وصل إلى المكسيك، أعطيته نصف حبة مورفين وَسَطَلته تماماً. اعتقد أن البضاعة التي تباع الآن في الولايات المتحدة الأمريكية مطحونة طحناً دقيقاً.

بعد تلك المرة، صار يأتي إليّ يومياً ويطلب منّي «نصف جرعة». أو





أنه استجدّى الهيروين من أبيك الذي لم يصدّ يوماً شخصاً عانى من نوبة. قلت لأبيك أن يتوقّف، وشرحت لكاش أنّي لست متورطاً في تجارة الهيروين. أبقيت على القليل منه لحالات الطوارئ كأن أكون خارج المدينة مع أصدقاء يعانون من نوبة، وأنّ أبيك لم يكن في الواقع تاجراً بمعنى الكلمة. وبالتأكيد لم يعمل في هذه التجارة مجاناً. باختصار، لم نكن جمعيّة خيريّة في خدمة المدمنين. منذ ذلك الحين، بالكاد رأيت كاش.

* * *

بيوتي هو نوع جديد من المخدرات في الولايات المتحدة. لا يندرج ضمن «قانون هاريسون»، ويمكن شراؤه من تجار الأعشاب والحصول عليه من البريد. لم أجرّب بيوتي في حياتي، وسألت جوني وايت إذا كان من الممكن الحصول عليه في المكسيك.

ـ قال: «نعم. يوجد هنا تاجر أعشاب يبيعه. دعانا جميعاً إلى منزله لنتناول معه بيوتي. يمكنك إن أردت أن تأتي، تعال. أريد أن أرى إن توفر لديه شيء يمكنني أن آخذه معي إلى الولايات المتحدة وأبيعه هناك».

ـ «لماذا لا تأخذ معك بيوتي؟».

ـ «لا يُحفظ. يتعفن أو يجف في غضون أيام قليلة، ويفقد سطلته».

ذهبنا إلى منزل تاجر الأعشاب وأحضر وعاء من البيوتي، ومبشرة وإبريقاً من الشاي.

البيوتي صبار صغير يؤكل منه فقط الجزء العلوي الذي يظهر فوق سطح الأرض. هذا الجزء يسمى «الزر». تُحضّر الأزرار عن طريق تقشير





اللحاء والزغب وهرسه في المبشرة حتى يبدو مثل سلطة الأفوكادو. أربعة أزرار هي متوسط الجرعة للمبتدئين.

أنزلنا البيوتي مع الشاي. كدت أتقيأه عدة مرات. أخيراً تمالكت نفسي وجلست في انتظار حدوث شيء ما. جلب تاجر الأعشاب قشرة وزعم أنها تشبه الأفيون. لف جوني سيجارة من المادة ومرّرها بيننا.

ـ قال بيت وجوني، «جنون! هذه أعظم مادة».

دخنت قليلاً وشعرت بدوار بسيط ووجع في حلقي. لكن جوني اشترى بعضاً من تلك القشرة ذات الرائحة الفظيعة، وقد نوى بيعها للبوهيميين اليائسين في الولايات المتحدة.

بعد مضي عشر دقائق بدأت أشعر بالغثيان من البيوتي. جميعهم قالوا لي: «لا تتقيأ يا رجل».

تمالكت نفسي لعشر دقائق أخرى، ثم توجهت إلى المرحاض وأنا مهيأ للتقيؤ في المنشفة، لكني لم أنجح. تشنج كلّ جسدي، ولكن البيوتي لم يخرج. ولم يبق.

أخيراً، وصل البيوتي إلى حلقي، صلباً مثل كرة من الشعر، وسدّ حلقي. كان ذلك أكثر إحساس رهيب عشته في حياته. بعد ذلك، بلغت ذروة السطلة ببطء.

سطلة البيوتي تشبه سطلة البنزيدرين. لا يمكنك أن تنام وبؤبؤ عينك آخذ في الاتّساع. كلّ شيء يبدو وكأنه نبتة بيوتي. قدت السيارة برفقة كاش وبيت وجوني وايت وزوجته. سافرنا إلى منزل كاش في لوماس.

ـ قال جوني: «انظروا إلى الأرض الموجودة بجانب الشارع. تبدو مثل البيوتي».





استدرت لأنظر، وقلت في قرارة نفسي: «يا لها من فكرة سخيفة. يستطيع الناس أن يقنعوا أنفسهم بأيّ شيء».

ولكن لم تبد وكأنها نبتة بيوتي. كل شيء رأيته بدا مثل نبتة بيوتي.

انتفخت وجوهنا من تحت العينين وصارت شفاهنا أكثر سمكاً جراء تأثير المخدرات على عمل الغدد. بدونا في الواقع مثل الهنود. وزعم الآخرون أنهم شعروا بأنفسهم بدائيين وتمددوا فوق العشب وتصرفوا كالهنود، كما ظنّوا. لم أشعر بأيّ اختلاف عن المألوف باستثناء السّطلة التي شابهت سطلة البنزدرين.

جلسنا طيلة الليل نتحدث ونستمع إلى إسطوانات كاش. حدثني كاش عن بعض الأشخاص من سان فرانسيسكو الّذين نجحوا في الإقلاع عن الهيروين من خلال البيوتي. «عندما بدأوا يتعاطون البيوتي، بدوا وكأنهم لم تعد لديهم رغبة في تعاطي الهيروين. سافر أحد المدمنين إلى جنوب المكسيك وبدأ يتعاطى *البيوتي* مع الهنود. تعاطاه في كل الأوقات وبكميات كبيرة: ما يصل إلى اثني عشر زراً في جرعة واحدة. مات من حالة تم تشخيصها بأنها مرض شلل الأطفال. مع ذلك، أدركُ أن هناك تطابقاً بين أعراض تسمم البيوتي وشلل الأطفال».

لم أستطع النوم حتى صباح اليوم التالي فجراً، وكلّما غفوت راودتني الكوابيس. في أحد الأحلام، أصبتُ بداء الكلب. نظرت في المرآة وتغير وجهي وشرعت في النباح. في حلم آخر، أدمنتُ الكلوروفيل. انتظرنا التاجر أنا وخمسة مدمنين على الكلوروفيل عند مدخل فندق مكسيكي رخيص. اخضررنا ولم ننجح في الإقلاع عن





إدمان الكلوروفيل. حقنة واحدة تعلّقك مدى الحياة. إننا نتحول إلى نباتات.

* * *

يبدو أن البوهيميين يعانون من نقص في الطاقة والتمتع العفويّ في الحياة. مجرّد ذكر الماريجوانا أو الهيروين، يحركهم مثل حقنة كوكايين. ينهضون، ويقولون «هذا كثير!هذا جنون! يا رجل، دعنا نشتري! دعنا نسطل!» ولكنهم بعد الحقنة، يتكومون على الكرسي مثل طفل لا مبالٍ ينتظر أن تأتيه الحياة بالرضاعة مرة أخرى.

اكتشفت أن مجالات اهتماماتهم محدودة للغاية. لاحظت بشكل خاص أنهم يبدون اهتماماً أقل من أبناء جيلي في ممارسة الجنس. تحدث بعضهم وكأن الجنس لا يوصلهم إلى أي نشوة. كثيراً ما أخطأت عندما ظننت أن شاباً ما هو مثليّ الجنسيّ بعد أن لاحظتُ عدم اهتمامه بالنساء، وتبين لاحقاً أنه لم يكن مثلياً على الإطلاق، ولكنه ببساطة فاقد للاهتمام بكل الموضوع.

* * *

رفع بيل غينس يديه، وانتقل إلى المكسيك. التقيت به في المطار. وكان مسطولاً من الهيروين والمسكنات. تبقّع سرواله بالدم في الأماكن التي حقن فيها على متن الطائرة بواسطة دبوس أمان.

تُحدث ثقباً بواسطة الدبوس، وتضع القطارة على الثقب (وليس داخله)، ويتسرب المحلول إلى الداخل. بهذه الطريقة لا تحتاج إلى إبرة، لكن يجب أن يكون للمدمن باع في الإدمان حتى تنجح الطريقة: يجب استخدام درجة ضغط دقيقة في تغذية المحلول. جربتها مرة،





وتدفق الهيروين إلى الجانبين وفقدت كل شيء. لكن عندما قام غينس بإحداث ثقب في جسده بقي الثقب مفتوحاً في انتظار الهيروين.

كان بيل متمرّساً قديماً. عرف الجميع في مجال تجارة الهيروين. امتلك سمعة ممتازة، وطالما كان هناك من يبيع الهيروين، تمكّن من الحصول عليه. ما دام بيل قد أقلع عن الموضوع، وترك الولايات المتحدة، خمّنتُ أنّ الوضع يائس هناك.

قال لي: «بالتأكيد، يمكنني أن أشتري. ولكن إذا بقيت في الولايات سأقضي نحو عشر سنوات في السجن».

حقنّا معاً، وبدأنا نتحدّث عمّا حصل للأشخاص.

ـ «توفى بارت العجوز في أيلاند. لوي الذي عمل في الفندق، صار واشياً. طوني ونيك صارا واشيين. لم يفرج عن هيرمان بشروط. وحُكم على الأعرج بالسجن مدّة ٥ ـ ١٠ سنوات. مارفن النادل توفى من جرعة زائدة».

تذكرت كيف فقد مارفن وعيه كلّما حقن نفسه. أمكنني أن أتخيّله ممدداً على السرير في أحد الفنادق الرخيصة. القطارة مليئة بالدم ومعلّقة بالوريد مثل عَلَقَة زجاجيّة، وشفتاه تزرقّان.

ـ «ماذا عن روي؟» سألت.

ـ «ألم تسمع عنه؟ صار واشياً وشنق نفسه في السجن». يبدو أن الشرطة وجّهت إلى روي ثلاث تهم: اثنتين سرقة، وواحدة مخدرات. وعدوه بإسقاط جميع التهم إذا أوقع بإيدي كرامب، وهو تاجر قديم. باع إيدي فقط الأشخاص الذين عرفهم معرفة جيدة، وقد عرف روي. بعد أن أمسك رجال الشرطة بإيدي، غدروا بروي. أسقطوا تهمة





المخدرات، وأبقوا تهمَتي السرقة. لذلك كان من المقرر إرسال روي إلى رايكرز أيلاند، حيث قضى إيدي هناك أقصى مدة ممكنة في سجن مدنيّ: ثلاث سنوات وخمسة أشهر، وستة أيام. شنق روي نفسه في السجن، حيث كان ينتظر نقله إلى لريكرز.

كانت لروي دائماً وجهة نظر متعصبة ومتزمتة من الواشين.

ـ قال لي مرة: «لا أفهم كيف يمكن يتعايش مع الواشي مع نفسه».

سألت بيل عن مدمني المخدرات من الأطفال. هز رأسه وابتسم، ابتسامة خبث وشماتة.

ـ «نعم، ليكسينغتون تعجّ بالصغار الآن».

* * *

كنت يوماً في «أوبرا بار» في مدينة مكسيكو والتقيت بسياسيّ عرفته. كان يقف عند طاولة المشرب وقد اندسّ منديل في ياقته، وتناول شريحة لحم. بين لقمة وأخرى سألني إذا عرفتُ شخصاً معنياً باقتناء أوقية من الهيروين.

ـ قلت له: «ربما. بكم؟».

ـ قال: «يريدون خمسمائة دولار».

تحدثت إلى بيل غينس وقال:

ـ «حسناً. إذا كان نقياً نوعاً ما سأشتريه. ولكني لا أشتري دون أن أرى. لا بد لي من تجريب المادّة أولاً».

لذلك رتبت الأمر مع السياسيّ وقصدنا مكتبه. أحضر المادة من





الدرج في قفاز إصبع ووضعها على المنضدة بجانب مسدس أوتوماتيكيّ عيار ٤٥.

ـ قال: «لا أعرف شيئاً عن هذه المادة. أنا أتعاطى الكوكايين فقط».

سكبت بعضاً منها على قطعة ورق. لم تبد لي جيدة. نوعها أسود يميل إلى الرمادي. أظن «أنهم» قاموا بتسخينها في مكان ما على موقد المطبخ.

حقن غينس نفسه مرّة وحدة، لكنه كان مسطولاً من أقراص المسكنات والمورفين بحيث لا يمكنه أن يقول شيئاً عن المادة. لذلك حقنت نفسي وقلت له:

ـ «هذا هيروين، ولكن شيئاً ما فيه ليس على ما يرام تماماً».

كان الناس في هذه الأثناء يدخلون ويخرجون من المكتب. جلسنا على الأريكة، ثنينا أكمامنا، وبحثنا عن وريد نحقن فيه، ولم يكترث بنا أحد. أي شيء يمكن أن يحدث في مكتب سياسيّ مكسيكيّ.

على أيّة حال، اشترى بيل الهيروين وذهبت أنا إلى مكان ما ورأيته في اليوم التالي، عند الحادية عشرة، في صباح مكسيكي مشرق، وقف بجانب سريري، وقد بدا متجيّفاً في معطفه الأسود والأزرق، وعيناه تلمعان أكثر من أي وقت مضى، وتومضان في ظلام الغرفة المغطاة بالستائر. وقف هناك ورأسه مترسّب بالهيروين الهاوي مثل الملتويات.

ـ سألني: «هل ستتمدد على سريرك هكذا وحسب؟ مع كل هذه الشّحنات الوافدة؟».

ـ قلت بعصبية: «لم لا؟ أنا لست في مزرعة لعينة...أي شحنات؟».





ـ قال: «مورفين ذو جودة، نقيّ». ثم انضم إليّ في السرير وهو يرتدي الحذاء والمعطف وكلّ شيء.

ـ سألت: «ما بك؟ هل جننت؟» نظرت إلى عينيه الفارغتين المشرقتين ورأيت أنّه جنّ فعلاً.

أعدته إلى غرفته وصادرت ما تبقّى من قطعة الهيروين.

ظهر أيك، وسكبنا معاً عشرة سنتيمترات من محلول الأفيون في مريء بيل. بعد ذلك توقف عن الهذيان بشأن «شحنات المورفين النقيّ ذي الجودة». ونام.

ـ قال أيك: «قد يموت ويتهمونني».

ـ قلت: «إذا مات، ارحل من هنا. اسمع. في محفظته ستمائة دولار نقداً. لماذا نسمح لشرطيّ مكسيكي بسرقتها؟».

قلبنا المكان بحثاً عن المحفظة، لكننا لم نجدها. بحثنا في كل مكان إلا تحت الفراش الذي رقد فوقه بيل.

في اليوم التالي كان بيل في حالة جيدة وكأنه شخص جديد، لكنه لم يعثر على ماله.

ـ قلت: «لا بد أنك خبأته. افحص تحت الفراش».

قلب الفراش وقفزت المحفظة إلى أعلى وانفتحت، كانت مليئة بالأوراق النقديّة.

* * *

لم أتعاط الهيروين وقتها، لكنني لم أكن «نظيفاً» عندما وقع تفتيش فجائيّ. توفّر لديّ بعض الحشيش دائماً، واستخدم الناس منزلي كمحطة





للحقن. جازفت ولم أربح قرشاً واحداً. قررت بأنه حان الوقت للرحيل والتوجه جنوباً.

عندما تقلع عن الهيروين، فإنك تتخلّى عن أسلوب حياة. رأيت مدمنين أقلعوا عن تعاطي الهيروين وأدمنوا الكحول ورحلوا عن العالَم في غضون سنوات قليلة. الانتحار شائع بين مدمني المخدرات السابقين. لماذا يقلع المدمن بإرادته عن الهيروين؟ لن تعرف أبداً الجواب على هذا السؤال. أيّ حساب منطقيّ لمساوئ وفظائع الهيروين لن يوصلك إلى الدافع العاطفيّ للإقلاع عنه. قرار الإقلاع عن تعاطي الهيروين هو قرار خلويّ، في اللحظة التي تقرر فيها الإقلاع عن التعاطي لن تعود إلى الهيروين أبداً، تماماً كما لم يكن بإمكانك أن تبتعد عنه في السابق. مثل شخص سافر في رحلة طويلة، عندما تعود من الهيروين ترى الأمور بشكل مختلف.

قرأت عن دواء يسمى ياغي، يستخدمه الهنود في منابع الأمازون. من المفترض أن يزيد هذا الدواء حساسية التخاطر. نجح باحث كولومبي في استخلاص دواء من الياغي يدعى تيليباتين.

أعرف من تجربتي الخاصة أن التخاطر هو حقيقة. لا يعنيني أن أبرهن وجود التخاطر أو أي شيء آخر لأي شخص. أريد معرفة نافعة حول التخاطر. ما أبحث عنه في أي علاقة هو الاتصال على المستوى الشفهي للحدس والشعور، أقصد، الاتصال بالتخاطر.

على ما يبدو، لست الوحيد المهتمّ بالياغي. الروس يستخدمون هذا الدواء في التجارب التي يجرونها على العاملين بالسخرة. يريدون أن يخلقوا أوضاعاً من الانصياع الآليّ والسيطرة على الفكر. هذه خديعة





أساسية. لا تأسيس، لا تعويد، الولوج في نفس الإنسان وتوزيع الأوامر فقط. من المؤكد أن لهذا العمل نتائج عكسية لأن التخاطر بطبيعته ليس أحاديّ الاتجاه، أو مجموعة من عمليّات الإرسال والتلقي.

قررت التوجّه إلى كولومبيا والحصول على الياغي. بيل غينس وأيك استقاما. أنا وزوجتي انفصلنا. وأنا على استعداد للانتقال جنوباً سعياً وراء سَطلة غير مخفّفة التركيز تفتح آفاقاً بدلاً من تضييقها كما يفعل الهيروين.

السّطل هو أن ترى الأمور من زاوية خاصة. السّطل هو التحرّر الخاطف من مطالبات الجسد الخائف، القلق، الحذر المتشيّخ. قد أجد في الياغي ما كنت أبحث عنه في الهيروين والحشيش والكوكايين. قد يكون الياغي هو التوازن الأخير.





# الفهرس







# هذا الكتاب

وُلدتُ عام ١٩١٤ في منزل مبنيّ من الطّوب مكوّن من ثلاثة طوابق في مدينة كبيرة في الغرب الأوسط الأمريكيّ. عاش والداي في بحبوحة. كان والدي يمتلك ويُدير مصلحةَ بيع ألواح خشبيّة. في واجهة المنزل، كان هناك مسطّح أخضر، وفي الفناء الخلفيّ حديقة وبركة أسماك، وسياج خشبيّ عالٍ طوّق كلّ ذلك. أذكر رجلَ الإضاءة الذي أشعلَ القناديل في الشوارع، وسيارة لينكولن البرّاقة السوداء الضّخمة والرحلات إلى المتنزه في أيام الأحد. كلّها مقوّمات حياة آمنة ورغيدة كانت يوماً ولم تَعد.





ISBN 978-993335273-8